المرأة في العصور العباسية

دراسة نحوية وأسلوبية

المرأة في العصور العباسية

دراسة نحوية وأسلوبية

الدكتور

عطية نايف عبدالله الغول

الطبعة الأولى ٢٠١٤م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٧٦٦/ ٢ /٢٠١٢

ISBN 978 – 9957 – 551- 38 - 4

دار الجنان للنشر والتوزيع

المركز الرئيسي(التوزيع - المكتبة)

المملكة الأردنية الهاشمية

٠٠٩٦٢٧٩٦٢٩٥٤٥٧ – ٠٠٩٦٢٧٩٥٧٤٧٤٦٠

تلفاكس ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١

ص. ب ٩٢٧٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩٠ عمان

مكتب السودان ــ الخرطوم ٠٠٢٤٩٩١٨٠٦٤٩٨٤

E-mail:dar_jenan@yahoo.com

المرأة في العصور العباسية

الدكتور

عطية نايف الغول



فهرست

المرأة في العصور العباسية

المقدمـــة:

النساء شقائق الرجال والرجال أشقّاء النساء . وقد خاطبهمـــا المـــولى – سبحانه - بوصف كلّ واحدٍ منهمـــا إنـــساناً ،فقـــال :{ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم}{سورة الانفطار آية ٦ } **وقال :** { بل الإنسان على نفسه بصيرة } { سورة القيامة آية ١٤} **وقـــال :** { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى {سورة الحجرات آية ١٣ }.

فالله – سبحانه – خاطب الإنسان وجعله موضـــع الخطـــاب والتكليـــف ، وأنزل إليه الشرائع لهدايته سواء السبيل، ويحاسبه يوم القيامة بوصـــفه إنـــساناً بصرف النظر عن كونه امرأة أو رجلاً ، فالمرأة إنسان كامل الإنسانية ،والرجـــل إنسان كامل الإنسانية ،ولا يختلف أو يمتاز احدهما عن الآخـــر فـــي الإنـــسانية ، وهما بطبيعة فطرتهما التي فطرهما الله عليها مهيّئان للعـــيش معـــاً ، وخـــوض معترك الحياة، حفاظاً على بقاء النوع الإنساني المتوقف على اجتماعهما معاً فـــي كل موقع أو مجتمع، ولا بدّ من اجتماعهما وتعاونهما في الحياة العامة، غيـــر أن هذا الاجتماع وذاك التعاون وإن كان ضرورياً للمجتمع إلا أنه لا يمكن أن يتمّ إلاّ وفق نظام معيّن ينظم طبيعة العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة ، هذا النظام تكون الناحية الروحية أساسه والأحكام الشرعية مقياسه لتحقيق القيم الخلقية التي يجب أن تسود النظام الاجتماعي في المجتمع ،فأهلية المرأة بالنسبة للأحكام الـــشرعية كأهلية الرجل سواء بسواء ،وهذه الأهلية محلٌّ للخطاب والتكليف والاســـتجابة ، قال تعالى : { من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانون يعملون}{سورة النحل ٩٧}، **والمـــرأة فـــي المجتمـــع تشكل حجر الزاوية فيه ،ومسؤوليتها في بناء المجتمع وتغييـــره والارتقـــاء بـــه وتأثيرها في سلوكه وتوجّهاته مسؤولية جسيمة ، منذ أن يتخلّـــق وليـــدها فـــي**

رحمها إلى أن تضعه، فتسكب في سمعه هدهدات التربية وأبجديات المعرفة ، حتى إذا شبّ عن الطوق وصار طفلاً شكّلته بتوجيهاتها وممارسـاتها الـسلوكية وقيمها المبدئية.

وعليه، فالمرأة إنسان كالرجل تماماً، وأنها مكلفـة كالرجـل أمـام الله، والآيات في ذلك كثيرة ، وميزان التفاضل بين الرجل والمرأة هو التقـوى، ولهـا شخصيتها المستقلة في التملك والبيع والشراء والزواج، والميراث ،ولهـا حـق العلم، وحق العمل، فلا تمنع من عمل شريف تقدر عليه بيعـاً وشـراءً ،وكتابـة ووظيفة ضمن الحدود التي شرعها الله والتي تناسب طبيعتها الأنثوية.

مهاد تاريخي

المرأة في العصر الجاهلي

من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في الحديث عن المــرأة فــي الجاهلية، ما اثر عن العرب من شعر ووصايا وأمثال، ومن يتتبع أشعار العــرب وأمثالهم في الجاهلية يجزم بان المرأة كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية، فكانت تستشار في مهام الأمور ، وتشارك الرجل في كثير من أعماله ،وكانت علاقتهــا بزوجها على درجة من الرقيّ، يدلّك على ذلك افتخار الرجل بنسبة لأمّه كما يفخر بنسبة لأبيه ، وفي أمثال العرب قولهم: محا السيف ما قــال ابــن دارة أجمعــا[1] ،وابن دارة سالم أحد بني عبدالله بن غطفان ،ودارة أمّه، وقولهم عن الوفــاء: أو فى من خماعة[2]، وخماعة هذه هي بنت عوف بن محلّم الشيباني وقــد أجــارت مروان القرظ ،وقولهم: أو في من فكيهة [3]وفكيهة بنت قتادة بن مــشنوء خالــة طرفة بن العبد، استجار بها السليك بن السلكة فأجارته وفيها يقول:

لعمر أبيكِ والأبناء تنمـــــــي	لنعم الجار أخت بني عـــــوارا
عنيت بها فكيهة حين قامــت	كنصل السيف فانتزعوا الخمارا
من الخفرات لم تفضح أخاها	ولم ترفع لوالدها شنـــــــــارا

وأما عن مشاركة المرأة الرجل في مهام الأمور قولهم: ما يــوم حليمــة بسرّ[4]وكان المنذر بن ماء السماء قد غزا الحارث بن جبلة الأكبر ، فأمر الحارث ابنته حليمة أن تعطّر مائة فارس من فرسانه بخلوق، ثم أمــرهم بالــذهاب إلــى المنذر وإظهار الطاعة له، حتى إذا غفل عنه رجاله قتلوه، فقيل: ما يوم حليمــة بسرّ ، أما شعر الشعراء ومطالع قصائدهم فإنها غالباً ما تبدأ بالوقوف على إطلال

---

[1] انظر : مجمع الأمثال ج ٢ /٣٣١

[2] نفسه مجمع الأمثال ج٢/٤٤٥

[3] نفسه ج ٢/٤٤٥. ٤٤٦

[4] نفسه ج٢/٣٠٩. ٣١١

الحبيبة، ومساءلتها عنها، وربما بدأت بالنسيب ، ثم يعرّج الـشاعر علـى الفخر بمحامده وعظيم فعاله، من نحو قول البعيث بن حريث الحنفي وهو شـاعر جاهلي(٥):

خيال لأم السلسبيل ودونهـا	مسيرة شهر للبريد المذبذب
فقلت لها أهلاً وسهلاً ومرحباً	فردّت بتأهيل وسهل ومرحبِ

وهذا حجر بن خالد وهو شاعر جاهلي ،كان معاصراً لعمرو بن كلثوم يقول:

كلبية علق الفؤاد بذكرهـا	ما إن تزال ترى لها أهـوالاً
فاقني حياءك لا أبالَك إنني	في أرض فارس موثق أحوالا(١)

ونظام العرب في الجاهلية في الزواج نظام ثابت، فكـان جمهـورهم يقتـرن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان الكثيرون يستشيرون البنات في أمر زواجهن كما فعل والد الخنساء مع الخنساء حين تقدّم لخطبتها دريد بن الصمّة ، فرفـضته وقدّمت عليه أبناء عمومتها، ومع ملاحظة أن هناك أنماطاً أخرى للزواج عرفـت عند العرب، ولكنها لم تكن مستحسنة عندهم على أن الزواج عنـد العـرب هـو الأصل ، ويسمّى زواج البعولة، وينشأ بالخطبة والمهر والعقد ،وقد أقرّه الإسلام ، ودعاه الزواج الشرعي ، وبه يحلّ النكاح ، وتتحقق غاية الـزواج، أمـا أنمـاط الزواج أو أشكال الانكحة الأخرى التي عرفت عند العرب فخير من يحـدّثنا عنـه السيدة عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه ، فقد أورد البخاري عنها قولهـا: "كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم،يخطب الرجل وليّته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخـر ويـسمى الاستبـضاع ، ونكاح المضامدة، ونكاح المخادنة، وأخيرا نكاح البغاء وهو زنى المرأة لقاء أجر

(٥) شرح ديوان الحماسة ج ١/ ١٣٠

(١) شرح ديوان الحماسة ج ٢/ ٣٥١. ٣٥٢

ونكاح الشِّغار ونكاح البدل ونكاح المقت[٢]ولما بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم.

كان الكثيرون من العرب يتأبّون منها ، لما عرف عنهم من الغيرة على الشرف وكان من النادر عندهم أن يرى الإنسان بنتاً بالغة قد أدركت سن الزواج أو أرملة صغيرة في سن الزواج ولم تتزوّج ، كما كانوا يطلّقون ،والطلاق بيد الرجل ولا أدل على ذلك من طلاق الفاكه بن المغيرة المخزومي لهند بن عتبه بقوله لها : إلحقي بأبيك ولما برأها الكاهن مما رماها به الفاكه أراد أن يسترجعها فأبت عليه ذلك[٣] وإذا كان الطلاق في الجاهلية بيد الرجل فان بعض النساء آنذاك كن يشترطن أن يكون أمرهن بأيديهن ، ولا ينكر أهلوهن عليهن ذلك ، فكانت الواحدة منهن يأتيها الخاطب فتجلس إليه ، وتظهر أمامه على طبيعتها دون تكلف أو تصنّع ، روي أن هند قالت لأبيها عتبة بن ربيعة إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ ، قال : لك ذلك، فقال لها ذات يوم انه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك، أما الأول ففي الشرف الصميم والحسب الكريم تخالين به هَوَجاً من غفلته وذلك اسجاح من شيمته ،حسن الصحابة ،سريع الإجابة،إن تابعته تبعك ،وان ملت كان معك، تقضين عليه في ماله، وتكتفين برأيك عن مشورته، وأما الآخر ففي الحسب الحسيب، والرأي الأريب بدر أرومته ، وعزّ عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه إن تبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعر عليهم،شديد الغيرة ، سريع الطيرة، صعب حجاب القبّة ، إن حاجّ فغير منزور ، وإن نوزع فغير مقهور، وقد بينّته لك كليهما، قالت أما الأول فسيّد مضياع لكريمته، مواتٍ لها فيما عسى أن تعتصّ أن تلين بعد ابائها ، وتضيع تحت خبائها إن جاءته بولد أحمقت وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، اطوِ ذكر هذا عنّي ولا تسمه لي،وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذه لوامعَة، واني لأخذة بأدب البعل مع لزومي قبّتي، وقلّة تلفّتي..... قال

---

[٢] روى حديث السيدة عائشة البخاري وأبو داود : التاج ج٣٦٨/٢- ٣٦٩
وانظر : نهاية الارب في فنون للنويري ج٥٨/١٦ ، وانظر : ابن هشام ج١٥٥/١، ومعجم البلدان ج٤٤١/٣ .

[٣] وانظر القصة بتمامها في العقد الفريد ج٩٢/٧ ، ٩٣ .

ذاك أبو سفيان بن حرب قالت: فزوّجه ولا تلق إلقاء السلس، ولا تسمه سَوم الضرس، ثم استخر الله في السماء يخر لك في القضاء[1].

والعربي لا يزوّج بناته إلا من الأكفاء، وذلك بعد مشورتهن ،وإذا ما وافقت إحداهن على الزواج من هذا الكفء، رفضت أن يمسّها قبل أن يصلح بين الأحياء المتخاصمة لئلا يقال عنه انه تفرغ لشأن ذاته، فشغل بأمر امرأة عن إصلاح ذات البين، فقد كانت الحرب قائمة بين عبس وذبيان، فأصلح بينهم ، وحمل ديات القتلى وكانت ثلاثة آلاف بعير، وانصرف بأجمل ذكر ، ورجع إلى أهله ، ولم يفته شيء مما كان يستعجله فيهم، هذه قصة هذا المصلح وهو الحارث بن عوف بن أبي حارثة حين خطب بهيسة بنت أوس بن لأم الطائي[2].

وقد كانت بعض نساء العرب في الجاهلية ولاسيما من كان أمرها بيدها أن يوافق خاطبها هواها،والصفات التي تراها مثلى في نظرها كالكرم مثلاً ،فقد روى صاحب العقد الفريد أن امرأة من العرب تدعى ماوية ذات جمال وكمال وحسن ومال آلت إلا تتزوج إلا كريماً ، ولئن خطبها لئيم لتجدعن أنفه، فتحاماها الرجال فتقدم لخطبتها ثلاثة رؤوس من طيء وهم زيد الخيل وحاتم بن عبد الله ، وأوس بن حارثة ، فارتحلوا إليها " ، فلما دخلوا عليها قالت: مرحباً بكم ما كنتم زوّاراً ، فما الذي جاء بكم؟ قالوا : جئنا زوّاراً وخطاباً، قالت: أكفاء كرام ، فانزلتهم وفرقت بينهم وأسبغت لهم القرى وزادت فيه، فلما كان اليوم الثاني بعثت بعض جواريها متنكرة في زيّ سائلة تتعرض لهم، فدفع لها زيد وأوس شطر ما حمل كل واحد منهما ، فلما صارت إلى حاتم دفع إليها جميع ما حمل، فلما كان في اليوم الثالث دخلوا عليها، فقالت : ليصف كل واحد منكم نفسه في شعره ، فابتدر زيد وأنشأ يقول:

هلاّ سألت بني نبهان ما حسبي	عند الطعان إذا ما احمرّت الحدّق
وجاءت الخيل محمرّاً بوادرها	بالماء يسفح عن لبّاتها العَلَق

[1] الأمالي ج١٠٦/٢ – وانظر : العقد الفريد ج ٨٨/٦ .

[2] انظر : الأغاني ج ١٠ /٢٩٥ وما بعدها.

والخيل تعلم أني كنت فارسهـــا | يوم الأكسّ به مـــن نجــده روق
والجار يعلم أني لست خاذلـــــه | إن ناب دهر معظــم الجار معترق
هذا الثناء فان ترضى فراضيـــه | أو تسخطي فإلى من يعطف العّنَق

وقال أوس : انك لتعلمين أنا أكرم أحساباً وأشهر أفعالاً مـــن أن نـــصف أنفسنا لك، أنا الذي يقول فيه الشاعر:

إلى أوس بن حارثة بـــــــن لأم | يقضي حاجتي فيمن قضاهـــا
فما وطئ الحصى مثل ابن سعدي | ولا لبس النعال ولا احتذاهـــا

وانشأ يقول:

فان تنكحي ماويّة الخير حاتماً | فما مثله فينا ولا في الأعاجــم
فتي لا يزال اكبر همّـــــــــه | فكاك أسير أو معونة غـــــارم
وإن تنكحي زيداً ففارس قومه | إذا الحرب يوماً أقعدت كل قائم

....

وإن تنكحيني تنكحي غير فاجرٍ | ولا جارف جرف العشيرة هادم

....

فأي فتى اهدي لك الله فاقبلي | فإنا كرام من رؤوس الاكـــارم

وأنشأ حاتم يقول:

أماويّ قد طال التجنّب والهجــر | وقد عذرتني في طلابكـــم العــــــذر
أماويّ إما مانــع فمبيّـــــــــن | وإما عطـــــــــاء لا ينهنهـــه الزجــر
أماويّ ما يغني الثراء عن الفتى | إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصـــــدر

....

فقالت : أما أنت يا زيد ، فقد وترت العرب، وبقاؤك مع الحرّة قليل، وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر، والصبر عليهن شديد، وأما أنت يا حاتم فمرضيّ الخلائق، محمود الشيم ، كريم النفس ، وقد زوّجتك نفسي"[1].

وقد تردّ المرأة خاطبها إذا عرفت من صفاته ما لا يرضيها، فقد رّوي أن رجلاً تقدم لخطبة امرأة من عجل يقال لها خليعة، فأبت أن تتزوجه ،وقالت له أنت صعلوك فقير، لا تحفظ مالك ،ولا تلفي شيئاً إلا أنفقته في الخمر، فقال أبو جلده في ذلك:

لما خطبت إلى خليعة نفسها	قالت خليعة ما أرى لك مالا
أودى بمالي يا خليع تكرّمي	وتخرّقي وتحمّلي الأثقالا
إني وجدّك لو شهدت مواقفي	بالسفح يوم أجلل الأبطالا
سيفي لسرّك أن تكوني خادمي	عندي إذا كره الكماة نزالا[2]

ومما يجدر ذكره انه كان في الجاهلية نوعان من النساء :حرائر وإماء، والإماء كثيرات ، مارس بعضهن العهر، واتخاذ الأخدان ، ومنهن من يضربن على المزهر والدفوف في حوانيت الخمارين، ومنهن جوارٍ يخدمن الشريفات، وقد يقمن برعي الإبل والأغنام، وعلى وجه الإجمال وكانت الإماء في منزلة متدنية ، وإذا ما استولد عربي واحدة منهن، لم يلحقه بنسبة إلا إذا اظهر بطولة تشرّف أباه على نحو ما عرف عن عنترة بن شدّاد وشجاعته التي أظهرها ، فردّت إليه حريته واعتباره.

أما الحرائر فكانت الواحدة منهن تقوم بطهو الطعام، ونسج الثياب، وإصلاح الخباء إلا إذا كانت شريفة مخدومة، فان جواريها يقمن مقامها في هذا العمل، على أن كثيراً من بنات الإشراف والسادة تمتعن بمنزلة سامية، لدرجة أنهن كنّ يملكن الحرية في اختيار أزواجهن على ضوء ما مرّ معنا، وقد يتركنهم

---

[1] انظر : أمالي الزجاجي- ص ١٠٦- ١٠٩- والزواج عند العرب ص ٨٠.

[2] الأغاني ج١١/٣٢٠

إذا لم يحسنوا عشرتهن[٣] وبلغ من منزلـــة بعض الشريفات مــن نــساء العرب أنهن كنّ يجرن ويحمين من يستجير بهنّ، ويرددن للمــستجير حريتــه إذا استشفع بإحداهن ، على نحو ما فعلت فكيهة إلى السليك بن السلكـــة حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار[١]، وكانوا يعدّونها جزءاً من عرضهم، ولــم يكن شيء يثير الحمية في نفوسهم أكثر من سبي نــسائهم وهــم بعيــدون عــن أحيائهم، فكانوا يركبون الصعاب حتى يلحقوا بالمغيرين، ويــستنقذوهن مــنهم ، ويغسلوا عار سبيهن، وهو عار ما بعده عار[٢] ،وقد كانت المرأة العربيــة تمثّــل واحة يفيء إلى روحها العربي، يــستظل بظلّهــا ، ويرتمــي فــي أحــضانها ، ويصحبها معه في السلم وفي الحرب، أما في الحرب فكن يــشددن مــن عــزائم المحاربين بما ينشدن من اشعار حماسية ، حتى إذا قتل فارس من فرسانهم ندبنه ندباً موجعاً، حاضّات فرسان العشيرة على الأخذ بثأره والانتقام من قبيلة القاتل، والخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مثال حــيّ علــى ذلــك ، تقــول الخنساء:

هريقي من دموعك أو أفيقي	وصبراً إن أطقت ولم تطيقي
وقولي إن خير بني سليـــــم	وفارسهم بصحراء العقيــق
واني والبكا من بعد صخــر	كسالكة سوى قصد الطريق

....

وإذ يتحاكم الســـــادات طــرّاً	إلى أبياتنا وذو والحقـــــوق
وإذ فينا فوارس كلّ هيجــــا	إذا فزعوا وفتيان الخــروق
إذا ما الحرب صلصل ناجذاها	وفاجأها الكماة لدى البــروق
وإذ فينا معاوية بن صخـــــر	على أدماء كالجمل الفنيـــــق
فبكيّه فقد وليّ حميـــــــــداً	أصيل الرأي محمود الصديق[٣]

---

(٣) انظر : الأغاني ج١٠ ١٣/١ وما بعدها.
(١) انظر : الأغاني ج١٨/٣٧ .
(٢) انظر : العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٧٢ ، ٧٣
(٣) ديوان الخنساء ص ٨٦. ٨٧

وكن يستشطن غضبا إذا رضيت العشيرة بأخذ الديه، حقناً للـدماء ، على نحو ما تصوّر ذلك كبشة أخت عمرو بن معدي كرب وقد قتل أخ لها :

أرسل عبد الله اذحان يومـه ... إلى قومه لا تعقلوا لهم دمـي

ولا تأخذوا منهم أفالا وأبكـرا ... وأترك في بيت بصعدة مظلـم

ودع عنك عمراً إنّ عمراً سالم ... وهل بطن عمر غير شبر لمطعم

فان أنتـم لم تثأروا واتّديتم ... فمشّوا بآذان النعام المصلَّـم

ولا تردوا إلا فضول نسائكـم ... إذا ارتملت أعقابهن من الـدم[٤]

فهي تصوّر أخاها يخاطب قومه وقد قتل بالاّ يأخذوا ديته مـن قاتليـه ، سواء أكانت ديته من صغار الإبل أو من أبكارها ، وان عمراً أخاها الذي كان يعدّ بألف فارس رجل مسالم همّه الأكل ، تريد بذلك إثارته لطلب الثأر من قاتلي أخيه ، وترى أن عشيرتها إن قبلت دية أخيها أعطت عن يد وهـي صـاغرة صـغار الأسرى الذين تجدع آذانهم ، بل صغار النعام المصلّم المقطوعة آذانه . وها هي أم عمرو بنت وقدان تقول في أخ لها قتل وقد فكّرت عشيرتها بأخذ ديته:

إن انتم لم تطلبـوا بأخيكـم ... فذروا السلاح ووحّشوا بالابرق

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا ... نقب النساء فبئس رهط المرهق

ألهاكم أن تطلبـوا بأخيكـم ... أكل الخزير ولعق أجرد امحـق

تقول : أن ضيعتم دم أخيكم وقعدتم عن الانتقام له ، لتقصيركم في طلـب ثأره ، فضعوا السلاح واطّرحوه بالابرق ، واجعلوا بدل السلاح آلات النساء مـن مكاحل ومجاسد، لان الذي لا يثأر لقتيله من الأعداء ، عليه أن يتزيّا بزيّ النساء، وفي هذا بعث وتحضيض على طلب الثأر من القاتل وعشيرته[١].

وقد يفرّ رجال العشيرة من المعركة إذا حمي وطيسها إذا لـم يكـن مـن الفرار بدّ ، إلا أن تكون النساء معهم يروهن فارّات وقد حسرن عـن وجـوهن،

---

[٤] شرح ديوان الحماسه للمرزوقي ج١/٢١٧ ـ ٢١٩

[١] انظر : شرح الحماسة ج٣/١٥٤٦ .

حينئذٍ يثبتون في المعركة ويقاتلون حتى الذماء الأخيرة [٢]،يروي ابن هشام أن قريشاً في معركة أحد اصطحبت معها النسوة وقامت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها فأخذن الدّفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم فقالت هند فيما تقول:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكلّ بتّار

وتقول : إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غيرّ وامق[٣]

على أن بعض القبائل العربية من مثل مضر وخزاعة كانت تئد البنت في التراب وهي ما زالت حيّة خوفاً من القهر أو العار أو طمع غير الأكفاء ، أو مخافة الإملاق، فكانت ولادة البنت لأحدهم مجلبة للغم والغيظ والكرب والتأسف، وربما استشاط غضباً فهجر البيت الذي ولدت فيه ابنته، قالت إحداهن وقد وضعت أنثى :

ما لأبي حمزة لا ياتينا يظلّ في البيت الذي يلينا
غضبان ألاّ نلد البنينا وليس لنا من أمرنا ماشينا
وإنما نأخذ ما أعطينا[١]

وقد صوّر القرآن مواقف القبائل التي كانت تئد بناتها في جملة آيات كريمات منها قوله تعالى { وإذا بشّر احدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كضيم* يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به، ايمسكه على هون أم يدسّه في التراب الاساء ما يحكمون } { سورة النحل أية ٥٨ } .

---

[٢] انظر : شرح الحماسة ج١٧٧/١.
[٣] سيرة ابن هشام ج٧٢/٣
[١] الجامع لأحكام القرآن مج ٣٤٣/١٢.

وهذا عقيل ابن علّفه يقول حين خطبت ابنته الجرباء:

إني وإن سيق إليّ المهر　　　ألف وعبدان وخور عشر

أحبّ اصهاري إليّ القبر

وبالمقابل فان بعض من كان يعزّ عليه أن تدفن الوليدة في التراب كصعصعة جدّ الفرزدق الشاعر إذا احسّ بشيء من ذلك، وجّه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك ، فقال الفرزدق يفتخر بذلك : وجدّي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأدِ[٢]

وإذا كان بعض العرب يكره البنت فان بعضهم أحبها وتكنّى باسمها، فهذا قيس بن مسعود الشيباني يكنّى أبا الخنساء، وحذيفة بن المغيرة يكنّى أبا أمية ، وربيعة بن رباح يكنّى أبا سلمى،ووالد حنظلة يكنّى أبا أمامه ، وجدّ أعشى باهلة يكنّى أبا باهلة ، ومالك بن عمرو بن ثابت يكنّى أبا حنّة ، وجابر ابن أسامة الجهني يكنّى أبا سعاد، وعمرو بن عبد الله الجمحي يكنّى أبا عزّة، وحاتم الطائي يكنّى أبا سفانة ، وهناك أبو ريطة، وأبو آمنة وأبو جميلة وأبو أسماء وأبو كدراء العجلي وأبو نائلة وأبو لبابة وأبو زينب وأبو هند[٣].

وهذه أم خارجة عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قدار البجلية، من شريفات النساء في الجاهلية ،يضرب بها المثل في سرعة الزواج، فقد تزوجت نيّفاً وأربعين زوجاً، ذكرها ابن حبيب في باب النسوة اللواتي كانت إحداهن إذا أصبحت عند زوجها كان أمرها إليها ، إن شاءت أقامت وإن شاءت تركته وذلك لشرفهن وقدرهن[١].

وإذا كانت الأمثال العربية قد أفصحت عن ضرب العرب المثل بوفاء المرأة فإنهم اعتزوا بنسبهم إلى أمهاتهم من نحو: المنذر بن ماء السماء ، وعمرو بن هند، وشرحبيل بن حسنة ، ومعاذ بن عفراء.

---

[٢] ديوان الفرزدق حص١٧٣ ، والجامع لأحكام القرآن مج ٣٤٢/١٢

[٣] انظر : المرأة في الإسلام ص ٧٠ ، ٧١

[١] مجمع الأمثال للميداني ج٢٣٥/١ .

وعنترة بن زبيبة الذي يقول في أمّه:

أنا ابن سوداء الجبين كأنّها ذئب ترعرع في جوار المنزل
الساق منها مثل ساق نعامةٍ والشعر منها مثل حبّ الفلفل

كما أن بعض القبائل تسمى بأسماء مؤنثة مثل :جديلة ،وعفراء ، ومزينـــة، وباهلة وبجيلة ، وخندف ،وكان خوف بعض العرب على بناتهم أن يصبن بـــالفقر بعد موتهم، أو يعاملها عمّها أو خالها أو أخوها بفظاظة بعد موت أبيهـــا ، كـــان خوفهم يدفعهم إلى تمنّي موتها شفقة عليها ، يقول إسحاق بن خلـــف (شـــاعر جاهلي).

لولا اميمة لم اجزع من العـــــدم ولم أقاسي الدّجى فـــي حنـــدس الظّلم
أحاذر الفقر يوماً أن يلـــــمّ بهـــا فيهتـــك الستر عن لحم على وَضـــــم
تهوى حياتها وأهوى موتها شفقـــاً والموت أكرم نزّال على الحـــــــرم
أخشى فظاظة عـــمّ أو جفـــــاء أخ وكنت أبقي عليها من أذى الكلـــــم[2]

وبعضهم أعلن انه يحبّ الحياة لان له بنات قاصرات ضعيفات يتمنـــى أن تطول حياته ليوفر لهن الحماية والحياة الحرّة الكريمة ، فلا يجعن ولا يعـــرين ، يقول أبو خالد القناني:

لقد زاد الحياة إلـــيّ حبـــّاً بناتـــي انهـــن من الضعافِ
أحاذر أن يرين الفقر بعـــدي وان يشربن رنقاً بعد صـــافِ
وأن يعرين إن كسي الجواري فتبنو العين عن كرم عجافِ[3]

ولا يظنن احد أن المرأة في الجاهلية لم تكن على علم بما يتعلق بـــأدق ملامح الجمال الحسيّ المتعلق بملامح الجسم من الملامح التي تتعلـــق بالـــصفات

---

(٢) شرح ديوان الحماسة ج١ – ٢٨٢ ، ٢٨٤ .
(٣) الكامل ص ٥٢٩ – وانظر شرح ديوان الحماسة ج١/٢٨٤ .

المعنوية، فهذا عمرو بن حجر يرسل امرأة اسمها عصام تخطب لـــه ابنـــة عوف بن محلّم الشيباني الذي يقال فيه: " لا حرّ بوادي عوف – لإفــراط عــزّه ، وابنته هذه اسمها أم إياس، وكانت ذات جمال وكمال، فوجّه إليها عــصام لتنظــر إليها، وتمتحن ما بلغه عنها، فدخلت على أمها أمامة بنت الحرث فأعلمتهــا مـــا قدمت له، فأرسلت إلى ابنتها فقالت: أيّ بنية ، هذه خالتك أتت لتنظر إلى بعــض شأنك ؛ فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك فيه، فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى ما لم ترعينها مثله قطّ، بهجـــة وحسناً وجمالاً ، وإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً، فخرجت من عندها وهي تقول : "ترك الخداع من كشف القناع" فذهبت مثلاً ، ثم أقبلت إلـــى عمـــرو، فقال لها: ما وراءك يا عصام " فأرسلها مثلاً ، قالت صرّح المخض عن الزبـــد" فذهبت مثلاً ،قال: اخبريني : قالت: أخبرك صدقاً وحقاً:

رأيت جبهة كالمرأة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة، إن أرسلته خلته السلاسل،وان مشطتّه قلت عنا قيد كرم جلاها الوابل، ومع ذلـــك حاجبان كأنهما خطّا بقلم أو سوّدا بحمم ، قد تقوّسا على مثل عين العبهرة التي لم يرعها قانص ،ولم يذرعها قسورة، بينهما أنف كحدّ السيف المصقول ، لم يخنس به قصر ولم يمعن به طول، حفّت به وجنتان كـــالأرجوان فـــي بيـــاض محـــض كالجمان ، شق فيه فم كالخاتم، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرّ ، ذوات اثر ، وأسنان تبدو كالدّر ، وريق كالخمر، له نشر الروض بالسّحر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقلبّه به عقل وافر،وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حمراوان كـــالورد، يجلبان ريقاً كالشهد، تحت ذاك عنق كإبريق الفضة، ركّب في صدر تمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً، مكتنزان شحماً، وذراعان ليس فيهما عظم يحسّ ولا عرق يجسّ، ركبت فيهما كفّأن دقيق قصبهما ، لين عصَبهما تعقد إن شـــئت منهما الأنامل،وتركّب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها حقـــان كأنهما رمّانتان، يخرقان عليها ثيابها، من تحته بطـــن طـــوي كطـــيّ الطبـــاطيّ المدمجة،كسي عكناً كالقراطيس المدرجة، تحيط تلك بسرّة كمدهن العاج المجلـــوّ

خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لا نخزل، تحته كفَل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدتً، كأنه دعص رمل، لبدّة سقوط الطلّ ، يحمله فخذان لفاوان ،كأنهما نضيد الجمان، تحملها ساقان خدلجتان كالبردى وشّيتا بشعر اسود، كأنه حلق الزّرد ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان، تبارك الله، مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ،فأما ما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير انه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر" فأرسل إلى أبيها يخطبها.[1]

هذا الوصف الذي فصّلت الحديث فيه عصام، وتحدثت عن صفات أم إياس بنت عوف من محلم الشيباني، يدل على أن الخاطبة امرأة ذات عقل وفهم وخبرة، بدقائق الجمال الحسيّ والمعنوي، وأنها فصيحة غاية الفصاحة، وبليغة مقتدرة غاية البلاغة والاقتدار، دلّ على ذلك ما فصلت الحديث فيه.

وإذا كان هناك صفات للجمال يتسامع فيها الناس، ويرغب فيها الأزواج ، فان هناك صفات للقبح، بعضها يتعلق بالملامح الحسية والآخر يتعلق بالملامح المعنوية، والعقلاء يحذرون الرجال من الزواج بها: قال محمد بن عبد السلام الخشني : إياك وكلّ امرأة منكرة، حديدة العرقوب ،بادية الظّنبوب ، منتفخة الوريد كلامها وعيد وصوتها شديد، تدفن الحسنات ، وتفشي السيئات ، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان ليس في قلبها له رأفة ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، وإن طلقها كانت حرفته، وإن أمسكها كانت مصيبته ،سفعاء، ورهاء، كثيرة الدعاء قليلة الإرعاء، تأكل لماً، وتوسع ذماً صخوب، غضوب، بذيّة، دنيةّ ليس تطفأ نارها ولا يهدأ اعصارها ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيّها مهزول، وبيتها مزبول،وإذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجامع، بادية من حجابها نبّاحة على بابها، تبكي وهي ظالمة وتشهد وهي غائبة، قد دلّي لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور[2].

---

[1] العقد الفريد ج٧ – ١١٩- ١٢٠

[2] العقد الفريد ج ١٢٠/٧

الظنبوب : حرف الساق من قدم

الورهاء : الخرقاء أو الحمقاء

المرأة عند اليونان

أول عهد اليونان بالحضارة كانت المرأة عندهم محصنة وعفيفة، لا تغادر البيت، وتقوم بكل ما يحتاج إليه من عناية ورعاية، غير أنها كانت محرومة من الثقافة والتعليم والإسهام في الحياة العامة، وينظر إليها على أنها مخلوق حقير ، حتى سمّوها رجساً ، أما المرأة في البيوتات الشريفة فقد فرض عليها الحجاب: أما غيرها من النساء فقد كانت سلعة تباع وتشترى في الأسواق ، مسلوبة الحرية والمكانة ،وليس لها حقّ الميراث، وجعلوها تحت سلطة الرجل في الزواج والطلاق والإشراف على ما مالها إن وجد، وفي أوج الحضارة اليونانية تبذلت المرأة ، واختلطت بالرجال، وأصبحت الرذيلة مباحة ومبتذلة ،حتى إنّ ديانتهم اعترفت بالعلاقة الآثمة بين الرجل والمرأة[1]، غير أن نظرة سقراط للمرأة تختلف عما هي عليه في التشريعات اليونانية، فالمرأة عند هذا الفيلسوف هي الأم الصالحة في إدارة بيتها،وهي التي تفرض سلطانها عليه، فتعتني بالخدم، وتربي النسل، وتهز السرير لأطفالها، وتغذّيهم، وسقراط خصم للمساواة الشاقة بين الجنسين فهو يرى إذا كانت هناك مساواة ، فلتكن مساواة أدبية مع الرجل.

وفي جمهورية أفلاطون، ومن خلال الأسئلة والأجوبة التي دارت على موائد حكماء اليونان حول منزلة المرأة ،وما يليق بها من الأعمال وما لا يليق ، يمكن تلخيصها في قول سقراط: إنا إذا أردنا أن نشرك النساء في الأعمال الرجالية، فالواجب أن نقوم بتعليمهن كالرجال وان يتدربن التدريب العسكري نفسه، ومعاملتهن معاملة الرجال، فليس في الأعمال المتعلقة بإدارة الدولة ما يختصّ بالمرأة كامرأة أو بالرجل كرجل، ولكنها مواهب موزّعة على أفراد الجنسين سواء بسواء، فالمرأة باعتبار جبلّتها صالحة لكل عمل كالرجل، مع أنها اضعف منه بوجه عام في الأعمال على كل حال.[2]

---

(1) انظر : المرأة عبر التاريخ من ص ٣٢- ٣٣.

(2) انظر المرأة بين القديم والحديث ج١٦٨/١ .

المرأة عند الرومان

كان الرومان يعدّون المرأة أداة إغواء يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب، ومن اجل ذلك كانت تنزل بهم العقوبات البدنية القاسية، وقد انعقد مجمع علمي كبير، وبحث في شؤون المرأة، وكانت النتيجة أن قرّروا أن المرأة كائن لا نفس له ومن أجل ذلك فهي لا ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس يجب ألا تأكل اللحم ولا تضحك ولا تتكلم، وعليها أن تقضي جميع أوقاتها في العبادة والخدمة والصلاة، وحتى لا تتكلم ألجموا فمها، فكانت تغدو وتروح وهي ملجمة[١].

وربّ الأسرة هو المالك لأفراد العائلة ، وما تملك ، وله الحق بالبيع والشراء، والسلطة على الزوجة والبنات والأبناء وزوجاتهم، وله الحق ببيعهم متى شاء ، ويتصرف بهم ، وسلطته مع البنات حتى الممات، وعلى أموالهن الموروثة من أمهاتهن ، وله الحق بالتصرف بثلث المال، إلى أن عدّل وضع الأب والرجل بشأن المرأة، فأصبح ينظر للزواج على انه شركة حياة بين الرجل والمرأة ، ثم اخذ سلطان الزوج وقيوده بالتلاشي شيئاً فشيئاً، حتى أصبح وليس له سلطة على امرأته ثم أصبح لها بعد ذلك مقام رفيع في أسرتها وحاشيتها، فكانت الحاكمة المطلقة في بيتها[٤]،وتتساوى مع زوجها في تقديم الذبائح في العبادات وتشاركه في الاهتمام بالأملاك ،وبعد عام ٢٠٩م بدأت المرأة الرومانية تتبوّأ المراكز التي تعدّ في الدرجة الأولى من الأهمية، فامرأة الإمبراطور أغسطس شريكة له في آرائه ،وامرأة "كلوديوس" متسلطة عليه، وأنطونيوس يلقّب امرأته أم السلطة والشعب، وكان للنساء بعد ذلك جمعيات أدبية من مثل : جمعية حفظ الحشمة وجمعية الأمهات ، وجمعية رفع الأمية،وجمعية الحضانة، وجمعية الحنان، ونحو ذلك من الجمعيات التي طال عهدها إلى آخر السلطة الرومانية[٣].

---

[١] انظر : المرأة في ظل الإسلام ص ٢١.

[٤] انظر : المرأة عبر التاريخ البشري ص ٣٣.

[٣] انظر : المرأة بين القديم والحديث ج١/١٧٩ .

المرأة عند الهنود

أباحت تشريعات الهنود للرجل أن يعدّد في زوجاته تكثيراً للنسل ولاسيما الذكور، وكانت منزلة الأم عندهم عظيمة،وطاعتها واجبة، واشترطوا على من يتزوج بناتهم أن يكون ابنها الذكر ابناً لوالدها، فان لم تكن له بنت غيرها بالغة، وزوجته لا تلد إلا البنات يبيح هذا الرجل لزوجته أن تستنكح احد إخوانه أو احد أقاربه، لتلد له ذكراً على نحو نكاح الاستبضاع عند العرب، فيدخل عليها من تختاره ليواقعها، وليس لها أن تمتنع عن الاستجابة إليه، كما أوجبوا على أبنائهم أن يتزوجوا وهم في سن الثالثة عشرة، وإلا كان عيباً وعاراً وأوجبوا على البنت أن تتزوج بمن تحب إذا بلغت سن التاسعة من عمرها ،ولا يحقّ لأبيها أن يمنعها من ذلك .

وإذا ماتت الزوجة فعلى الزوج أن يبادر إلى الزواج بأخرى ، أما إذا مات الزوج فعلى الزوجة أن تتأيم مدى الحياة، ويحلّ لها أن تحرق نفسها وَجْداً عليه، لتكسب الطهارة من الأدناس، أما إذا لم تحرق نفسها، فإنها تحرم من الزواج والزينة ورغد العيش مدى الحياة، فانظر الظلم الذي تمارسه التشريعات البشرية، وقارنها بشرع ربّ العالمين.

وإذا وضعت المرأة جنينها فهي في نظر الهنود ومن يسكن معها غير طاهرين لمدة عشرة أيام ، فلا احد يدخل عليها وعليهم، ولا يخالطهم ،وإذا دخل عليهم الخدم فباللثام يدخلون، وأخيراً فالمرأة الهندية مجردة من التملّك ، فهي وما تملك لزوجها، وله الحقّ في أن يتسرّى عليها بمن شاء من الجواري والإماء[١].

---

[١] انظر : المرأة عبر التاريخ البشري ص ٣٣.

المرأة في الصين

لم يكن للمرأة في المجتمع الصيني أية قيمة، ولا يجوز للرجال أن يجلسوا إلى النساء ولا أن يتداولوا متاعاً من أمتعة البيت الذي فيه النساء ، لئلا تتلامس الأيدي ، وإذا أرادت المرأة أن تناول الرجل شيئاً فعليها أن تضعه في سلّة وتناوله إيّاه، وهو بالمقابل يفعل الشيء نفسه.

كما لا يحلّ لمن تقدّم لخطبة بنت أن يجلس معها على حصير واحـد، ولا يأكل من قصعة أكلت منها ،وعلى البنت طاعة أبويها وأخيها الأكبر ،وبعد الزواج طاعة زوجها، وبعد أن تترمّل عليها طاعة ولدها ،وإذا بلغت عشرين سـنة مـن عمرها وجب أن تتزوج ولو بمساعدة سمسار ،ومتى دخلت في بيـت الزوجيـة وجب عليها أن تخدم والدّي زوجها، كما أجازت الشرائع الصينية تعدّد الزوجـات ،وسمحت للزوج بالتسرّي بأربع سرارٍ زيادة على زوجتـه التـي لا يـسمح لـه بالاقتران بسواها، وأولاد السراري ينسبون للزوجة الشرعية، ويتـساوون مـع أولادها ، ونظام التسرّي عند الصينيين يسمح ببيع البنات كالأنعـام والحيوانـات وانتشر بين الصينيين وأد البنات بعد الولادة لرواج الفقر.

والمرأة الصينية تعيش في عزلة، فالبنت منذ الصباح تعزل عن شقائقها ، ولاسيما إذا كانت من الطبقة الممتازة، والنـساء لا يخـرجن مـن بيـوتهن، ولا يستقبلن رجلاً ، ولذلك كانت البيوت تقسم إلى دور للرجال وحرم للنساء منعاً من الاختلاط[١]

---

[١] انظر : المرأة بين القديم والحديث ج١٤٩/١ ، وانظر : المرأة في الإسلام ص٤٧- ٥١
وانظر :المرأة عبر التاريخ البشري ص ١٢١

المرأة عند اليهود

تقتضي النظم اليهودية أن تخضع المرأة للرجل رغبة في النسل، وسمحت نظمهم أن تسبى النساء وتباع وتورث، كما سمحت للآباء أن يبيعوا بناتهم بيع الرقيق، وان يقتلوهن ففي سفر الأمثال[1]: امرأة فاضلة من يجدها ؟ لأن ثمنها يفوق اللآلئ ، بها يثق قلب زوجها، فلا يحتاج إلى غنيمة، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها... أعطوها من ثمر يديها ،ولتمدحها أعمالها في الأبواب .

وفي سفر الجامعة[2]" فوجدت أحرّ من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها إشراك ويداها قيود،الصالح قدّام الله ينجو منها، أما الخاطئ فيؤخذ بها، رجلاً واحداً بين ألف وجدت أما امرأة بين كل أولئك لم أجد "والبنت في الشرائع اليهودية لا ترث إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين ،وإذا ما أعطيت شيئاً فهذا آت على سبيل التبرع، فقد ورد في سفر أيوب في الإصحاح الثاني والأربعين قوله : ولم توجد نساء جميلات كبنات أيوب في كل الأرض ، وأعطاهن أبوهن ميراثاً بين أخوتهن "وبعض طوائف اليهود تعتبر البنت في مرتبة الخدم،ويحقّ لأبيها أن يبيعها وهي قاصرة، ولا ترث أباها إذا لم يكن لها إخوة.

أما المهر بالنسبة للبنت اليهودية فيدفع لأبيها أو لأخيها على انه ثمن لها ،وبعدها تصبح مملوكة لزوجها ، فإذا مات زوجها ورثها وارثه، لأنها جزء من تركته وله أن يبيعها والزواج من الأخت مباح عند اليهود، كما أباحت شرائعهم تعدد الزوجات، وأحلّوا زواج المتعة ، وأباحت قوانينهم الطلاق للزوج ثم للزوجة، وكانون ينسبون الأبناء لأمهاتهم، فيقرن اسم الرجل باسم أمّه لا باسم أبيه لاحتمال أن يدعى لغير أبيه [3].

---

[1] سفر الأمثال: المرأة الفاضلة ص ٧٢١

[2] سفر ايوب : الاصحاح الثاني والاربعون ص ٦٢١ .

[3] انظر : المرأة في الإسلام ص ٥٣- ٥٤ .

الباب الأول

أ- واقع المرأة في صدر الإسلام

تبوأت المرأة في ظل الإسلام السمح مكانة اجتماعية راقية، فقد اهتم الإسلام بالمرأة من حيث كونها عرضاً يجب أن يصان،وشرع لها من التشريعات ما يكفل ذلك ويحاسب عليه فالمرأة هي الأم في المجتمع، وهي الأخت، وهي البنت، وهي الزوجة، وهي العمة، وهي الخالة، وهي الطبيبة،وهي الممرضة، وهي المعلمة...وهذا الاهتمام تجلّى في جملة آيات وردت فيها كلمة أم (٣٣) مرة،وكلمة أخت (١٣) مرة وكلمة بنت (٢٢)مرة وكلمة زوجة (١٩) مرة وكلمة النساء(٦٠) مرة،ولفظة أنثى (٢٤) مرة ، هذا وقد كفل الإسلام للمرأة حقوقها في الزواج والتملّك والبيع والشراء،والعمل وطلب العلم، ورعاها رعاية تحسد عليها فلها حق التصرف في مالها وفق ما حدّده الشرع،ولها حق البيع والشراء والهبة والوصية وحق الاتجار بمالها ومباشرته، والإشراف عليه.

فالإسلام إلى جانب كونه ديناً سماوياً دعا إلى التوحيد والقضاء على الشرك، فإنه إلى جانب ذلك دعا إلى القضاء على التقاليد والعادات الاجتماعية المشينة التي وجدت في المجتمع الجاهلي وارتبطت بعبادة الأوثان والعصبية القبلية، فأرسى بدلاً منها مبادئ اجتماعية وأخلاقية واقتصادية ،وسياسية تصلح لكل زمان ومكان[1]،فحرّر المرأة من قيودها وعبوديتها وجهالتها ،وخصّ النساء بسورة تسمّى"سورة النساء "لتعالج حقوق المرأة وواجباتها وما لها وما عليها في حياتها العائلية والزوجية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تفاعلت المرأة مع الدعوة الإسلامية ، وقامت بدور فاعل فائق الأهمية ، فالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم كأول امرأة آمنت به إذ كفر به الناس،وصدّقته إذ كذّبه الناس، وأعطته ما لها إذ حرمه الناس ،ووقفت

---

[1] انظر : النظام الابوي واشكالية الجنس عند العرب ص ٢٥٠- ٢٥١

إلى جانبه في تحمل مسؤوليات الدعوة بتشجيعها له،ووفرت له كلّ ما يحتاج كزوج وربّ أسرة ونبيّ مرسل، وقاسمته أصعب الأيام وأشدّها في أثناء مقاطعة قريش لبني هاشم، وكان إلى جانب السيدة خديجة رضي الله عنها نساء أخريات قمن بأدوار هامة في تاريخ الدعوة الإسلامية،وقدّمن أنفسهن على مذبح التضحية والشهادة والفداء كسميّة أم عمار بن ياسر ، التي ضربت المثل الأروع في الشهادة في سبيل المبدأ والعقيدة، وعذّبت حتى الموت... وكانت تضحيتها المثل الأعلى لحضور النساء الفاعل في الإسلام، ومساهمتهن في التغيّر والتغيير الحاسمين الذين غيرّا وجه الجزيرة العربية آنذاك ،كما كان للسيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حضور واضح في الدعوة إلى الإسلام قبل الهجرة إلى المدينة المنورة فقد كانت تزيح الأذى عن رسول الله وتردّ على المشركين ، كما شاركت المرأة المسلمة زوجها في تحملّ مشقّات الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينها ، كسهلة بنت سهيل بن عمرو، ورقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم سلمة وليلى بنت حثمة، وأسماء بنت عميس، وفاطمة بنت صفوان، وأمينة بنت خلف، وحبيبة بنت أبي سفيان،وبركة بنت يسار وأم حرملة، ورملة بنت أبي سفيان، وريطة بنت الحارث ، وعائشة بنت الحارث وفاطمة بنت الحارث ،وفكيهة بنت يسار وحسنة زوجة سفيان بن معمر[1]وإذا كانت بيعة العقبة الثانية من الأهمية بمكان في مستقبل الدعوة الإسلامية، فقد بايع من النساء أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ،وأم منيع أسماء بنت عمرو من بني سلمة.

وبرزت شخصية المرأة المسلمة في العهد النبوي الشريف والراشدي في مجال الدعوى الإسلامية ،فقد أسهمت فيها المرأة ،وشاركت بإيمان واندفاع فيها ، فتلألأت فيها أم عمارة - رضي الله عنها – الصحابية الأنصارية ، التي عد من أبطال المعارك، فقد شهدت بيعة العقبة واحداً، والحديبية، وحنيناً، وسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحاديث وكانت تخرج إلى القتال ، فتسقي

---

[1] انظر سيرة ابن هشام - ج ١ ص ٣٤٤-٣٥٥

الجرحى ،وتقاتل،وأبلت يوم احد بلاء حسناً ، وجرحت اثنى عشر جرحاً ما بين طعنة رمح، وضربة سيف ،وكانت ممّن ثبت مع رسول الله حين تراجع الناس ،وقد رؤيت ذلك اليوم تقاتل اشد القتال وأمّها معها تعصب جراحها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدّث عن يوم أحد وذكر أم عمارة يقول : ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا رأيتها تقاتل دوني، وحضرت حرب اليمامة، وقاتلت قتال الأبطال ، وجرحت فانصرفت إلى المدينة ، تداوي جراحها ، وكان أبو بكر – رضي الله عنه – وهو خليفة يعودها ويسأل عنها[٢]،كما شاركت أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي في معركة اليمامة أيضا [٣] كما شاركت أم عطية الأنصارية في سبع غزوات بمعية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخلف الغزاة في رحالهم ،وتصنع لهم الطعام وتداوي الجرحى، وتقوم على الزمني وتحمل المتاع وتنقل الماء وتسقي المجاهدين، كما لمع اسم الصحابية الربيّع بنت معوّذ في الجهاد والغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.وفي العهد النبوي أيضا كانت المرأة المسلمة تتمثل الحديث النبوي الشريف : المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم،وهم يدٌ على من سواهم، وذلك حين أجارت زينب بنت رسول الله زوجها المشرك الذي استجار بها حين أسره المسلمون وصادروا ماله وهو عائد من تجارته، فآجرته زينب ورضي رسول الله وجماعة المسلمين بهذه الإجارة تحقيقاً لقوله تعالى: { وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنة }{ سورةالتوبة٦ } كما مارست المسلمة حقها في الاعتراض على الزوج إذا لم يكن لها كفؤاً ، على نحو ما فعلت الجارية التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكت له قصة زواجها ممن تكرهه ،لأن أباها أراد أن يرفع بهذا الزواج خسيسة ، فخيّرها الرسول بين إنفاذ الزواج أو تعطيله، فانفذته بعد أن تأكدت من انه يحقّ لها الاعتراض على الزوج وعدم القبول به ولو وافق عليه وليّها، والمرأة المسلمة ما كانت ولم تكن لتأنف من خدمة زوجها ورعاية دوّابه

---

[٢] طبقات ابن سعد ج٨، ٣٠١ وانظر : سيرة ابن هشام ج١٠٩/٢- ١١٠ .

[٣] اعلام النساء ج١٤٨/٢ .

والقيام على شؤون بيتها من حمل المتاع ،ونقل الماء ،وطحن الحبّ ،وهـــي راضية محتسبة وأسماء ذات النطاقين أنموذج لربة البيت المسلمة ، وقد حملــت المرأة المسلمة رسالة الإسلام والتزمت بتكاليفها ، ولو عارضها أهلوها وحاولوا ثنيها عن دينها، أو منعها من الهجرة من مكة إلى المدينة، فكانت تفرّ بدينها من أهلها إن لم يكن لها زوج، أو كان لها زوج تتركه وتلحق بركب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنوّرة ،فيستقبلها رسول الله وصــحبه بكــل حفــاوة وتقدير وإكرام ، ويردّون عنها من أتى في طلبها ، كما كان العلم مشرع الأبــواب للرجال والنساء ممن تلمذوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسبيعه بنت الحرث الاسلمية تلمذت للرسول وروت عنه اثنى عشر حديثاً، وروى عنها فقهاء المدينة والكوفة من التابعين[1]، وهذه لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية الــشهيرة بــأم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب ،والتي كانت من نبيلات النساء ومنجباتهن روت ثلاثين حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ولبابة هــذه هــي التــي غارت على دينها فضربت أبا لهب بعمود فشجّته حين رأته يضرب أبــا رافــع مولى رسول الله بسبب إسلامه[2]، وهذه أم سلمة هند بنت سهيل الذي يكنّى بــأبي أميّة ويعرف بزاد الركب، هذه المرأة تزوجّها الرسول صلى الله عليه وسلم فــي السنة الرابعة للهجرة ، وكانت من أكمل النساء عقلاً وخلقاً، وأسلمت في مستهلّ الدعوة الإسلامية ، وهاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبــشة، ورجعــت إلــى المدينة ومات أبو سلمة ،فخطبها أبو بكر رضي الله عنه ، فاعتــذرت ،وخطبهــا رسول الله فقالت: مثلي لا يصلح للزواج، فاني تجاوزت السن، فلا يولــد لــي ، وأنا امرأة غيور، فقال لها الرسول: أما السنّ فانا اكبر منك، وأما الغيرة فيّذهبها الله ، وأما العيال فالى الله ورسوله وتزوجها ، وكان لها يوم الحديبية رأي سديد أشارت به على النبي صلى الله عليه وسلم فاخذ بــه ،ودلّ رأيهــا علــى وفــور عقلها[1]،وهذه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شــمس، صــحابية قرشــية وأم

---

[1] اعلام النساء ج ١٤٨/٢ .
[2] الإصابة – كتاب النساء ٩٤٢ ، ١٤٤٨ .
[1] نهاية الارب ج١٧٩/١٨ .

الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، كانت صاحبة رأي وحزم، ونفس أبيه رثـت قتلى بدر ، ومثّلت مع نسوة معها بقتلى المسلمين في أحد، وكانت ممـن أهـدر الرسول دماءهم ، وأمر بقتلهم يوم فتح مكة، ثم جـاءت وأعلنـت إسـلامها ، وشهدت اليرموك وحرّضت على قتال الروم[٢].

وفي العهد الراشدي كان للمرأة مشاركة فـي المعـارك الـدائرة خـارج الجزيرة العربية في بلاد الشام في معركة اليرموك، على نحو ما فعلت خولـة بنت الازور حين أسر أخوها ضرار، فقاتلت هي والنسوة اللاتي كنّ معهـا قتـال الأبطال وخلصّن أنفسهن من الأسر ، وقتلن من الروم ما يزيد على ثلاثين جندياً ، كما شاركت المرأة في معركة صفيّن خطيبة تحرّض على قتال جيش الشام علـى نحو ما فعلت الزرقاء ابنة عدي بن غالب الهمدانية وكانت شهدت مـع قومهـا صفّين، وقد وقفت فيهم خطيبة تقول: أيها الناس ؛ ارعووا وارجعوا ، إنكـم قـد أصبحتم في فتنة غشّتكم جلابيب الظّلَمَ وجارت بكم عن قصد المحجّة، فيا لهـا فتنةً عمياء صّماء بكماء،... إن الحقّ كان يطلب ضالّته فأصابها ، فـصبراً يـا معشر المهاجرين والانصار على الغصص، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل ، ودفع الحقّ باطله ... ألا وإن خـضاب النـساء والحنّاء،وخـضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده ، والصبر خير في الأمور عواقباً ، إيهاً فـي الحرب قدماً غيرنا كصين ولا متشاكسين ".

وقد وفدت الزرقاء على معاوية في خلافته بناء على استدعائه لها،ودار بينهما حديث طويل ،ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كلّ دم سفكه قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ؛ فمثلك بشرّ بخير، وسرّ جليسه ،قـال : أو يسرّك ذلك؟ قالت : نعم والله لقد سررت بالخبر فاني لي بتصديق الفعل [٣] وإذا كانت الزرقاء الهمدانية خطيبة مفوّهة تحرض جند الإمام عليّ على قتال معاويـة

---

(٢) طبقات ابن سعد ج٨/١٧٠.
(٣) العقد الفريد ج١/٣٤٨-٣٤٩

وجنده فان أم سنان بنت خيثمة أيدت علياً كرّم الله وجهه بشعرها وحرضت قومها آل مذحج بقولها:

عَـزَبَ الرقاد فمقلتي لا ترقـد	والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمـرّوا	إن العدوّ لآل احمـد يقصـد
هذا عليّ كالهـلال تحفـّـه	وسط السماء من الكواكب أسعـد
خير الخلائق وابن عمّ محمـدٍ	إن يهدكم بالنور منـه تهتـدوا
ما زال من شهد الحروب مظفرّاً	والنصـر فـوق لوائه ما يفقّد[1]

وفي عهد الخليفة الفاروق – رضي الله عنه - كان للمرأة دور بارز في الحروب التي دارت بين المسلمين والروم في بلاد الشام على نحو ما مرّ بنا، كما كان لها دور في فقه النساء، وذلك حينما أراد الفاروق أن يحدّد مهور النساء لمغالاة الناس بمهور بناتهم، وقفت له امرأة في عرض المسجد وذكرتّه بالآية الكريمة: { وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً * أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً } { النساء /٢٠ } فقال عمر : أخطأ عمر، وأصابت امرأة وهذه الشِّفاء بينت عبد الله بن عبد شمس العدوية القرشية ، الصحابية ، كانت من فضليات النساء ،وهي التي علمت حفصة أم المؤمنين الكتابة ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يزورها ، ويقيل عندها ، واقطعها داراً بالمدينة، وكان عمر – رضي الله عنه - يقدّمها في الرأي ويرعاها ويفضّلها ،وربما ولاّها شيئاً من أمر السوق،وروت اثنى عشر حديثاً [2] وعائشة الاسدية راوية من راويات الحديث سمعت من عبد الله بن مسعود وروت عنه ، وأم عطاء مولاة الزبير بن العوام .

---

[1] العقد الفريد- ج ٣٤٩/١ ، ٣٥٠ – وانظر : تاريخ الإسلام ج٤٤٤/١ .
[2] طبقات ابن سعد ج١٩٦/٨

ومن اشتهر من النساء في العهد النبوي والراشدي والأموي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، فقد ضربت بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب، وكانت خير معلم للنساء ،ولصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،كما قادت جند المسلمين في معركة الجمل، واشتهرت اختها أسماء ذات النطاقين برواية الحديث والشجاعة في مواجهة المواقف الصعبة التي ألمّت بابنها عبد الله بن الزبير حين حاصره الحجاج وضيّق عليه الخناق، ثم قتله ، وقالت له قولتها المشهورة: أما أن لهذا الفارس أن يترجّل[٣]، وسمراء بنت نهيك من ربّات الوعظ وهذه أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد النجارية الأنصارية الصحابية خرجت غازية في البحر لفتح جزيرة قبرص فسقطت عن بغلتها واندّق عنقها فماتت ودفنت في الجزيرة سنة٢٧ هـ.

ومن النساء اللاتي برزن في العصرين الراشدي والأموي عمرة النجارية وهي عمرة بنت عبد الرحمن بنت أسعد بن زرارة من بني النجار ، سيدة نساء التابعين فقيهة ، عالمة بالحديث ثقة من أهل المدينة ، صحبت عائشة أم المؤمنين وأخذت الحديث عنها كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد والي المدينة انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنّة ماضية أو حديث عمرة فاكتبه ، فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله [١]،وعلى العموم فقد كان النساء في عهد الخلفاء الراشدين يسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي يلقيها الإمام علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن العباس وغيرهما، كما ساهمت المرأة المسلمة في مجال الأدب والشعر ،وها هي الخنساء تحرّض أولادها الأربعة على الموت في سبيل الله ، فقد استشهدوا في معركة القادسية وترحمت عليهم.

---

[٣] ابن الأثير ج١٤٧/٤- ١٤٨ وحديثها لابنها عبد الله بن الزبير حين خذله الناس وكيف شجعته .
[١] طبقات ابن سعد ج٣٥٣/٨

ب- واقع المرأة في العصر الأموي

بدأ حضور المرأة في العصر الأموي يبرز بصورة أوضح مما كان عليه في العهد الراشدي، وربما كان للتغيّرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحزبية دخل في إبراز مكانة المرأة واشتراكها في الأحداث التي مرّت في تلك الفترة، فبرزت شخصية المرأة الفصيحة البليغة ، ذات الموقف القوي، التي تعرف كيف تميّز الحقّ من الباطل، وتتبنى وجهة نظر تعرف كيف تدافع عنها، وتصدع بكلمة الحقّ ولو كانت أمام الخليفة من غير ممالأة أو مراوغة، فبرز حضورها في ثورة الخوارج على الأمويين كمقاتلة في صف الخوارج، وقائدة تقود المقاتلين فيتغنى بشجاعتها زوجها، كما برزت مقاتلة أيضاً في صفوف الشيعة، فها هي سورة ابنة عمارة بن الأشتر وفدت على معاوية، فتذكّر موقفها يوم صفين ، وهي تتقدم الصفوف، وتحرّض أخاها على قتال معاوية وجيشه بقولها:

شمّر كفعل أبيكّ يا بن عمارة	يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه	واقصد لهند وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبيّ محمد	علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه	قدماً بأبيض صارم وسنان[٢]

فسألها عن ذلك فاستعفت من ذكره، ثم ذكرت له ولاته كيف يحصدون أهلها حصاد السنبل، ويدوسونهم دياس البقر، ويسومونهم الخسيسة... ثم ختمت قولها: هذا ابن أرطاة قدم بلادي، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة، فإما عزلته فشكرناك،وإما فلا عرفناك، فقال لها معاوية: إياي تهدّدين بقومَك؟ والله لقد هممت أن أردّك إليه على قَتَب أشرس، فينفّذ حكمه فيك،

---

[٢] انظر : القصة بتمامها في العقد الفريد ج١، ٣٤٥ .

فسكتت... كما وفدت عليه بكارة الهلالية وهو في المدينة المنوّرة، وتمثّل عمرو بن العاص بما قالته... كما تمثّل مروان أيضاً بما قالته عن خلافة معاوية بقولها:

أترى ابن هند للخلافة مالكاً	هيهات ذاك وإن أراد بعيد
منّتك نفسك في الخلاء ضلالةً	أغراك عمرو للشقا وسعيد

وعمرو الوارد في عجز البيت الثاني هو عمرو بن العاص، وسعيد هو سعيد بن العاصي وتمثّل سعيد بما قالت: .... ثم سكتوا،فقالت: يا معاوية : كلامك أعشى بصري، وقصّر حجّتي ، أنا والله قائلة ما قالوا،وما خفي عليك مني أكثر ، فضحك، وقال: ليس يمنعنا ذلك من برّك ، اذكري حاجتك ،قالت: أما الآن فلا.

هذه هي الجرأة ، وهذا هو الموقف الثابت الذي لا تزحزحه الجبال، ولا يرهب صاحبه انه أمام الخليفة وعنده أعوانه ،كما وفدت الزرقاء على معاوية ،ولها معه موقف صريح[1]،وكذلك أم سنان، وهناك مواقف أخرى يمكن التحدث عنها فيما بعد للدلالة على شجاعة المرأة وتمسّكها بموقفها السياسي، ومعارضتها الصريحة للخليفة الأموي ، كما وقفت السيدة زينب بنت عليّ موقفاً يعدّ مثلاً في الشجاعة والبلاغة بعد أن استشهد أخوها الحسين بن علي في كربلاء، وتحدّت في موقفها الظلم والظالمين، واستعلت على جراحها، وقادت موكب السبايا إلى الشام، وخطبت في أهل الكوفة مؤنبة، وصرخت في وجه يزيد بن معاوية في دار الإمارة بدمشق ثم حملت على أكتافها فاجعة كربلاء وأصبحت الناطقة باسمها.

---

[1] انظر : العقد الفريد ج٣٤٦/١ - ٣٥٨ .
انظر ما قاله الحجاج عن لياليه مع نسائه الأربع ولاسيما عن ليلته عند امة الرحمن بنت جرير ، العقد الفريد ج٧-١١٢-١١٣

كما لوحظ في العصر الأموي انفراد الخوارج بكثـرة النسـاء فـي صفوف مقاتليهم، وكن يباشرن القتال ويقعن في الأسر، ومثلما تميزت المرأة في العصر الأموي بالجرأة في قول الحقّ، وتبني مواقف سياسية تخالف فيها الـرأي السياسي السائد، فإنها ساهمـت في الأدب والشعر والفقه[1] والحديث والتجارة والطب والتمريض، فقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ثمانين امرأة كان لهـن شأن في الحديث والفقه والتاريخ، كما ذكر ابن النجار البغدادي انه تخرج على يده ثلاثة آلاف شيخ بينهم أربعمائة امرأة [2] كما برز في العصر الأموي ميل بعـض الخلفاء إلى النساء ، فهشام بن عبد الملك رغم حزمه فـي إدارة الدولـة إلاّ أن جاريته صدوف كان لها دالّة عليه، وأما يزيد بن عبد الملك فقـد حظيـت عنـده سلاّمة وحبابة حظوة ما بعدها حظوة، وكان يلهج بالنساء والشراب والصيد كمـا أولع بالغناء، وكان الناس يعيبونه ويتنقصونه بالشراب وطلب اللذات.

لم تكن المرأة في العصر الأموي بعيدة من العلم والمعارف في عـصرها، بل العكس من ذلك تماماً ، فقد أخذت نصيبها من العلم ورواية الشعر،ووظفت مـا تعلمه في بعض الأحيان للدفاع عن نفسها أمام زوجها، فعندما تـزوّج روْح بـن زنباع هند بنت النعمان بن بشير، وكان شديد الغيرة عليها ، ويزجرها لأقل نظرة منها، قالت له يوماً: عجباً منك! كيف يسودّك يسوّدك قومك وفيك ثـلاث خـلال : أنت من جذام،وأنت جبان، وأنت غيور؟ فردّ عليها ردّاً غير جميل، فأجابته فقالت:

وهل هند إلا مهرة عربيـة سليلة أفراس تحللها بغـل

فأن أنجبت مهراً كريماً فبالحري وإن كان إقراف فما أنجب الفحل

وبرزت شخصية المرأة في العصر الأموي بصورة متميـزة، فلـم تكـن ضعيفة ولا مستضعفة بل كانت تقف من زوجها إن تجاوز حدّه معها مواقف يعتدّ بها، وتردّ عليه بأجوبة مسكتة، فهذا داهية العرب المغيرة بن شعبة، يرى زوجته فارعة الثقفية تتخلّل حين انفتلت من صلاة الغداة ،فقال لها: لئن كنت تتخللين من

---

[1] انظر : المرأة في الجاهلية – المرأة في الإسلام – مجلة النهج- العدد ٤١ خريف ١٩٩٥ ص ٣٧.
[2] انظر : العقد الفريد ج٥- ١٩٨- ٢٠٤

طعامك اليوم انك لجشعة، وإن كنــت تتخللــين مــن طعــام البارحــة انــك لشبعة،كنتِ فبنتِ ،فقالت: والله ما اغتبطنا إذ كنّا ، ولا أسفنا إذ بنّــا، ومــا هــو لشيء مما ذكرت[٣].

وفي بعض الأحيان يطلب الرجل من زوجته أن تكــون العــصمة بيــدها، ولكنها تقديراً منها لزوجها لحسن رعايته لها، وحفاظه عليها وإكرامه لها؟ تتنازل له عنها، فقد قال الحسن بن علي لامرأته: أمرك بيدك، فقالت: قد كانت عــشرين سنة بيدك،فأحسنت حفظه ، فلم أضيّعه إذ صار بيدي ساعة واحدة ،وقد صــرفته إليك [١].

وعند النظر في السلّم الاجتماعي للمرأة في العــصر الأمــوي لــوحظ أن الإماء في ذاك العصر لم تكن تتساوى مع الحرائر،فالإماء نــساء مــن الدرجــة الثانية، وأولادهن لا يرقون إلى مستوى الخلافة، بدعوى أن العرب في نظر خلفاء بني أمية لاتنقاد لأولاد الإماء، ولا تصلح لهم الخلافة،ومن كان يتزوج أمه يعيّــر بهذا الزواج ويلام عليه، فقد دخل زيد بن علي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: بلغني انك تحدّث نفسك بالخلافة ،ولا تصلح لها، لأنك ابن أمه! فقــال لــه زيد: أما قولك إني احدّث نفسي بالخلافة ،فلا يعلم الغيب إلاّ الله،وأما قولك إني ابن أمه،فإسماعيل ابن أمه، أخرج الله من صلبه خير البشرية محمداً صلى الله عليــه وسلم ، وإسحق ابن حرّة،أخرج الله من صلبه القردة والخنازير.

على أن الذين كانوا يتزوجون الإماء ربما كانوا يتعرضون للوم من أولي الأمر فلما تزوج الحسين جارية له وأعتقها أنبّه عبد الملك، فكتب إليه الحسين بن علي : إن الله رفع بالإسلام الخسيسة وأتمّ به النقيصة، وأكرم به من اللؤم ،فــلا عار على مسلم، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد تزوج أمتــه وامــرأة عبده، فقال عبد الملك: إنّ علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس .

---

[٣] العقد الفريد ج٧/١٢٩.
[١] نفسه ج٧/١٣٠

قال الشاعر:

لا تشتمنّ امرءاً في أن تكون له	أمّ من الروم أو سوداء عجمـــاء
فإنما أمهات القـــــوم أوعيـــة	مستودعات وللأحساب آبـــاء[٢]

والأحاديث التي يتداولها الرجال في مجالسهم عن المرأة ومزاياها كثيرة ، فعبد الملك بن مروان يرى أن للجواري مزايا ليست موجودة في الحرائـــر، فمـــن أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية [٣]، على أن بعض النساء في العصر الأموي قد تمتعن بقسط وافر من حرية اختيار الزوج، فإذا ما تقدّم إلى وليّ أحداهن رجل كفء، جعل وليّها أمرها إلى نفسها، بحيث يتقدم الخاطب إليها ، فيخطبهـــا مـــن نفسها ، وتحاوره بما يتعلق بشأنه فيها، بعد أن تطمئن إلى انه أهل لهذا الزواج ، فتسأله عمّا في يده من المال، فإن أعجبها ذلك وافقت وأعلنـــت رغبتهـــا لـــوليّ أمرها، وما كان هذا ليكون لو لم تكن هذه المرأة متعلمة تعـــرف مـــا لهـــا ومـــا عليها،فلم تكن تعوزها الحجة، والدفاع عن وجهة نظرها ، على نحو ما حدث لعبد الحميد بن سهيل بن عبد الرحمن بن عوف، حين تقدّم لخطبة (الملاة) بنت زراره بن أوفى الجرشي قاضي البصرة، فخطبهـــا مـــن أبيهـــا، فأحـــال أبوهـــا الأمـــر إليها،وأرشده إلى بيته ليقابلها ويعرض نفسه عليها، فاستقبلته أمها، واستأذنت له عليها،فقابلها وعرض الشأن الذي جاءها من أجله، بعد أن طمأنها على نسبه من انه من بني زهرة أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فسألته عن ماله الـــذي بيده،فلم يكن بيده شيء مما قالت، فاعتذرت له بعد أن قالت له بان حالهـــا معـــه كحال شاة عكرمة، وهو مثل معروف عندهم[١]،وقد كان العلماء يحذّرون النـــاس من فتنة النساء إذا تحلين بالذهب ولبسن ريط الشام،وعصب اليمن، فأتعبن الغني وكلّفن الفقير ما لا يطاق [٢]، وما كان للعلماء أن يحذّروا الرجال لولا أن النـــساء

---
[٢] نفسه ج ١٤٠/٧.
[٣] العقد الفريد ج ١١١/٧
[١] انظر العقد الفريد ج ١٠٤/٧-١٠٥
[٢] انظر العقد لفريد ج١١١/٧

كن يخرجن إلى الأسواق فيظهرن بهذه الهيئات، وان خوف العلماء والفقهاء على الرجال أن يكون ظهور النساء بهذه الهيئات فتنة ما بعدها فتنة،وان الأصـل في المرأة أن تكون فتنتها لزوجها، وان تكون عوناً له على الدهر ،وليس العكس.

كما كان للمرأة في العصر الأموي نفوذها على الخلفاء ، ولا أدلّ على ذلك من قول صعصعة بن صوحان لمعاوية: يا أمير المؤمنين ، كيف ننسبك إلى العقل، وقد غلب عليك نصف إنسان ، يريد غلبته امرأته فاختته بنت قرظة عليه؟ فقـال معاوية: إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام[٣]،وقد ذكر المدائني أن معاوية بن أبي سفيان دخل ذات يوم على امرأته وكانت ذات عقل وحزم،ومعـه خـصيّ وكانـت مكشوفة الرأس، فلما رأت معه الخصيّ غطّت رأسها، فقال لها معاوية: إنه خصيّ فقالت: يا أمير المؤمنين: أترى المثلة به احلّت له ما حرّم الله عليـه؟ فاسـترجع معاوية، وعلم أن الحقّ ما قالته فاختته، فلم يدخل بعد ذلك على حرمه خادمـاً وإن كان كبيراً فانياً.[٤]

وهذه ليلى الأخيلية الشاعرة الفصيحة الذكية التي كانت لا تهاب أحداً ولو كان الخليفة ،فقد قال لها الخليفة عبد الملك بن مروان: ما رأى منك توبة حتـى عشقك (وكان توبة يحبّها) فقالت :ما رأى الناس منك حـين جعلـوك خليفـة[٥] .ومن شهيرات النساء في العصر الأموي أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبـد الملك وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر وكان لها مكانـة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد الذي كان يستشيرها في مهام الدولـة، وكانـت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها، ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً، يجتمع في بيتها الأدباء والشعراء فتقضي بينهم وتجيزهم، على نحو مـا فعلت بجرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، فنقدت شعر كل واحد مـنهم، ثـم أجازت كلاً بألف دينار .

---

[٣] انظر العقد الفريد ج١١٥/٧ .
[٤] انظر مروج الذهب ج٤٦/٤.
[٥] سمط اللالي : ١١٩.

وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللائي نبغن في الأدب وأيام العرب والنجوم،وفدت على هشام بن عبد لملك ذات يوم ، فقال لها : ما أوفدك ؟ قالت: حبست السماء المطر،ومنع السلطان الحقّ ، قال : إني سأعرّفه حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية، فقال :إن عائشة عندي فأسمروا عندي الليلة، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلاّ أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا غار إلاّ سمّتْه، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم ،وردّها إلى المدينة[1].

ج- واقع المرأة في العصر العباسي الأول والثاني والثالث

تمتعت المرأة في العصر العباسي الأول والثاني بقسط وافر من الحرية، فقد كانت بعض نساء رجالات الدولة تتدخل في شؤون الدولة كقبيحة أم المعتز والسيدة أم المقتدر وقهرمانتها "ثومال "وأم موسى، وست الملك أخت الخليفة العزيز بالله الفاطمي ،والسيدة صبح أم هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر.

فقد برزت شخصية المرأة إلى درجة أن المنصور وهو الخليفة الحازم كان يعتمد على النساء في معرفة أحوال الناس وشؤون الدولة، كما كانت المرأة تتدخل في عزل الخليفة أو تنصيبه فقد قامت قبيحة أم المقتدر زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) بدور هام في عزل الخليفة المستعان ليصفو الجو لابنها المعتز، وذكر ابن الأثير[2]أن ميزانيتها بلغت مليوناً وثمانمائة ألف دينار ومع ذلك لم تسعف ابنها في دفع رواتب جنده الأتراك وقدرها خمسون ألف دينار،فذهب الخليفة ضحية بخل أمّه.

---

[1] تاريخ الإسلام ج١/٤٤٥.
[2] انظر : ابن الأثير ج٧/٧٠ وانظر تاريخ الإسلام ج٣/٤٥٥

وأما السيدة أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـــ) فقــد تمتعــت بنفوذ كبير في الدولة العباسية، وليس أدلّ على عظم نفوذها وتدخّلها في شــؤون الدولة وتمتّعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة من الكتاب الذي أرسله إليها الوزير علي بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التــي ألقتهــا عليــه فــي إدارة شــؤون الدولة،وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح في إدارة الدولة المالية إلاّ انه عزل.

وذكر ابن الأثير [١] أن أم موسى القهرمانة ذهبت إلى منزل الوزير لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ،فوصلت إليه وهو نائم، فطلب إليها حاجبه أن تنتظر ســاعة حتــى يفيــق ، فعــادت إلــى دارهــا مغضبة،ولما استيقظ الوزير أرسل إليها حاجبــه وولــده يعتــذران إليهــا فلــم تقبل،ودخلت على الخليفة المقتدر ورمت الوزير بما أدى إلى عزله عن الــوزارة وقبض عليه، وليس هذا ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ، فقد اتسعت ســلطتها إلى حدّ أنها استطاعت أن تعين قهرمانتها "ثومال" صاحبة للمظالم ،فكانت تجلس أيام الجمع في مكان بنّتْه السيدة في الرصافة[٢]. ومما يدّل على مدى تدخل السيدة في شؤون الدولة ما حكاه الصولي الذي تلمذ له الخليفة الراضي بن المقتدر وهو أمير ، فإنها تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرمانتها بتنشئة الأمراء تنشئة قوامها التوافر على العلم، وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكــم، والوقــوف على أحوال الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول، بل على العكس مــن ذلــك، فــان النساء اللاتي غدون أصحاب الحلّ والعقد لم يأبهن أن يكون الأمير أو وليّ العهد متعلماً مثقفاً ، وإنما يردنه أن يكون ضعيفاً غير ملمّ بشؤون الحكــم، وقــد أدى تدخل السيدة في شؤون الدولة مع ما توافر من عوامل أخرى إلى إضعاف الخلافة العباسية، كما كان من اثر تعيين "ثومال "قهرمانة السيدة صاحبة المظــالم ؛ أن استهتر العامة بالخلافة ونظروا إلى حكامها نظرة الازدراء والاحتقار.

---

[١] انظر : ابن الأثير ج٣٧/٨ .

[٢] انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٥٣ .

وقد ازداد نفوذ حرم الخليفة في عهد الوزير حامــد بــن العبــاس، وأصبحن يتدخلن في شؤون الدولة، على حين قبع الخليفة في داره، فكنّ يجلسن للمظالم ينظرن في رقاع الناس ويصدرن الأوامر مذيّلة بتوقيعاتهن ، كما عملــت السيدة على عزل الوزير أبي العباس احمد بن عبد الله بن احمد بــن الخــصيب، وصودرت أمواله في سنة ٣١٤ هــ.

ومن النساء العباسيات اللاتي كان لهّن دور واضح في العــصر العباســي زبنت بنت سليمان حيث عمرت طويلاً وهي التي دخلت على المأمون تعاتبه على لبس الخضرة وتقريب العلويين وقالت له : يا أمير المؤمنين : انك على برّ اهلــك من ولد علي بن أبي طالب اقدر من غير أن تزيل سنّة من مضي من آبائك فــدع لباس الخضرة ولا تطمعنّ أحداً فيما كان منك[١].

ولما تسلّم المهدي الخلافة برزت المشاركة النسائية بصورة واضحة فقــد كان لنساء الخلفاء وأمهاتهم كما مرّ بنا دور لا يمكن إغفاله في الشؤون السياسية ،وقد تدخلت النساء في حياة المهدي، وفي شؤون الدولة ،فقد كان كثير الجلوس مع النساء، وكانت الخيزران تجلس في عتبة الرواق المقابل للإيــوان، وتجلــس زينب بنت سليمان بإزائها، وفي الصدر مجلس الخليفة المهدي يقصدهن في كــل وقت فيجلس ساعة ثم ينهض، وكان من تأثير الخيزران أن رشّح المهدي ابنيهــا وهما الهادي والرشيد للخلافة ، مع أن ابنه الأكبر عبد الله من أم عربية هاشمية هي رابعة بنت أبي العباس،وفي عصر الرشيد مارست زوجته زبيــدة الــسياسة والنظر في الأمور [٢]وكانت الملكة الثانية في بلاط العباسيين بعد الخيزران، ففــي زمن الرشيد زاد إقبال الناس على الجواري وتعليمهن ،والمغالاة في شرائهن، وقد اثر ذلك في مختلف جوانب الحياة، فمما أدى إلى زيادة تحرر المــرأة وانــدفاعها للمشاركة في شؤون الحياة وجوانبها المختلفة.

---

[١] انظر : تاريخ الإسلام ص ٤٥٥-٤٥٦ .
[٢] انظر : الطبري ج٤/٦٢.

ومما يمكن ملاحظته أن مشاركة المرأة في الأحزاب قد تراجع في العصر العباسي عمّا كان عليه أيام الأمويين ، كما تراجعت مشاركة المرأة في جبهات القتال، ربما لاعتماد العباسيين على العناصر غير العربية في الجيش كمقاتلين،وفي عهد المأمون(١٩٨ - ٢١٨) اعتمد المأمون على العنصر النسائي ليس في اخذ المشورة كما فعل جدّه المهدي وأبوه الرشيد، ولكن في تسيير أعماله ، ففي أثناء نزاعه مع أخيه الأمين كان يرسل بريده داخل أعواد منقوره من شجر (المكاف) [٣] ويرسل النساء والرجال متنكرين في زي التجار أو الأطباء ، وكان يفضّل استخدام العجائز في هذه المهام ، إذ يذكر النويري أن العجائز كنّ يأتينه كل مساء بتقارير مفصلة تتعلق باخبار الناس وإخبار اللصوص والفسّاق ،وتذكر المصادر أن عدد هؤلاء العجائز يقارب الألف عجوز،ويلوح للباحث أن تعاون بعض النساء مع الخلفاء وإفساح المجال أمامهن للمشاركة في تسيير شؤون الدولة؛ اثبت أن المرأة لا تختلف عن الرجل في تصريف شؤون الحكم.

كما ساهمت المرأة في هذا العصر في الحروب، فاشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور، وكنّ في عهد الرشيد يمتطين الجياد، ويقدن الجند إلى ميادين القتال[١]. ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثّلوا بهن في عهد المعتصم وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة في أيديهم "وامعتصماه" لبّى نداءها ، وثارت ثائرته، وقاد جيشه الجرار، وانتصر على الروم في وقعة عمورية[٢] .

وفي العصر العباسي الثاني،ونتيجة لظهور الفساد في بلاط الخلفاء ،فقد انعكس ذلك على المرأة، بعد أن كان دورها إيجابياً في العصر العباسي الأول، صار دورها سلبياً في العصر الثاني، فقد زاد الاعتماد على النساء في العصر العباسي الثاني في إدارة السجون التي كانت تخصّص في قصور الخلفاء لحبس

---

[٣] الطبري ج ٣٩/٥.

[١] انظر : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣٥١/٢

[٢] انظر : مروج الذهب ومعاوية الجوهر ج٦٣/٤ ،وانظر تاريخ الطبري ج٢٣٨/٥- ٢٤٢

المتنفذين في الدولة، فقد كان معظم الخارجين على الدولة يسلّمون لزيدان قهرمانة المقتدر، وأصبح لأمهات الخلفاء وأزواجهم دور أكثر وضوحاً مما كان عليه في السابق، إذ وصل تأثيرهن على الخلفاء صورة لم يألفها المجتمع من قبل وذلك نتيجة للامتيازات التي حصلن عليها، وضعف الخلفاء وصغر سنّهم ، وقد تمكّن هؤلاء النسوة مع وصيفاتهن ومواليهن وبعض القادة والكتّاب من تشكيل طبقة خاصة شكلّت عبئاً مالياً كبيراً على خزينة الدولة، فضلاً عن الحروب التي شكلّت عبئاً ثقيلاً لا يحتمل ، الأمر الذي جعل دخل الدولة العباسية في القرن الرابع (العاشر الميلادي) يساوي واحداً على عشرين مما كان عليه أيام الرشيد[٣]،وقد زاد الطين بلّةً انه كان يتوجب على الولاة في الدولة أن يهادوا الخليفة والسيدة والخالة والقهرمانة والحاجب والخادم وكتّابهم وكل من يلوذ بهم،وكان هذا التقليد لا يجوز الإخلال به، وإلاّ تعرّض صاحبه للعزل والسجن.

وفي العهد البويهي كان دور النساء محدوداً ،وذلك لان دور الخلفاء كان محدوداً فتحدّدت بذلك تأثيرات نسائهم، ولكن ثمة استثناءات، فقد برزت في تلك الفترة عابدة بنت محمد الجهنية، وكانت أديبة شاعرة فصيحة ،وتحضر مجلس عضد الدولة، وبرزت القهرمانة تحفة، قهرمانة معزّ الدولة ، فقد كانت تعقد المحالفات مع رجال الدولة ،وتعيّن الوزراء، وكذلك قهرمانة الخليفة القائم بأمر الله وصال، فقد كانت تشترك في اختيار الوزراء، شأنها في ذلك شأن قهرمانات العصر العباسي الثاني، وفي العهد السلجوقي الذي امتد من عام ٤٤٧ -٦٥٦ هـ حين سقطت بغداد ظهرت استثناءات حيث لم يكن للنساء دور مؤثر في سياسة الدولة بشكل عام، فقد ذكر ابن الأثير انه في زمن المقتدى أولى خلفاء هذه الفترة كانت جاريته شمس النهار قوية، ولما سقط مغشياً عليه، حلّت إزار ثوبه ، فوجدته قد ظهرت عليه أمارات الموت ، ولما حاولت جارية أخرى الصراخ فقالت لها شمس النهار: "ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء ، فان صحت قتلتك، وأحضرت الوزير، فأعلمته الحال وتسرّعوا في البيعة لولي العهد المستظهر بالله"،

---

[٣] انظر : تاريخ الإسلام السياسي ج٢/٢٤٨ .

ومن النساء في عهد السلاجقة التي كان لها تأثير في السياسة والحكم زوجة طغرك بك، فقد كانت سديدة الرأي ، فوّضها زوجها في كثير من الأمور ، فدبّرتها أحسن تدبير.

وفي الخلافة الفاطمية ظهرت ست الملك سلطانه بنت العزيز، وهي التي نبهت الخليفة العزيز إلى العديد من أخطائه، وقد امتازت ست الملك بالحزم ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرم والحلم،وعرفت بالتسامح الديني، وكثيراً ما كانت تعطف على النصارى، أما زوجة العزيز فقد كانت سيدة نصرانية على المذهب الملكاني - مذهب كنيسة القسطنطينية، وكان لها نفوذ كبير في الدولة، حتى أن الخليفة عيّن أخويها بطريرقين ملكيين: احدهما في الإسكندرية والآخر في بيت المقدس [١] .

وفي عهد الحاكم بأمر الله تقلّص نفوذ ست الملك، مما أثار حفيظتها على أخيها الحاكم بأمر الله ،ولاسيما عندما انتقد مسلكها ، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة بن دوّاس احد شيوخ كتامة، ولما توفيت ست الملك تركت وراءها ثروة ضخمة، منها: ثمانمائة جارية، وثمانٍ من الجرار ملأي بالمسك، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل، وكانت مخصصاتها في العام خمسين ألف دينار في السنة[٢]، ولعلّ السبب في تآمر ست الملك على أخيها الحاكم بأمر الله ، أن الرجل كان متقلّب الرأي ،يقرّب الباطنية ، ويقدّم الأتراك والبربر على المصريين، وكان من أكثر الخلفاء تشدّداً في خروج النساء، ومنعهنّ النساء من ركوب المراكب مع الرجال، كما منع الحذائين من صنع الخفاف التي تلبسها النساء.

كان للمرأة شأن كبير في بلاد الأندلس ولاسيما الجواري، فقد قامت بدورها في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة، وليس أدلّ على ذلك من جارية عبد الرحمن الأوسط واسمها طروب، فقد استحوذت على قلبه وعقله، إلى

---

[١] تاريخ الإسلام السياسي- ج٣/٤٥٦.
[٢] تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٤٨ .

درجة أنها غضبت منه وأبت أن تقابله فرضاها ببدر المـــال والحلـــي الـــذي قدّرت قيمته بمائة ألف دينار وقد ذكر المقّري أن هذه الجارية كانت تبرم الأمـــور مع خصّي اسمه نصر، وكان عبد الرحمن هذا لا يردّ لها أمراً أبرمته.

كما تمتعت السيدة "صبح"زوجة الحاكم الثاني وأم المؤيد (٣٦٦ - ٣٩٦ هـــ) بنفوذ كبير في الدولة الأموية في الأندلس ، وتغلبت على أمور ابنها الـــذي لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره حين آلت إليه الخلافة، وأصبحت تتمتع بالنفوذ المطلق والسلطان الذي لا يحدّ،وأسندت[١] الأمور إلى المنصور بن أبي عامر الذي غدا ساعدها الأيمن[٢] لكنه أصبح فيما بعد الحاكم المطلق .

---

[١] تاريخ الإسلام السياسي ج٤/٤٥٧.

[٢] تاريخ الإسلام السياسي ج ٤/٤٥٧.

الباب الثاني

أ- المرأة والثقافة السائدة

في المجتمع في العصر العباسي

لم يمض وقت طويل على بناء دولة الإسلام حتى غرقت البلاد الإسلامية بأعداد هائلة من العبيد والرقيق، وبخاصة النساء، وتنوعت أصناف السبايا التي حملتها الفتوحات الإسلامية من كلّ صنف وجنس ولون وعرق وسنّ، ومن مختلف الشعوب والقوميات والأديان والثقافات[١] وكانت علاقة الرجل بالمرأة في العصر العباسي تنحو نحوين: الأول نحو المرأة الجارية أو السرّية، والآخر نحو المرأة الحرّة.

أما الجارية فيراها الجاحظ في مثلها الأعلى أن : تكون من أصل بربري فارقت بلادها وهي في التاسعة من عمرها ، ومكثت في المدينة المنورة ثلاث سنين،ومثلها في مكة، ثم رحلت إلى العراق في السادسة عشرة من عمرها، لتتثقّف بثقافته، فإذا بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل ، ودلال المدنيات، ورقّة المكيات وثقافة العراقيات، والجارية أو السرّية بوصفها امرأة ، فان ثقافتها تختلف عن ثقافة المرأة الحرّة وربما كان هناك أمور مشتركة بينهما، فثقافة الجواري تبدأ بتعليمهن الرقص والغناء والإيقاع على الآلات الموسيقية المعروفة عندهم آنذاك ،غير أن بعض هذه الجواري لا يحسنّ الغناء ولا الرقص كالحبشيات مثلاً [٢] ، فبعضهن كان مسلماً وبعضهن كنّ نصرانيات ، يلبسن الصليب، وكان الاتجاه السائد عند تجار الرقيق عنايتهم الفائقة بتعليم الجواري الغناء، فقد انتشر الغناء في هذا العصر انتشاراً غير معهود، وعدّ

---

[١] انظر : النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب ص٢٦٢.
[٢] انظر : الحيوان ج ٧٥/٣

حاجة من حاجات الإنسان الفردية آنذاك فترى المغنين والمغنيات في المجالس العامة ، وفي الشوارع، وفي قصور الخلفاء ،وفي بيوت الأغنياء والفقراء ، حتى إن بعض الخلفاء على ما يروي أبو الفرج كالواثق والمنتصر كان لهما أصوات في الغناء، فضلاً عن إبراهيم بن المهدي أخي الرشيد[٣].

والباحث يرى أن اتجاه الخلفاء إلى سماع الأغاني أوجد عند الناس هذا الميل ، والناس كما يقال على دين ملوكهم" فدعاهم الشغف بالأغاني إلى تعليمه للجواري للتمتع بغنائهن، وتعلّم الغناء يستتبع تعلّم الأدب ، ورواية الشعر وحفظه، لأن الناس كانوا يتغنون بالشعر العربي الفصيح، مثل شعر عمر بن أبي ربيعة،وبشّار،ومسلم، وأبي العتاهية.

والمغنية لا تحسن أن تغني الأشعار إلاّ إذا حفظت كثيراً من الشعر، وأجادت مخارج الحروف، واطّلعت على كثير من الأدب [١].

كما كان بعض هؤلاء الجواري يقمن بدور الأستاذ ، مثل عَريب المغنيّة ، فقد كانت تروّي الجواري الأشعار ليتغنين بها، يقول المسعودي على لسان علي بن الجهم: إنه لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، أهدي إليه الناس على أقدارهم،وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة ، كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبّها وثقّفها وعلمّها من صنوف العلم، وكانت تقول الشعر وتلحّنه، وتغني على العود، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من النفوس، وحلّت من قلبه محّلاً جليلاً لم يكن أحد يعدلها عنده....[٢].

فثقافة الجارية كانت متنوعة ما بين علم وأدب وغناء ورقص وتلحين على العود، وكان هذا التنوّع في علمها يغلي قيمتها أضعافاً مضاعفة، فقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار، فلّما علّمها إبراهيم بن المهدي الغناء عرض في

---

[٣] الأغاني ج٩/٥٥،ج٧/٣٥

[١] ضحى الإسلام ج٧٦/١.

[٢] مروج الذهب ج١٢٧/٤- ١٢٨

ثمنها ثلاثة آلاف دينار، وقد بيعت عريب المغنيـــة الـــشهيرة بخمـــسة آلاف دينار[٣]،واشترى الرشيد جارية من إبراهيم الموصلي بستة وثلاثين ألـــف دينـــار لأنها تلاءم طبعه ومزاجه[٤]،وكان الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة لا يعيّبون باستماعهم لغناء الجواري، ولا من تعليمهن ، فإبراهيم بن المهدي كان صـــاحب شركة تعنى بشراء الجواري وتعليمهن الغناء، يشاركه إبراهيم الموصلي[٥].

وعليه فيمكن القول: إن ثقافة الجارية ثقافتان: ثقافة عربية ونعني بها صـــنوف العلوم والآداب التي تلزمها كامرأة تعيش في المجتمع العباســـي، وثقافـــة فنيـــة، ونعني بها صنوف الغناء والرقص والتوقيع علـــى الآلات الموســـيقية المعروفـــة آنذاك،وجمال الشكل أو الصورة وما يستتبع من لباس يتفنّن فـــي الظهـــور بـــه، وزينة يحرصن عليها، وتصفيف لشعورهن واستعمال العطور المناســـبة. وكـــان لتعليم الثقافة العربية من نحو وصرف وبلاغة وحفظ للشعر وروايته وفقه وتفسير وأخبار وما إلى ذلك، كان لتعليمهن أساتذة متخصصون، بدأت بالرجال على نحـــو ما رأينا عند إبراهيم الموصلي وابنه اسحق،وعند إبراهيم بن المهدي وعبـــد الله بن طاهر الذي كان يعلّم الغناء علماً تاماً، فيضع الألحان ويعلّمها لجواريه، وقـــد تحفظ الجارية من الأصوات ما يزيد على أربعة آلاف صوت يكون الصوت ما بين البيتين إلى الأربعة، عدا ما يدخل في ذلك من الشعر إلى درجة انه قد يصل إلـــى عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلاّ عن غفلة، ولا ترهيب مـــن عقـــاب ، ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلّها على ذكر العشق والصبوة والشوق،ثم لا تنفكّ من الدراسة لصناعتها، منكبّة عليها تأخـــذ مـــن المطـــارحين الـــذين طـــرحهم تجميش...! وهي مضطرة لأنها إن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منهـــا وقفـــت، وكل واقف إلى نقصان اقرب،[١]ويتتبع ثقافة الجواري مـــا ينـــشرنه مـــن أنـــواع الظرافة في المجتمع، قلدهن فيه الناس، وجروا على أثـــارهن ، كحـــبّ الإزهـــار

---

[٣] الأغاني ج٥/١٤٣

[٤] الأغاني ج٥/٧

[٥] الأغاني ج٣/٧٣

[١] رسالة القيان ص٧٢ ،وانظر ضحى الإسلام ج١/٨٠

وتعشّقها، فيحدثنا صاحب الأغاني أن "متيّماً "جارية علي بن هشام كان يعجبها البنفسج جداً، وكان عندها آثر من كل ريحان وطيب، حتى أنها من شدة إعجابها لا يكاد يخلو من كمّها الريحان، ولا تراه إلاّ قطف من البستان[٢]،وفطن الناس إذ ذاك إلى دلالة الأزهار على المعاني فيقول شاعرهم:

أهدت إليه بنفسجاً يسليه تنبيه أنّ بنفسها تفديه

فارتاح بعد صبابة وكآبة ورجا لحسن الظنّ أن تدنيه

ويقول آخر :

سرّ بالآس الذي أهدت له ثمّ لما أهدت الورد جَزَعْ

ذاك أن الآس باق دائم ولأنّ الورد حيناً ينقطعْ

ونوع آخر من الثقافة الفنية انتشر بين الناس، وهو كتابة الأشعار الرقيقة والجمل الظريفة تطرّز على الأقمشة والأردية والأكمام ونحوها، قال الماوردي: رأيت جارية ونحن عند محمد ابن عمرو بن مسعدة... عليها قميص مكتوب في وشاحه.

أغيب عنك بودّ لا يغيّره نأي المحلّ ولا صرف من الزمن

وعلى طراز الرداء:

أقلّ الناس في الدنيا سروراً محبّ قد نأى عنه الحبيب

وقال: ورأيت جارية لبعض الهاشميين، يقال لها عَريب ، عليها قميص موشّح بالذهب مكتوب في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

---

[٢] الأغاني ج٣٦/٧

فحتّى متى روح الرّضا لا ينالني وحتى متى أيام سخطك لا تمضـــي

وكتبن على العصائب ومشادّ الطّرر والذوائب والزنانير والمناديل والوسائد والبسط والأسرّة والكِلَل والنِّعال والخفاف، وبالحنّاء على الأقدام والراح.

ونجح هؤلاء الجواري في إشعار الناس بالظرف والتزام حـدوده، حتـى أصبح للظرفاء عرف خاص في الزيّ والنظر، والطعام والشراب، وما إلى ذلـك، وحتى أخذ " الوشّاء " هذا العرف ودوّنه قانوناً للظرفاء في كتابه" الموشّى" [1]،ولا يعود الفضل في هذا كلّه للجواري، فإن لمواليهن أيضاً أثراً واضحاً لا يمكن إنكاره وهم الذين أوحوا إليهن ضروب الظرافة فكان لهن الفضل في نشرها.

أما ثقافة الحرائر فلم يلتفت إليها على النحو الذي آل إليه أمر الثقافة عند الجواري فقد سلّط الضوء على الجواري دون الحرائر،واهتم القـائمون علـيهن بشأنهن اهتماماً بالغاً، لأن الأمر يتعلّق بالربح والخسارة، فضلاً عن الاتجاه العـام عند الناس الذين أشاعوا جوّاً من الرغبة بهاتيك الجواري اللاتي يمنحنهم الحـبّ والصبوة، والتفلّت من قيود الدين، كما أن إقبال الإماء على الثقافة والتزوّد بها قد يكون أمراً ذاتياً عند الجارية التي تصبو إلى أن تكـون لهـا حظـوة عنـد مـن يشترونهن، فيطيب لها المقام أو بتوجيه مـن صـاحبها، أمـا الحرائـر فـإنهن مصونات، ولا يظهرن على الملأ إلاّ محجبّات، وإذا ما أصبن شـيئاً مـن العلـم والمعرفة أو الثقافة فانه لا يخضع للربح أو الخسارة، وإنما تلبية للنزعة الدينيـة عندهن،أو نزولاً عند رغبة الأهلين، أو لإزجاء أوقات الفراغ ،ولذلك قصّر حظّهن عند الطبقة الحاكمة والكبراء والعامة من الناس، إلاّ ما عرف عن بعض الحرائـر مثل الخيزران وزبيدة وزينب بنت سليمان وعليّه بنت المهدي. وأما غيرهن ممّن كان يهمّهن أن يظلّ الخليفة عاطلاً من العلم والثقافة وسـعة الاطـلاع والجهـل

---

[1] انظر : ضحى الإسلام ج١/٨١

بأحوال الناس، ليتخبط في سياسته، فيبــرز دورهــنّ ، ويعظــم نفــوذهن، ويتحكمن في سياسة الدولة كما يحلو لهنّ مثل أم موسى القهرمانــة وجاريتهــا ثومال[٢]، وهنّ. قلّة على أن هؤلاء الحرائر لم تبرز ثقافتهن بشكل واضح إلا بعد القرن الرابع الهجري، وظهرت آثار هذه الثقافة في كثرة العالمات اللاتي اشتغلن بطلب العلم والتدريس والتحديث.

صحيح أن الإسلام دعا إلى العلم في كثير من آيات القرآن الكريم والحديث الشريف، ولم يفرّق بين الرجل والمرأة، فقد كان الخلفاء والكبراء حريصين على أن يستقدموا لأولادهم المؤدبين، لتكون مقاصــير بيــوتهم وقــصورهم قاعــات للدروس ، سوا أكان أولادهم ذكوراً أو إناثاً، ولكن الذكورية كانت تطغــى علــى الأنوثة ، ولا يستبعد الباحث أن يكون تدريس المؤدبين ليس مقصوراً على الأبناء دون البنات، وإلاّ من أين جاء العلم لزبيدة زوجة الرشيد، وعليّة بنــت المهــدي، وسواهنّ، بدليل أن بيوت الخلفاء ورجالات الدولة كانت تغصّ بالمكتبات، ولم تكن هذه المكتبات مشرعة الأبواب للأبناء دون البنات، يطالعون فيها ما يشاءون مــن العلوم والمعارف، وفي الحقيقة إننا نجد بعض الحرائر قد اشتغلن ببعض العلــوم، ولكن أكثر ما اشتغلن به كان بدافع التديّن، فظهر مــنهن المحــدّثات والفقهيــات والمتصوفات والعالمات، ومن أشهر المكتبات التي كان لها الفضل في ذلك العصر واستفاد منها العامة والخاصة من الرجال والنساء هي: بيوت الحكمة العامة التي أنشأها الخلفاء العباسيون وسائر الأمراء في أقاليمهم لينتفع بها الناس عامة، أما بيوت الحكمة الخاصة فهي خزائن الكتب التي أنشأها العلماء والأدباء والأعيــان في دورهم ليستفيد منها طلبة العلم، ومن أشهرها: بيت الحكمة البغدادي، ويقترن هذا البيت بذكر عدد من الخلفاء الإعلام مثل الرشيد والبرامكة والأمين والمأمون وبعض العلماء كالمبرّد، وظلّت شهرة بيت الحكمة قائمة إلى زمن المتوكل، وبعــد ذلك أهمل شأنه[١].

---

[٢] انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٥٣ .

[١] انظر : أصالة الحضارة الإسلامية د.معروف ناجي ص ٤٤٢ ، وضحى الإسلام ج٨٣/١

وظهرت مدارس أخرى جمعت آلاف المخطوطات ليطّلع عليها طلبة العلم مثل المدرسة النظامية، والتي نقل إليها المخطوطات التي كانت في خزانة الناصر لدين الله، وهناك الرباط الخاتوني السلجوقي،ودار المسناة، وخزانة المستنصر التي في دار الخلافة، والتي نقل منها إلى مكتبة المستنصرية نحو ثمانين ألف مجلد، وخزانة المستعصم،كما كان في كل مسجد وبيمارستان مكتبة[٢].

ومن ابرز العالمات اللاتي ظهرن في العصر العباسي الثاني السيّدة زمرّد خاتون بنت جاولي أخت الملك دقماق بن تتش لأمّه ، فقد كانت امرأة صالحة حنفية المذهب، ساهمت في حركة الإصلاح والتجديد في عهد صلاح الدين وكانت تحبّ العلماء والصالحين ،قرأت علوم القرآن والحديث الشريف ،وبنت المدرسة الخاتونية بمكان يقال له تلّ الثعالب غربي دمشق، وأوقفتها على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي.

ومن نساء القيادات السيدة عصمت الدين خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين زنكي وزوجة صلاح الدين فيما بعد، فقد ساهمت في الجهاد في سبيل الله، وبنت مدرستين، عرفت الأولى باسمها، والثانية باسم الحسامية نسبة إلى ولدها حسام الذي استشهد في إحدى المعارك، ومن السيدات ربيعة خاتون بنت أيوب أخت صلاح الدين زوجة المظفر قطز، بنت مدرسة في دمشق، عرفت باسمها، وأوقفتها على الحنابلة، والشيخة الجليلة أم عبد الكريم فاطمة بنت سعد الخير الأنصارية ، التي بدأت دراستها على الشيخة الداعية فاطمة الجوزدانية ، وعلى عدد من العلماء، وشاركت زوجها جهاده التربوي والسياسي، وألقت كثيراً من الدروس والمواعظ ،وحدّث عنها كثير من العلماء، وأجازت الحافظ المنذري، ومثلها الشيخة الصالحة المسندة عفيفة بنت احمد الفارفانية التي درست على فاطمة بنت عبد الله الجوزدانية،ثم على جماعة كبيرة م العلماء، وحصلت على إجازات عالية من اصبهان وبغداد،حتى وصل عدد شيوخها الذين أخذت عنهم

---

[٢] انظر :أصالة الحضارة الإسلامية ص ٤٤٨ .

العلم أكثر من خمس مئة شيخ،ثم جلست للتدريس، وخرّجت كبـــار العلمـــاء والشيخة فاطمة بنت محمد السمرقندي التي كانت عالمة فاضلة وفقيهـــة محدّثـــة وذات خط جميل. أخذت العلم عن جملة مـــن العلمـــاء والفقهـــاء، واخـــذ عنهـــا الكثيرون، وتصدرت للتدريس، وألّفت جملة مؤلفات في الفقه والحديث[١]، قال ابن العديم: " حكى والدي أنها كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجهـــا الكـــسائي ربما يهمّ في الفتيا ، فتردّه إلى الصواب ،وتعرّفه وجه الخطأ فيرجع إلـــى قولهـــا وقال : كانت تفتي وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانـــت الفتـــوى أولاً يخـــرج عليها خطّها وخطّ أبيها، فلما تزوجت الكسائي صارت الفتوى تخرج بخط الثلاثة، والكسائي هذا أحد الذين لزموا والدها، واشتغل عليه،وبرع في علـــوم الأصـــول والفروع وشروح كتابه - التحفة - في مصنّف أسماه البدائع، فعرضه على شـــيخه فازداد فرحاً به، وزوّجه ابنته، وجعل مهرها منه ذلك ،وكانت فاطمة من حـــسان عصرها ، خطبها السلاطين والملوك، فامتنع والدها عليهم،وتوفيت بحلب[٢].

ومثلها الشيخة شكر بنت سهل بن بشر التـــي ولـــدت فـــي صـــور عـــام ٤٧٢هــ ثم حملها والدها من صور إلى دمشق، حيث درست علـــى عـــدد مـــن العلماء، ثم تأهلت للتدريس والحديث ، فكتب عنها كبار العلماء،منهم ابن عساكر والسمعاني، واستمرت في عملها حتى وفاتها عام٥٥١ هــ .

وكذلك الشيخة العالمة المعروفة باسم - دهن اللوز - وصفها أبـــو شـــامة بأنها كانت شيخة العالمات بدمشق، وتوفيت عام ٦١٤ هـــــ - ومثلهـــا الـــشيخة المعمّرة عائشة بنت الحافظ معمّر بن الفاخر القرشية التي درست على الـــشيخة فاطمة الجوزدانية وغيرها من العلماء، وحين اكملت دراستها جلـــست للتـــدريس حيث درس عليها الكثير من مشاهير العلماء واجازتهم ، قال أبو بكر بن نقطـــة : سمعنا منها مسند أبي يعلى الموصلي، وكان ســـماعها صـــحيحاً بافـــادة أبيهـــا، وتوفيت في ربيع الآخر عام ٦٠٧ هــ عن بضع وثمانين سنة، وكـــذلك الـــشيخة

---

[١] انظر: هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص ٣٠٩- ٣١٢

[٢] انظر : هكذا ظهر جيل صلاح الدين – ص٣١٢ نقلاً عن عمر رضا كحالة ، اعلام النساء ج٤/٤٩

زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن النيسابوري المعروف بالشعري وتدعي – حرّة - أيضاً، قال عنها ابن خلكان: كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء، وأخذت عنهم رواية واجازة .... ولنا منها اجازة كتبتها في بعض شهور سنة عشر وستمائة ، وتوفيت عام ٦١٥هـ . وكذلك الشيخة ست الكتبة نعمة بنت علي بن يحيى التي درست على عدد كبير من العلماء منهم جدّها، وأبي شجاع البسطامي ، ودرس عليها عدد كبير من العلماء منهم الضياء والمنذري،وتوفيت بدمشق عام ٦٠٤هـ، عن عمر يزيد عن الثمانين عاماً ، وكانت الشيخة ست الكتبة من بيت علم ، فقد كان ابوها وأخوها وجدّها وجدّ أبيها من العلماء كذلك اختها الشيخة عزيزة المتوفاة عام ٦٠٠هـ، واختها جوهرة ، وليست هذه النماذج النسائية التي قدّمناها إلاّ عينة قليلة لجيل من النساء المسلمات الآتي زهدن في ملذات الدنيا وشهواتها وارتقين إلى مستوى التحديات وكرّسن حياتهن للمشاركة في حركة الجهاد التي حمل مسؤوليتها جيل نور الدين وصلاح الدين لاسترجاع المقدسات، والدفاع عن الحرمات.

وهناك نماذج أخرى للمرأة المسلمة ليرى القارئ ضخامة الدّور الذي اضطلعت به وأسهمت في إظهاره ، فقد أورد المنذري في كتابه – التكملة لوفيات النقلة - عدداً وافراً من النساء المسلمات نذكر منها :

أ- في المجلد الأول :

١ - الشيخة نور العين بنت أبي بكر بن احمد المعروف بابن أبي الديات ، عاشت في بغداد في حيّ الحربية ودرست على كبار الشيوخ في عصرها، ثم مضت في جهادها التربوي حتى وفاتها عام ٥٨٧هـ (رقم ١٤٥ ص ١٥٧).

٢ - الشيخة ست الناس زينب ابنة الشيخ عبد الوهاب بن محمد بن الحسين الصابوني الحنبلي درست على كبار العلماء وحدثت وأجازت (رقم ١٧٧ ص ١٧٦).

٣ - الشيخة ست الدار ابنة الشيخ عبد الرحمن بن علـــي المعــروف بـــابن البرني درست وعاشت في بغداد تعلّم وتحدّث حتى وفاتها ســنة ٥٨٨ هـــــ (رقم ١٧٩ ص ١٧٧).

٤ - الشيخة شمس النهار بنت أبي البركات بن كامل، درست على شيوخ عديدين ثم جلست للتدريس توفيت عام ٥٨٩ هـ (رقم ١٩٢ص ١٨٥).

٥ - الشريفة فاطمة بنت عبد الواحد بن أبي السعادات احمد، وينتهي نسبها إلـــى عبد الله بن عبّاس وكانت تعرف ببنت ابن شفنين ، درست علـــى عـــدد مـــن العلماء منهم المبارك بن المبارك السارج (رقم ٢٨٥ ص ٢٢٨).

٦ - الشيخة بلقيس ابنة سليمان بن احمد بن الوزير نظام الملك المدعوّة خـــاتون درست على عدد من العلماء ثم تفرّغت للتدريس حتى توفيت عام ٥٩٢هــــ (رقم ٣٤٥ ص ٢٥٩).

٧ - الشيخة تمنّي بنت عمر بن إبراهيم الطيبي البغدادي - درست على عدد مـــن العلماء ثم تفرّغت للتدريس حتى توفيت ببغداد عام ٥٩٤هـ(رقم ٤٣٥ ص ٣٠٤).

٨ - الشيخة أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر الدمشقية، درست على عـــدد من العلماء وحدّثت وروى عنها عدد غير قليل، وهي أخت آمنة والدة قاضي القضاة محي الدين بن الزكي، أحد خطباء صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس ، توفيت عام ٥٩٤ هـ.

٩ - الشيخة آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر الدمشقية، هي أخـــت الـــشيخة أسماء بنت محمد التي مرّد ذكرها في رقم (٨) درست على علماء كثيـــرين ، وروى عنها الكثيرون وحجّت مع اختها أسماء ، ثم حجت مـــرتين أيـــضا ، ووقفت رباطاً في دمشق وهي ابنة عم حافظ الشام ابن عساكر، استمرت في التدريس حتى وفاتها عام ٥٩٥ هـ (رقم٤٩٧ص٣٣٣) ومثله الذهبي فـــي تاريخ الإسلام.

١٠ - الشيخة تمام بنت الحسين بن قنان الانباري الواعظ، درست وحدّثت حتى وفاتها عام ٥٩٧هـ (رقم ٦٢٧ص٤٠٤).

١١ - الشيخة الصالحة فتون بنت أبي غالب بن سعود بن الحيوس البغدادية درست على الكثير من العلماء ودرست حتى توفيت عام ٥٩٥هـ(٤٩٩ص٣٣٤).

١٢ - الشيخة زينب بنت إسماعيل بن عوف القرشية استقرت في الإسكندرية حتى توفيت عام ٥٩١هـ(رقم ٦٣٢ص٤٠٦).

١٣ - الشيخة عفيفة بنت طارق بن سنان القرشية، درست على مشاهير العلماء، ثم اشتغلت بالتدريس حتى توفيت عام ٥٩٨ هـ (رقم ٦٤٦ص٤١٤).

١٤ - الشيخة كمال بنت احمد بن القاسم الكوفية الأصل البغدادية الموطن،درست ثم جلست للتدريس حتى وفاتها سنة ٥٩٨هـ (رقم ٦٤٨ ص ٤١٦).

١٥ - الشيخة شمائل ابنة الإمام موهوب بن احمد الجواليقي ، وهي زوج شيخ الشيوخ عبد اللطيف بن إسماعيل بن أبي سعد، درست على عدد من العلماء ،ثم جلست للتدريس حتى وفاتها سنة٥٩٨ هـ(رقم ٦٧٢ ص٤٣٠).

ب- في المجلد الثاني:

١٦ - الشيخة رحمة بنت محمود بن نصر – ولدت في بغداد - وسمعت الحديث، وأخذت العلم من كبار شيوخها وهي زوجة الشيخ الصالح عمر بن يوسف المقرئ، ووالدها من العلماء المشهورين، توفيت عام ٦٠٠هـ(رقم ٨٣١ ص ٤٢).

١٧ - الشيخة فاطمة بنت الشيخ عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الله الفارسي الصوفي، درست على والدها وغيره، وعملت بالتعليم حتى توفيت عام ٦٠١هـ في بغداد ودفنت عند والدها في رباط الزوزني (رقم ٩١٩ ص ٦٢).

١٨ - الشيخة الصالحة فارس بانويه بنت محمد بن ابرويه ، درست على الشيخة فاطمة بنت عبد الله الجوزدانية وغيرها ،ثم درّست باصبهان حتى وفاتها عام ٦٠٢هـ(رقم٩١٩ ص٨٠).

١٩ - الشيخة صفية بنت عبد الكريم بن شيخ الشيوخ أبي البركات إسماعيل، درست على مشاهير العلماء وهي من بيت الحديث والتصوف ، اشتغلت بالتدريس في بغداد حتى وفاتها عام ٦٠٣هـ،ودفنت بباب رباط الزوزني (رقم٩٧٨ ص ١١٢).

٢٠ - الشيخة محبوبة بنت الشيخ أبي المظفر المبارك بن محمد بن سكينة، درست وعملت في بغداد وهي من بيت علم توفيت عام ٦٠٤ هـ (رقم ١٠٠٩ ص١٣٠).

٢١ - الشيخة عفيفة بنت الشيخ المبارك بن محمد، درست على عدد من العلماء، ثم علمت في التدريس وهي زوجة احمد بن صالح بن شافع الجيلي وأم ولده أبي المعالي محمد، توفيت في بغداد عام ٦٠٤ هـ (رقم ١٠١٨ ص ١٣٣).

٢٢ - الشيخة درّة بنت عثمان بن منصور المعروف بابن قيّامة ولدت في بغداد ثم نشأت ودرست بها ويذكر المنذري أنها اجازته هو نفسه، وأن أبا المحاسن الدمشقي الحافظ كتب عنها مما يدلّ على أن شهرتها، امتدت خارج العراق إلى الشام وغيرها ، توفيت عام ٦٠٤هـ(رقم ١٠٣٥ ص ١٤٣).

٢٣ - الشيخة صفية بنت احمد بن محمد بن ملاعب البغدادية، درست وحدّثت وهي أخت الشيخ أبي البركات داود بن احمد توفيت عام ٦٠٤هـ واختها حفصة بنت احمد درست وحدّثت كذلك حتى توفيت عام ٦١٢ هـ (رقم ١٠٣٦ ص ١٤٤).

٢٤ - الشيخة فاطمة بنت عبد الله بن احمد البغدادي المعروف بابن الطويرة درست على مشاهير الشيوخ مثل احمد بن محمد الزوزني ومحمد بن عبد الملك وابن حيروت ثم جلست للتدريس حتى توفيت عام ٦٠٥ هـ وهي أخت الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي لامه (رقم ١٠٥٢ ص ١٥٠).

٢٥ - أم الحياء عفيفة ابنة الشيخ محمد بن عبد الله، مصرية الأصل ،بغدادية المولد والدار درست على جدّها وعلى آخرين ، وهي من بيت مشيخة وتصوّف ، توفيت في بغداد عام ٦٠٨ هـ (رقم ١٢٠٥ ص ٢٢٩).

٢٦ - الشيخة الصالحة عاتكة بنت الحافظ الحسن بن احمد، كان مولدها في همذان ودرست على كبار شيوخ عصرها ودرست في همذان وبغداد، وكانت من بيت علم فوالدها أحد الحفاظ والمقرئين، ومثله أهل بيته من أولاده وأهله، توفيت في بغداد ود فنت في باب حرب عام ٦٠٩ هـ (رقم ١٢٥٣ ص ٢٥٤).

٢٧ - الحاجة أم الفضل زينب ابنة الشيخ الفقيه إبراهيم بن محمد وزوجة الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعي، رحلت في طلب العلم إلى خراسان وأصبهان وهمذان وبغداد،ثم استقرّت في دمشق وكان والدها في الأصل جندياً ثم ترك الجندية ،وطلب العلم وأصله من قرية زيلوس قضاء الرملة في فلسطين،عملت بالتدريس في دمشق حتى وفاتها عام ٦١٠ هـ ودفنت في جبل قاسيون(رقم١٢٨٦ ص ٢٧٢).

٢٨ - زينت بنت احمد الإمام الرفاعي، فاضلة صالحة ،سلكت طريق أبيها في التصوّف وحفظت القرآن وسمعت الحديث وتفقّهت واخذ عنها أولادها ، توفيت في أم عبيدة بين واسط والبصرة سنة ٦٣٠ هـ ١١٣٣م[١].

٢٩ - النفزاوية: زينب بنت إسحاق النفزاوية من شهيرات النساء في المغرب، قال بن خلدون كانت إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة، وهي من قبيلة نفزة من بربر طرابلس الغرب تزوجت وانتقلت إلى أغمات، وطلّقت فتزوجها يوسف بن تاشفين اللمتوني سنة ٤٥٤ هـ قال صاحب الاستقصا: وكانت عنوان سعده والقائمة بملكه والمدبّرة لامره ،والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب،ونقل عن ابن الأثير في الكامل: كانت من أحسن

---

[١] الاعلام ج٣ / ٦٥ عن روضة الناظرين ١١٧ .

النساء ولها الحكم في بلاد زوجها ابن تاشفين، وأورد بعـض اخبارهـا وتوفيت عام ٤٦٤هـ/١٠٧٢ م.[٢]

٣٠ - زينب بنت مكي بن علي الحراني : فقيهة ازدحم عليها الطلبة ياخذون عنها علوم الدين فاشتهرت وهي من الصالحات توفيت في دمـشق (٥٩٤هـ - ٦٨٨هـ) ١١٩٨ م - ١٢٨٩ م [٣].

٣١ - أم المؤيد الشّعرية : وهي زينب بنت عبد الرحمن بـن الحـسن الجرجـاني الشعري، أم المؤيّد فقيهة لها اشتغال بالحديث أخذت عن جماعة مـن كبـار العلماء رواية واجازة ،ولدت وتوفيت بنيسابور وانقطع بموتها إسناد عال في الحديث وتوفيت عام ٦١٥هـ/١٢١٨م[٤].

٣٢ - ست الشام بنت أيوب ،الخاتون الجليلة ، أخت الملكين صلاح الدين والعـادل وبانية المدرستين الشاميتين بدمشق كان لها من المحارم خمسة وثلاثون ملكاً توفيت في دمشق سنة ٦١٦هـ/١٢٢٠ م [٥].

٣٣ - ستيتة بنت عبد لواحد بن محمد بن عثمان البجلي ،فاضلة ، من أهل بغداد ، كانت تنزل بالجانب الشرقي من حريم دار الخلافة ، كتب عنها بعض رجـال الحديث توفيت سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥ م[٦].

٣٤ - فاطمة الكاتبة : هي فاطمة بنت الحسن بن علي الاقرع ، أم الفضل ، فاضلة ، اشتهرت بجودة الخط، على طريقة ابن البواب،وكان خطّها مما يجـوّد عليـه ،قال الذهبي : وبكتابتها يضرب المثل ،وهي التي ندبت لكتابة كتـاب الهدنـة إلى طاغية الروم من جهة الخلافة، وكان ابوها عطاراً من أهل بغداد ، توفيت عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م[١].

---

[٢] الأعلام ج٣/٦٦ عن الاستقصا - ط٢- الجزء الثاني ١٤-١٩-٢٠-٢١

[٣] الأعلام ج ٣/٦٧ عن ديوان الإسلام .

[٤] وفيات الأعيان ج١/ ١٩٧ .

[٥] الأعلام ج٣/٧٧ عن ذيل الروضتين ص ١١٩ .

[٦] الأعلام ج٣/٧٨ عن تاريخ بغداد ج١٤/٤٤٦ .

[١] البداية والنهاية ج١٢/١٣٤ .

٣٥ - فاطمة بنت احمد ابن السلطان صلاح الدين الأيـوبي : مـن فـضليات النساء، روت الفقه وشيئاً من الحديث واشتهرت في عصرها[٢].

٣٦ - ست الوزراء : ست الوزراء بنت عمر بن اسعد بن المنّجي التنوخية الحنبلية أم محمد وتدعي بوزيرة فقيهة ، محدثة ، دمشقية المولدة والوفـاة، أخـذت صحيح البخاري عن أبي عبد الله الزبيدي، وحدّثت به ، وبمسند الـشافعي ، في دمشق ثم بمصر سنة ٧٠٥هـ عدة مرات ،عرّفها المقريـزي بالمـسندة المعمّرة ، وقال ابن تغري بردي: صارت رحلة زمانها ورحل إليها من الأقطار وقال ابن العماد: مسندة الوقت، وكانت على خير عظيم ، توفيت سنة٧١٦هـ /١٣١٦ م[٣]

٣٧ - الحاجّة ورقاء بنت ينتاب: شاعرة اندلسية ، من أهل طليطلة سـكنت مدينـة فاس،قال ابن القاضي كانت أديبة شاعرة ،صالحة ، حافظة للقـرآن ،بارعـة الخط، توفيت بعد ٥٤٠هـ/١١٤٥م[٤].

٣٨ - جبرة السوداء: مولاة أبي الفتح محمد بن احمد بن أبي الفـوارس، عالمـة بالحديث، من أهل بغداد قال الخطيب البغدادي: كتب عنها غيـر واحـد مـن أصحابنا وكان سماعها صحيحاً[٥].

٣٩ - عائشة القرطبية: هي عائشة بنت احمد بن محمد بن قادم ، أديبة شاعرة من أهل قرطبة لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها فهمـاً وعلمـاً وأدباً وفصاحةً، وشعراً ، كانت تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ،ولا تردّ لها شفاعة عندهم، وكانت حسنة الخط تكتب المـصاحف وعنيت بجمع الكتب، فكانت لها خزانة كبيرة وماتـت عـذراء ولـم تتـزوج وتوفيت سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠ م[٦].

---

[٢] شذرات الذهب ج٥/٣٦٢ .
[٣] البداية والنهاية ج١٤/٧٩ .
[٤] الأعلام ج٨/١١٤.
[٥] تاريخ بغداد ج١٤/٤٤٦ .
[٦] تاريخ الإسلام ج٤/٢٦٢ .

٤٠ - ربيعة خاتون: هي ربيعة بنت أيوب (نجم الدين) بن شاذي بن مروان أخت صلاح الدين يوسف كانت فاضلة تقية ، وهي التي بنت المدرسة الحنبلية في جبل الصالحية بدمشق، وجعلت لها أوقافاً، وتوفيت سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥ م[٧].

٤١ - زمرّد خاتون: صفوة الملوك ،بنت الأمير جاولي ، حازمة ، عالمة ،دمشقية ، هي أخت الملك "دقاق "صاحب دمشق لأمّة وزوجة تاج الملوك "بوري"وأم ولديه إسماعيل (شمس الملوك) ومحمود، روت الحديث، واستنسخت الكتب ، وحفظت القرآن وبنت بدمشق المدرسة الخاتونية البرانية ، ولما رأت شمس الملوك قد تمادى في غيّه وفساده وتواطأ مع الفرنج على بلاد المسلمين، فأمرت غلمانها أن يقتلوه فقتلوه سنة ٥٢٩هـ وأجلست أخاه شهاب الدين محمود مكانه ، وتوجهت إلى مكة وجاورت بالمدينة، وتوفيت عام ٥٥٧هـ/١١٦٢م.

٤٢ - آمنة بنت عنان: هي آمنة بنت عنان بن حسن بن عنان العذريّ، أم محمد ، فاضلة بغدادية حدّثت في بغداد والموصل، واستقرت وتوفيت بمكة سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م[١].

٤٣ - كريمة المروذية: كريمة بنت احمد بن محمد المروذية ، محدّثة ، كانت تروي صحيح البخاري قال ابن الأثير: انتهى إليها علوّ الإسناد الصحيح "عاشت قريباً من مئة سنة ولم تتزوج ، أصلها من مرو الروذ وفاتها بمكة سنة٤٦٣ هـ ويقال لها: أم الكرام وست الكرام[٢].

٤٤ - بنت الجبقبق : كريمة بنت عبد الوهاب بن علي ، أم الفضل ، القرشية، الزبيرية، عالمة بالحديث والفقه، نعتها ابن العماد بمسندة الشام ،وقال الحافظ المنذري بعد أن ذكر بعض شيوخها ومن اخذ عنها : قيل : أنها حدّثت نيفاً وستين سنة ، لقيتها ببيت لهيا بظاهر دمشق ،وسمعت منها ،وقد كانت

---

[٧] الأعلام ج١٦/٣
[١] علماء بغداد ص ٢٤١ .
[٢] الكامل لابن الأثير ج٢٤/١٠ .

أجازت لي في سنة ٥٩٥ هـ ،ومولدها تقديراً سنة ٥٤٥هـ بدمشق ، توفيت ببستانها في بيت لهيا ودفنت في جبل قاسيون [٣].

٤٥ - ظبية : ظبية بنت جبارة ، أم عثمان ، عارفة بالحديث، من أهل الإسكندرية ووفاتها بها كانت مملوكة لعبد الوهاب بن روّاج وأعتقها ، روت الحديث وروي عنها ، قال ابن الصابوني، وسماعها صحيح، سمع منها جماعة من أصحابنا، توفيت سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م[٤].

٤٦ - ست الكتبة: هي نعمة بنت علي بن يحيى بن الطراج ، أم عبد الغني، شيخة من أهل دمشق ، عالمة بالحديث ، روته ، واخذ عنها ، سمعت مع أبيها وأخت لها اسمها عزيزة وابنة أخيها " صلف بنت محمد بن علي "كتاب الكفاية في معرفة الرواية، للخطيب البغدادي على جدّها "يحيى "سنة ٥٣٠ هـ وأجازها به الحافظ ابن عساكر وسمعه عليها جماعة منهم أبو المجد إسماعيل بن هبة الله بن باطيش الموصلي، قال ابن قاضي شهبة: روت الكثير بدمشق عن جدّها من ذلك جملة تصانيف الخطيب ،وحدّثت وقال سبط بن الجوزي شيخنا، سمعت عليها الحديث بدمشق سنة ٦٠٠ وتوفيت سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧ م[١].

٤٧ - السيدة نفيسة : هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب صاحبة المشهد المعروف بمصر، تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث، ولدت بمكة ونشأت في المدينة، وتزوجت المؤتمن بن جعفر الصادق، وانتقلت إلى القاهرة وحجّت ثلاثين حجة وكانت تحفظ القرآن، وسمع عليها الإمام الشافعي ، ولما مات أدخلت جنازته إلى دارها وصلّت عليه وكان العلماء يزورونها ويأخذون عنها[٢].

---

[٣] الأعلام ج٥/٢٢٥ .
[٤] الأعلام ج٣/٢٣٧ .
[١] الأعلام ٣٩/٨
[٢] المد المنثور ص ٥٢١

٤٨ - نفيسة البزّازة: وتسمى أيضا فاطمة بنت محمد بن علـــي ، البــزازة ، عالمة بالحديث بغدادية قال ابن قاضي شهبة كانت نظير "شهدة "في كثــرة السماع اخذ عنها الموفق بن قدامة وآخرون [٣].

٤٩ - فاطمة بنت سعد الخير: هي فاطمة بنت سعد الخير بــن محمــدبن ســهل ، الأنصارية ، أم عبد الكريم فقيهة ، ولدت باصبهان، وروت الحديث ، ورحلت مع أبيها إلى بغداد، ثم إلى دمشق ، وتزوجت أبا الحسن ابن نجــا الــواعظ، وسكنت مصر ، وتوفيت فيها[٤].

٥٠ - مريم الشلبية: هي مريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الشلبي، شاعرة اندلــسية كانــت تعلّــم النــساء الأدب أصــلها مــن شــلب وشــهرتها واقامتهــا باشبيلية [٥]وتوفيت عام ٣٩٠هــ/١٠٠٠م.

٥١ - أمة السَّلام : امة السلام بنت القاضي أبي بكر احمد بن كامل بن خلــف بــن شجرة، أم الفتح فاضلة ، عارفة بالحديث، أخذت عن بعض كبــار المحــدثين في عصرها، وحدّثت وهي من أهل بغداد [٦].

٥٢ - أمة الواحد : امة الواحد بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إســماعيل الــضبّي المحاملي فاضلة ، عالمة بالفقه والفرائض حاسبة من أهل بغداد كانت مــن أحفــظ الناس للفقه على مذهب الشافعي وكانت تفتي وحدّثت وكتــب عنهــا الحــديث [١] وتوفيت عام ٣٣٧هــ/٩٨٧.

٥٣ - أمة اللطيف : أمة اللطيف بنت الناصح ابن الحنبلي، عالمة من أهل دمــشق، لهــا تصانيف كانت في خدمة الخاتون ربيعة بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين ولمّا قامت الخاتون سنة٦٤٣ هــ وقعت من أجلها في المصادرات وحبست ثلاث ســنين في القلعة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص من آثارها مدرســة دار الحديث بدمشق[٢] وتوفيت عام ٦٥٣ هــ / ١٢٥٥ .

---

[٣] اعلام النساء ص ١٥٦٩ .
[٤] الأعلام ج٥/١٣١ .
[٥] الأعلام ج٧/٢١٠ .
[٦] تاريخ بغداد : ج١٤ /٤٤٣ .
[١] تاريخ بغداد : ج ١٤ /٤٤٢ .
[٢] البداية والنهاية ج١٣/١٧٠

أماكن تعليم النساء

دعا الإسلام إتباعه إلى العلم والتعليم، ولم يفرق في دعوته بين الرجل والمــرأة ، بل انه في اليوم الأول الذي انطلقت فيه دعوة الإسلام ، أعلن الرسول صـــلى الله عليه وسلم الحرب على الوثنية إعلانه الحرب على الأميّة، حتى إذا قامــت دولـــة الإسلام في المدينة كان مسجده صلى الله عليه وسلم وبيوتـــات نـــسائه مـــدارس يتلقى فيها المتعلمون والمتعلمات العلم، فقد عرف عن أمهات المــؤمنين ونـــساء المسلمين أنهن كن حريصات على تلقي العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وكنّ فيه كالرجال سواء بسواء، وذلك لان المسلمين فقهوا معنى الإقبـــال علـــى كتاب الله – سبحانه وتعالي - وحثّه لهم على طلب العلــم فـــي ســـبعمائة وأربـــع وستين آية كريمة ،من غير أن يميّز الرجل من المرأة ، يقول الله سبحانه وتعالى { شهد الله انه لا اله إلا هو والملائكة * وأولوا العلم قائماً بالقسط } {سورة آل عمران آية ١٨ }

وقوله تعالى { خلق الإنسان علّمه البيان } { سورة الرحمن آية ٣، ٤) وآيات أخرى كثيرة تحضّن المسلم رجلاً كان أو امرأة على العلم أما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فكثيرة جداً في هذا الصدد، نقطف منها باقة صغيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : "أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتـــيج إليـــه نفـــع،وإن استغني عنه أغنى نفسه"[١]، وقوله عليه الصلاة والسلام " الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم"[٢]،وقوله صلى الله عليه وسلم : " يبعـــث الله سبحانه العباد يوم القيامة ،ثم يبعث العلماء ، ثم يقول: يا معشر العلماء إني لـــم أضع علمي فيكم إلاّ لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعذّبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم"[٣]،ومن الآثار الشريفة قول الإمام عليّ كرّم الله وجهه : " العالم أفـــضل مـــن

---

[١] رواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء

[٢] رواه الحاكم في تاريخ نيسابور.

[٣] رواه الطبراني من حديث أبي موسى.

الصائم القائم المجاهد ،وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها إلاّ خلف منه ، وقال رضي الله عنه:

ما الفخر إلاّ لأهل العلم إنهم   على الهدى لمن استهدى أدلاّء
وقدر كلّ امرئ ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداءً
ففز بعلم تعش حيّاً به أبداً   الناس موتى وأهل العلم أحياء[٤]

أما الأماكن التي كانت يتعلم فيها الناس بما فيهم النساء فيمكن حصرها بما يلي:

١ - **منازل العلماء** : فقد كان العلماء يستقبلون طلبة العلم في منازلهم، ولعلّ النساء اللاتي اشتهرن بالعلم عبر العصور الإسلامية ، نشأن في بيوت آبائهن العلماء ودرسن على أيديهم ويرى د. إبراهيم بن محمد المزيني، أن طالبات العلم كنّ يدرسن على آبائهنّ أو ذويهن من أهل العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوت أهلهن لتعليم الطلبة ، حيث كنّ يستمعن إلى ما كان يلقى عليهم من هذه الدروس، وبيت الرسول عليه الصلاة والسلام كان المنطلق الأول الذي شعّ منه نور العلم، ومصداق ذلك قوله تعالى : { واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله لطيف خبير} {سورة الأحزاب آية ٣٤ } فقد تخرّج في بيوت أمهات المؤمنين العديد من الصحابيات والتابعيات بالرواية عنهن ،وكنّ مراجع للناس في مختلف الأحكام الفقهية المتعلقة بالنساء، واستمرت منازل العلماء ودورهم في العصور الإسلامية التالية لعصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين تؤدي دوراً تعليمياً رائداً لتوافر فرص التعليم بين الأهل مما أهَّل بدوره نخبة من النساء العالمات في مختلف ميادين العلوم الشرعية.

---

[٤] احياء علوم الدين ج١/ ١٤ .

٢ - **المساجد** : كانت المساجد في الأقطار الإسلامية مشرعة الأبواب لمن أراد أن يتعلم من الرجال والنساء إذ أن التعليم داخل المنازل وبين الآبـــاء والأزواج أو غيرهم من ذوي المحارم، إن تيسّر لبعض الإناث ؛ فانه قد لا يتيسّر للبعض الآخر من النساء، الأمر الذي يجعلنا نتساءل، إذا لم تكن المرأة قد شــبّت فـــي بيت علم، وطمحت نفسها أن تتعلم ،فأين يمكن أن تتعلم هـــذه المـــرأة؟ إنّهـــا وغيرها من بنات جنسها كنّ يترددن على حلق التعليم التي كانـــت تعقـــد فـــي المساجد ،ولهّن أماكن مخصصة فيها،بحيث تكون معزولة عن الرجال ،حتـــى لا يكون هناك سبيل للاختلاط الذي حرّمه الإسلام قطعاً ، ويذكر الباحث المزيني أن زوج حليمة ابنة علي المزملاتي التي برعت في العلم في العصر المملوكي في مصر أنها كانت تسمع من وراء حجاب وأجاز لها جماعة من العلماء.

٣ - **تعلمّ المرأة على امرأة مثلها**: بمعنى أن العملية التعليمية تتم مـــن المـــرأة المعلمة إلى المرأة المتعلمة، فالعملية التعليمية طرفاها النساء تعليماً وتعلمـــاً، وكما أشار الباحث المزيني إلى أن ابن عساكر أشار في ترجمته لفاطمـــة بنـــت سهل بن بشر المدعوّة "ست العجم إلى أنها : " كانت تعظ النساء في المساجد"

٤ - **تعلّم المرأة على الرجل الضرير:** قد تأخذ المرأة العلم عن الرجل الضرير من غير ذوي المحارم في حال عدم توفر غيره من النساء القادرات على التعلـــيم، وان يكون العالم ضريراً مشهوداً له بالعفة، فقد أمر المنصور الموحـــدي فـــي الأندلس (٥٨٠ -٥٩٥هـ) ١١٨٤ م – ١١٩٨ م العالم عالياً بن محمد الفهمي القرطبي (ت ٦١٧ هـ - ١٢٢٠م) وكان ضريراً بتعليم بناته ، لما عـــرف عنه العفه والصون وصدق النصيحة.

أما عن رحلات النساء في طلب العلم؛ فقد عرف عن كثير من النساء المسلمات الارتحال في طلب العلم والتنقل بين الأقاليم الإسلامية طلباً للعلـــم علـــى أكـــابر العلماء والمحدّثين،فكانت المرأة إذا أكملت تعليمهـــا فـــي بلـــدها، ووجـــدت أن الظروف مهيّأة لها لتلقي العلم خارج بلدها، سارعت إلى شدّ الرحال رغبة فـــي

الاستزادة، إلاّ أن ذلك كان لا يتمّ إلاّ مع محارمهن وقد تواترت تراجم النساء اللاتي رحلن، وحصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر[1] ،وقد ذكرت ذلك عند الحديث عن النساء الحرائر اللائي لمعت أسماؤهّن بعد القرن الرابع الهجري.

ب- المرأة والعمل السياسي في العصور العباسية

تعرّضت المرأة إبان تاريخها الطويل للظلم والاضطهاد والاستغلال ، ولم تتبوأ مكانة محترمة إلاّ في ظلّ الإسلام السمح، الذي رفع عنها ما كانت ترزح تحته من عسف وإهمال واحتقار ، ونظر إليها الإسلام على أنها إنسان كامل الإنسانية والأهلية ، وأعطاها من الحقوق ما كانت تفتقره في غير الإسلام، فهي إنسان والإنسان محلّ التكليف والخطاب بالأحكام الشرعية بصرف النظر عن كون هذا الإنسان ذكراً أو أنثى. فقد فرض الله – سبحانه وتعالى – على كل من الرجل والمرأة الصلاة والزكاة والصيام والحجّ والعلم وحمل الدعوة إلى الإسلام ن وجعل من التقوى معياراً للتفاضل عنده تعالى ، وخصّ كل واحد منهما بأحكام خاصة، تتواءم وطبيعته، ودوره في الحياة، ففرض على الرجل السعي لطلب الرزق والنفقة على الزوجة، ولم يفرض ذلك على المرأة ، وخصّ الإسلام المرأة بان جعل الأصل فيها أنها أم وربّة بيت ، وأنها عرض يجب أن يصان سواء أكانت أماً أو أختاً أو بنتاً أو عمة أو خالة أو زوجة.

ومن الأحكام الشرعية العامة التي خاطب بها المولى – سبحانه – الرجل والمرأة على السواء،ووعدهم على إقامتها جزيل الثواب، وتوعدّهم إن تركوها عظيم العذاب العمل في السياسة .

---

[1] أشير إلى انني أفدت مما كتبه د. إبراهيم المزيني عن دور المرأة في العلم والتعليم عبر العصور الإسلامية في العدد ٥٣٠ .

وقبل أن نتحدث عن العمل السياسي للمرأة في العصور العباسية ؛نودّ أن نستشير المعاجم اللغوية في معنى كلمة "سياسة" فهي مصدر مأخوذ من ساس يسوس ،هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها، والوالي يسوس رعيته سياسة بمعنى يرعى شؤونهم ويصلح أمورهم ،ورجل ساسٌ من قوم ساسة وسوّاس انشد ثعلب:

سادة قادة لكل جميعِ ساسة للرجال يوم القتالِ

وسوّسه القوم : جعلوه يسوسهم ،وقال الجوهري : سست الرعية ، وسوّس الرجل أمور الرعية إذا ملّك أمرهم [1] ،وفي القاموس المحيط ورد قوله: "سست الرعية بمعنى أمرتها ونهيتها"[2] وفي الحديث الشريف ،روى مسلم عن أبي حازم قال : قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ،كلما هلّك نبيّ خليفة نبيّ،وانه لا نبّي بعدي ، وستكون خلفاء فتكثر ،قالوا: فما تآمرنا؟ قال : فوا ببيعة الأول فالأول ،وأعطوهم حقّهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم" قال الإمام النوي في معنى "تسوسهم " في الحديث : أي يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية ،فالسياسة والحالة هذه كما ورد في لسان العرب : هي القيام على الشيء بما يصلحه.

وعليه فان كلمة "سياسة " بدأت بالقيام على أمور الدواب وترويضها،ورعاية شؤونها بما يصلحها ، ثم انتقل معناها إلى رعاية شؤون الأمة ،والقيام على مصالحها،والحفاظ عليها ،وسواء أكانت هذه الشؤون شؤوناً داخلية أم خارجية، فالحاكم ومن من معيته يباشر هذه الرعاية،والأمة هي التي تحاسب هذا الحاكم،ويختلف حكم العمل السياسي بالنسبة للمرأة حسب شكله ومجاله، ففيما يتعلق بمباشرة رعاية الشؤون أو ما يسمى بالحكم ؛فان الإسلام لا

---

[1] لسان العرب مادة سَوَسَ
[2] القاموس المحيط مادة سوس

يجيز للمرأة أن تكون حاكماً على الإطلاق ، لما روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن فارساً ملكّوا ابنة كسرى قال : لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بنفي الفلاح عمّن ولُّوا أمرهم امرأة هو نهي عن توليتها،إذ هو من صيغ الطلب،وكون هذا الحديث جاء إخباراً بالذم لمن يولّون امرأة بنفي الفلاح عنهم،فانه يكون قرينة على النهي الجازم وتكون تولية المرأة حراماً، والمراد بالتولية الحكم أي الخلافة أو ما دونها من المناصب التي تعتبر من الرعاية العملية للشؤون فهو خاص بموضوع الحكم الذي جرى عليه الحديث، فلا يشمل غير موضوع الحكم.

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤثر عنه انه استعمل امرأة في أمر من أمور الحكم، ولم يروَ عنه صلى الله عليه وسلم انه ولّى امرأة ولاية قط، وعلى نهجه سار خلفاؤه الراشدون، والخلفاء الأمويون والعباسيون، وغيرهم من جاء بعدهم.

أما في غير مجال الحكم أو العمل السياسي، فقد أمر الإسلام بها الإنسان المسلم بوصفه مسلماً دون النظر إلى كونه رجلاً أو امرأة ، فنرى في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وهو من العمل السياسي لكونه جزءً من رعاية شؤون الأمة ، نرى أن أدلته جاءت عامة لا تختص بالرجل دون المرأة، من ذلك قوله تعالى : { كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله }{ آل عمران ١٤٠ } ولفظ أمة لفظ عام يشمل الرجل والمرأة على السواء،وقال تعالى : { والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله * أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم} { التوبة ٧١ } وقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكّن الله أن يبعث عليكم

عقاباً من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم" . رواه احمد والترمذي حسّنه وواضح أن الأمر في الحديث عام للرجال والنساء.

وإذا كانت محاسبة الحكام من الأعمال السياسية التي يستوى فيها الرجل والمرأة من جهة فرضية الحكم الشرعي فإننا نرى أن النساء في زمن الخلافة الراشدة قد التزمن بحكم المحاسبة ومارسنها دون إنكار من الصحابة،فحين تولى عمر بن الخطاب الخلافة، اعترضت طريقه خولة بنت ثعلبه وقالت له ناصحة: " قد كنت تدعى عويمراً ثم قيل لك عمر،ثم قيل لك: أمير المؤمنين ،فاتق الله يا عمر، فانه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب" وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلاّ للصلاة المكتوبة،أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ،أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟[1] وكذلك أنكرت سمراء بنت نهيك الأسدية على عمر رضي الله عنه نهيه عن المغالاة بالمهور، فقال : " ألا لا تغالوا في صدقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق قطّ امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية". فقامت إليه سمراء بنت نهيك فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا! أليس الله - سبحانه وتعالى – يقول : {وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً}{النساء/٢٠} ،فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وفي رواية : فأطرق عمر ثم قال: كلّ الناس أفقه من عمر، وفي أخرى : امرأة أصابت ورجال أخطأ والله المستعان وترك الإنكار [2].

وإذا كان هذا هو المعنى الذي استقرت عليه كلمة "سياسة " أي رعاية شؤون الأمة بمباشرة الحكم ،فهل كان للنساء في العصور العباسية رعاية لشؤون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٢٠/٢٨٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٦٣/٦ .

الأمة ، أو لهن نوع من المشاركة المباشرة للخلفاء أو السلاطين في رعاية هذه الشؤون، والحفاظ على المصالح العامة؟

وأول ما يطالعنا في العصر العباسي الأول من كان يتـدخل فـي سياسـة الدولة من النساء الخيزران ،والخيزران جارية عربية يمانيـة، أثـارت بجمالهـا وثقافتها وفصاحتها وفقهها الذي أخذته عن الإمام الأوزاعـي اهتمـام الخليفـة المنصور،فاشتراها وأهداها لولده المهدي الذي اعتقها وتزوجها، وأنجـب منهـا ولديه : موسى الهادي وهارون الرشيد وقد أفادت هذه المرأة من وجودهـا فـي بلاط القصور أن درست شؤون الدولة، وتقاليد الحكم، يسعفها ذكاء متميز،ولباقة في الحديث فائقة وقدرة على المناقشة والجدل، وثقافة واسـعة، واطـلاع جـمّ ، وحزم قلّما تجده عند غيرها من النساء وزادها حظوة عند المهدي انه رزق منها بولديه المذكورين ،ولم يكن يردّ لها طلباً، فقد كانت شخصيتها قوية مؤثّرة إلى حدّ أنها جعلت المهدي يرشّح ولديها للخلافة من بعده،رغم أن له ولداً اسمه عبد الله اكبر من ولديه هذين، وأمّة هاشمية وهي ابنة عم المهدي حتى إذا توفي المهدي وآلت الخلافة إلى ولدها الهادي الذي كان يبدي لها كل ألوان الطاعـة والائتمـار بأمرها فيما يتعلق بتسيير أمور الدولة، فطمع الناس بها وأكثروا من التردد على بابها لتلبية طلباتهم عند ولدها الخليفة فضاق بها ذرعاً، وكفّ يدها عن التـدخل بأسلوب فظّ لا يليق لها كأم للخليفة.....

وكانت الخيزران على ما يروي الطبري تسلك مع الهادي مسلكها مع أبيه من حيث الأمر والنهي في شؤون الخلافة، فأرسل إليها ولدها قـائلاً: لا تخرجـي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذّل ، فانه ليس من قدْر النساء الاعتراض في أمـر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلّك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك ، وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحوائج، فكان يجيبها إلـى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها،وطمعوا فيها ،فكانت المواكب تغدو إلى بابها، فكلّمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، اعتلّ بعلّة، فقالت : لا بدّ من إجابتي ، قال : لا افعل ، قالت : فـاني قـد

تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، قال : فغضب موسى ،وقال : ويـل على ابن الفاعلة ! قد علمت انه صاحبها، والله لا قضيتها لك،قالـت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً ،قال: إذاً والله لا أبالي ، وحمى وغضب، فقامت مغضبة ، فقال: مكانك تستوعي كلامي والله وإلا فانا نفيّ من قرابتي من رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، لئن بلغني انه وقف ببابك من قوادي أو أحد من خاصّـتي لأضـربّن عنقه، ولأقبضنّ ما له ، فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتـروح إلى بابك في كل يوم، أمالك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يـصونك! إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك لملّي أو لذميّ. فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها. ولم يقف الهادي عند هذا الزجر لوالدته الخيزران فقد حاول سمّها ، إذ أرسل إليها بإوزّة مسمومة ، لتأكل منها ، ولـولا أن جاريتهـا خالصة منعتها من الأكل خوفاً من أن يكون فيها شيء تكرهه، فجاءت بكلب، فأكل منها فتساقط لحمه، فأرسل إليها بعد ذلك، كيف رأيـت الإوزة؟ فقـال : وجـدتها طيبة، فقال : لم تأكلي منها ، ولو أكلت منها لكنت قد استرحت منك متـى افلـح خليفة له أم ؟![1]

في حين أن الخيزران في عهد المهدي لم يكن يردّ لها طلباً ، حتى ولـو أجارت عدوّاً له واقرأ معه حكاية الخيزران مع مزنة زوجة مروان بن محمد آخر خليفة أموي أطيح به ، وكان لمزنة من النفوذ والجاه والسلطان ما لهـا قبـل أن تدول دولة الأمويين ، قالت زينب بنت سليمان بن علي الهاشـمي[2]: كنـت أول أمس عند الخيزران، ومجلسي ومجلسها إذا اجتمعنا في صدر المكـان، وفوقنـا سبتيّة لأمير المؤمنين المهدي ، وهو كثير الدخول إليها فـإذا جلـس فـي ذلـك الموضع رفع عنه ، وإذا انصرف طرحت عليه السبتية إلى وقت حـضوره، فإنّـأ لجلوس إذ دخلت علينا حاجبة وقالت : يا ستّي بالباب امرأة ما رأيت أحسن منها ولا أسوأ حالاً ، عليها قميص ما تستر ببعضه موضعاً مـن بـدنها إلاّ انكـشف

[1] تاريخ الطبري ج٤/ ٦٠٤ ، ٦٠٥ .
[2] الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

موضع آخر،تستأذن عليك ، فالتفتت إليّ وقالت : ما ترين؟ فقلت: تسألين عن حالها واسمها، ثم تأذنين لها على علم فقالت الجارية : قد والله جهدت بها كل الجهد أن تفعل فما فعلت، وأرادت الانصراف فمنعتها فقلت للخيزران وما عليك أن تأذني لها ؟ فإنّا منها بين مكرمة أو ثواب، فأذنتْ لها؛ فدخلت امرأة أكثر مما وصفت الجارية في الجمال وسوء الحال، فجعلت تمشي – وهي مستحدثة - حتى صارت إلى عمارة الباب، فجعلت ما يليني – وكنت متكئة – فقالت : السلام عليكم فرددنا عليها السلام ،ثم قالت للخيزران أنا مزنة امرأة مروان بن محمد ،فلّما وقع كلامها في سمعي قلت : لا حيّاك الله ولا قرّبك، الحمد لله الذي أزال نعمتك وعزّكَ، وصيّرك نكالاً وعبرة ؛ أتذكرين يا عدوّة الله حين أتاك أهل بيتي يسألنك أن تكلّمي صاحبك في إنزال إبراهيم بن محمد من خشبته، فتلقيتهن ذلك اللقاء ، وأخرجتهن ذلك الإخراج؟! الحمد لله الذي أزال نعمتك ،قالت زينب : فضحكت المرأة حتى كادت تقهقه وبدأ ثغرٌ ما رأيت أحسن منه ، ثم قالت : أيّ شيء بنت عم؟ أيّ شيء أعجبك من صنع الله عزّ وجلّ بي على العقوق حتى أردت أن تتأسى بي ؟ السلام عليكم، ثم ولّت خارجة وهي تمشي بخلاف الأول فقلت للخيزران : أنها مخبأة من الله عزّ وجلّ ، وهدية منه إلينا ، والله يا خيزران لا يكون إخراجها مما هي فيه إلاّ بي ، ثم نهضت على أثرها حتى وافيتها عند الستر ،ولحقتني الخيزران فتعلّقت بها وقلت : يا أخيّه المعذرة إلى الله عزّ وجلّ واليك فإني ذكرت بوجودك مالنا من المصيبة بصاحبنا ، فكان منّي ما وددت إني منعت منه ، وقطعت عنه ولما املك نفسي وأردت معانقتها، فوضعت يدها في صدري وقالت : لا تفعلي يا أخيّه ، فاني على حال أصونك من الدنوّ منها ، فرددتها وقلت للجواري: ادخلن معها الحمام ، وقلت للمواشط: اذهبن معها حتى تصلحن حفافها وما تحتاج إلى إصلاحه من وجهها ، فمضت ومضين معها ودعونا بكرسيين، فجلست أنا والخيزران عليهما ننتظر خروجها في صحن الدار، فخرجت إحدى المواشط وهي تضحك، فقلت لها : ما يضحكك؟ قالت : يا ستّي ؛ إنا لنرى من هذه الغريبة عجباً ، فقلت : ما هو ؟ قلت: نحن معها في انتهار وزجر وخصومة،

ما تفعلين أنتِ ولا ستّنا مثله إذا خدمنا – كما قالت – فقلت للخيزران : حتى تعلمي – والله – يا أختي - أنها حرّة رئيسة ، والحرّ لا يحتشم من الأحرار ، ثـم خرجت إلينا جارية ثانية، فأعلمتنا أنها قد خرجت من الحمـام، فوجّهـت إليهـا الخيزران بصنوف الخلع ، فتخيرت منه ما لبسته، فتخيّرت وبعثنا إليها بطيب كثير فتطيبت ثم خرجت إلينا ، فقمنا جميعاً فعانقناها ، فقالت : أما الآن فنعم....

وقالت لها الخيزران : فهل لك في المقام عندنا على أن نخلي لك مقصورة ونحوّل إليها جميع ما تحتاجينه ،ويستمتع بعضنا ببعض؟ فقالت : وردت وأنا على اقل حال، وإذ قد تفضّل الله عزّ وجّل عليّ بكما وبهذه النعمة فلا أقلّ مـن الـشكر للمبتدئ بكل نعمة ولكما، فافعلي ما أحببت وبدالك، فاختارت مزنة مقصورة مـن أحسن المقاصير وأوسعها ، وملأتها الخيزران بالفرش والكـسوة والخـدم،فقالت الخيزران لزينب بنت سليمان: إن هذه المرأة تعيسة قد عضّها الفقر، وليس يمـلأ عينها إلا المال، ثم بعثت إليها بخمسة آلاف دينار ومائتي ألف درهم، ليكون ذلـك كله في خزانة مزنة وتحت تصرّفها،ثم دخل المهدي في أثناء ذلك ،فحدّثته زينـب بما جرى لها مع مزنة،فلما قالت له ما كان منها من الوثوب عليهـا وإسـماعها اقشعرّ واصفرّ ، ثم قال : يا زينب ؛ هذا مقدار شكرك لربك - عزّ وجـلّ – وقـد أمكنك من عدوّك وأظفرك به على هذه الحالة التي تصفينها، والله لولا مكانك مني لحلفت أن ألاّ أكلّمك أبداً ، فسأل عن مزنة، وقال لخادم بين يديـه : ادفـع إليهـا عشرة آلاف دينار ومائتي ألف درهم ،وأبلغها سلامي ، وقل لها: لولا خـوفي أن احتشمها لصرت إليها مسلّماً ومخبراً إياها بسروري بها،وقل لها : إنـي أخـوك وجميع ما نفذ فيه أمري فأمرك أنفذ فيه ، ثم ما لبث أن جاءت مزنة مسلّمة على الخليفة ،فلقيها أحسن لقاء .

ولما مات الهادي أرسلت الخيزران إلى يحيى تـأمره أن يهيـئ الكتـب اللازمة إلى حكام الأقاليم وقواد الجيوش فيها يخبرهم بوفاة الهادي وخلافة ولدها

الرشيد،وفي خلافة الرشيد كانت الخيزران مطلقة اليد تأمر وتنهي كما كانت أيام المهدي، وكان يحيى يعرض عليها شؤون الدولة ويصدر عن أمرها [1].

ولما حجّت ،وزّعت الأموال الطائلة على الفقــراء والمعــوزين، واشــترت المكان الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عليه مــسجداً ســمّته مسجد الميلاد، واشترت الأرض القائمة إلى جانب منزل آل الأرقم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، وأطلقت عليه اسم منزل الخيزران وأقامت سبيلاً للماء في الأرض التي يملكها جعفر البرمكي في مكة ، وفي العراق أمــرت وكيلها بإصلاح نبع في الأنبار أطلقت عليها اسم الريّان لغزارة مائه .

---

(1) تاريخ الطبري ج٤/٦٠٨ .

زبيـــدة بنـــت جعفر بن المنصور
زوجة الخليفة هارون الرشيد

زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية زوجة الخليفـة هـارون الرشـيد وبنت عمّه، وأم ولده محمد الأمين ،كان لها مائة جارية يحفظن القـرآن الكـريم ،وكان يسمع في قصرها دويّ كدويّ النحل من قراءة القرآن ،والى زبيدة تنسب عين زبيدة في مكة ، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان ، شـرقي مكـة ، وأقامت له الاقنية حتى أبلغته مكة ، قال ابن تغري بردي في وصفها،أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً، وقال ابن جبير فـي كلامـه علـى طريق الحج: وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي آثار زبيدة ابنة جعفر ، انتدبت لذلك مدّة حياتها، فأبقت في هذا الطريـق مرافـق ومنافع تعمّ وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن [1]، كانت زبيدة تحـبّ ولدها الأمين حباً جماً ، الأمر الذي جعلها تهئ له الأسباب ليكون الخليفة بعد أبيه ،لكن الرشيد كان يهيئ ولده عبد الله المأمون ليكون خليفة المسلمين من بعـده، غير أن زبيدة لم ترض عن هذا التوجه من الرشيد، فغضبت منه ، وعاتبته علـى ذلك ، فردّ عليها الرشيد بقوله: ويحك إنما هي امة محمد ورعاية من اسـترعاني الله تعالى مطوّقاً بعنقي، وقد عرفت ما بين ابني وابنك ، ليس ابنك يا زبيدة أهـلاً للخلافة ، ولا يصلح للرعية فقالت : ابني والله خير من ابنك وأصلح لما تريـد ، ليس بكبير سفيه ولا صغير فيه، أسخى من ابنك نفساً ، وأشجع قلباً،فقال الرشيد: ويحك ! أن ابنك لأحبّ إليّ ، لأنها الخلافة ، لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً وبهـا مستحقاً ، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ،فما أغنانا أن نلقي الله بوزرهم، وننقلب إليه بإثمهم ، فاقعدي حتى اعرض عليك ما بين ابنـي وابنك ، استدعى الرشيد ولده المأمون أولاً ، ولّما وصل إلى باب المجلس، سـلّم

---

[1] وفيات الأعيان ج١/١٨٩ ،وانظر : تاريخ بغداد ج١٤ /٤٣٣ ورحلة ابن جبير ص ٢٠٨ والنجوم الزواهرة ج٢/٢١٣ والاعلام ج٣/٤٢ .

على أبيه ، ثم وقف طويلاً مطأطئ الرأس، حتى أذن له الرشـيد بـالجلوس والكلام ، جلس المأمون ، وحمد الله تعالى ثم استأذن والده بان يقترب ، فأذن له بذلك ، اقترب وقبّل أطرافه ويدي زبيدة ،ثم رجع إلى مكانه ،وحمد الله على رضي أبيه وحسن رأيه فيه ، فقال الرشيد: يا بني إني أريد أن اعهد إليك عهد الإمامـة وأقعدك مقعد الخلافة ، فاني قد رايتك لها أهلاً وبها حقيقاً، فبكى المأمون وصـاح يسأل الله العافية لوالده،ثم قال :يا أبتاه ، أخي أحق مني وابن سيدتي ، ولا أخال إلا انه أقوى على هذا الأمر مني ، وأشدّ استطلاعاً ، عرض الله لك ما فيـه الرشاد والخلاص،وللعباد الخير والصلاح ، ثم استأذن للخروج فأذن له الرشـيد ، ثم استدعى الرشيد ابنه الأمين ، فدخل على أبيه من غير أن يستأذنه في الدخول دخل وهو يختال متبختراً حتى وصل إلى كرسيّ والده ، فبادره الرشيد بقوله: ما تقول يا بنيّ أن اعهد إليك؟ فردّ على الفور: ومن أحـقّ بـذلك منـيّ يـا أميـر المؤمنين؟ فَصَرفه الرشيد وقال لزبيدة: كيف رأيت ؟ فقالت :يا أمير المـؤمنين : ابنك أحق بما تريد ، فرّد الرشيد : فإذا أقررت بالحق وأنصفت فانا اعهد إلى ابني ثم إلى ابنك.[1]

نخلص بالقول إلى أن زبيدة كانت وراء تولية ابنها الأمين ولاية العهـد، وما كان ذلك ليكون ، لولا قوّة تأثيرها في الرشيد وحرصه الشديد على رضـاها وتنفيذ رغباتها.

وقد **قامت قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ)** بدور هام في عزل الخليفة المستعين، ليصفو الجوّ لابنها المعتـز، واشـتهرت قبيحـة بالثراء ،حتى ذكر ابن الأثير[2]، أنهم وجدوا عندها مليوناً وثمانمائة ألف دينـار، ومع ذلك عرضت ابنها لعنت الأتراك وغضبهم ولاسيما الذين تـأخرت رواتـبهم المستحقة لهم ، وقدرها خمسون ألف دينار فقط ،ولم يلبث أن ذهب ضحية بخـل أمه.[3]

---

(١)

(٢) ابن الأثير ج٧/ ٧٠ .

(٣) تاريخ الإسلام ج٣/٤٥٥ وانظر :ا لطبري ج٥/ ٤٣٠ .

واستأثرت " **السيدة** " أم الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠) بنفوذ كبير في الدولة العباسية ،وليس أدل على عظم نفوذها وتدخّلها في شؤون الدولة، وتمتّعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة من ذلك الكتاب الذي بعث به إليها الوزير المصلح علي بن عيسى يتنصل فيه من التبعات التي ألقتها عليه في إدارة شؤون الدولة المالية ، وعلى الرغم مما قام به هذا الوزير من إصلاح كان مصيره العزل، وقد ذكر ابن الأثير [٤] أن أم موسى القهرمانة ذهبت إلى منزل الوزير لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم ، فطلب إليها حاجبه أن تنتظر ساعة حتى يستيقظ ، فعادت إلى دارها مغضبة ولما استيقظ الوزير أرسل حاجبه وولده يعتذران إليها فلم تقبل ، ودخلت على الخليفة المقتدر ورمت الوزير بما أدّى إلى عزله عن الوزارة والقبض عليه .

ولم يقف نفوذ هذه السيدة عن هذا الحدّ ، فقد اتسعت سلطتها إلى درجة أنها استطاعت أن تعيّن قهرمانتها "ثومال "قاضية لمحكمة المظالم ، فكانت تجلس أيام الجمع في مكانٍ بنته السيدة في الرصافة، وقد أدّى تدخل السيدة في شؤون الدولة إلى ضعف الخلافة العباسية ، كما أن إلقاء القبض على الوزير المصلح علي بن عيسى بسبب اعتذاره عن إجابة قهرمانتها أم موسى إلى ما طلبت قد حرم الخلافة من الاستفادة من مواهبه الممتازة وسياسته الرشيده، كما كان من اثر تعيين " **ثومال** " قهرمانة السيدة قاضية محكمة المظالم ؛ أن استهتر العامة بالخلافة ، ونظروا إلى حكامها نظرة الاحتقار والازدراء.

كما زاد نفوذ حرم الخليفة في عهد الوزير حامد بن العبّاس ، وأصبحن يتدخلن في شؤون الدولة، على حين قبع الخليفة في داره، فكنّ يجلسن للمظالم ، وينظرن في رقاع الناس وتصدر الأوامر مذيلّةً بتوقيعاتهن، كما عملت على عزل

---

[٤] ابن الأثير ج ٣٧/٨ .

الوزير احمد بن عبد الله بن احمد الخصيب، وصودرت أمواله وذلك في سنة٣١٤ هـ.[١].

وإذا ما انتقلنا إلى الدولة الفاطمية ، نجد انه كان للنساء شأن كبير في الدولة، يتدخلن في شؤونها ، وقد ذكر المقريزي[٢]أن كثيراً منهن عرفن بالبذخ ، فمنهن رشيدة بنت المعز تركت نحو مليون ونصف من العملة الذهبية ، وتركت اختها " عبدة "كثيراً من خزائن الحلي والصناديق التي تحتوي على أكياس من الزمرّد،وثلاثمائة قطعة فضية ،وثلاثين ألف ثوب صقليّ ، وغير ذلك من الذخائر.

وقد أنفقت السيدة " **تغريد** " زوجة المعز أموالاً طائلة على بناء مسجدها بالقرافة ، وكان لزوجة الخليفة الفاطمي العزيز وهي امرأة نصرانية على المذهب الملكاني – مذهب كنيسة القسطنطينية – فولدت له ابنه الحاكم وابنته ست الملك ، وكان لهذه المرأة النصرانية نفوذ كبير في الدولة ، إلى درجة أن الخليفة العزيز عيّن أخويها بطريرقين ملكيين ، احدهما في الإسكندرية،والآخر في بيت المقدس.

وامتازت **ست الملك** بالحزم الشديد والرزانة والتحفظ، والاهتمام بجلائل الأمور، وحازت على درجة كبيرة من حبّ أبيها ، كانت موضع ثقته لدى استشارتها في كثير من الأمور المعضلة، ولما توفي العزيز بالله، خلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وكان يستشيرها أيضا في أموره ثم تغيّر عليها ،وهمّ بقتلها ، وساءت سيرته، وعمّ في عهده الظلم والطغيان والقلاقل والاضطرابات وكثر سفك الدماء،وتشعّب الآراء والأهواء من كثرة استصدار المراسيم الشاذة ما بين تحريم وتحليل، وحظر التبرج على النساء، وتحريم بعض الأطعمة، وأباح مطاردة اليهود والنصارى ، ثم العفو عنهم ، والأمر بقتل الكلاب ،وقتل الوزراء والكتّاب ورؤساء العشائر، وذوي النفوذ، وشجّع على الإلحاد ، كل ذلك أدى إلى اضطراب البلاد والعباد، فاتفقت ست الملك مع القائد حسين بن دوّاس بعد أن وعدته بتولية إدارة الملك ،فاغتيل الحاكم سنة٤١١ هـ وبويع لابنه علي وهو صبيّ، وجاءها ابن

---

[١] تاريخ الإسلام ج ٤٥٦/٣ .
[٢] خطط المقريزي ج٤١٥/١ و٤٦٥ .

دواس يستنجزها وعدها ،فأوعزت إلى خادم لها فقتله وصــاح : يــا لثــأر الحاكم ،ثم قامت بإدارة الدولة مدة أربع سنوات، أظهرت فيها من المقدرة والعدل ما حببّها إلى رعيتها، وتوفيت عام ٤١٤هـ/١٠٢٣ م وقد تركت ست الملك ثروة ضخمة، منها : ثمانمائة جارية ،وثماني جرار ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيــل، وكانــت مخصــصاتها خمسين ألف دينار في السنة[١] .

ومما يلاحظ في هذا العصر انه لم يظهر من طبقة العامة في ذلك العــصر نساء كان لهن اثر في الحياة السياسية،أو في ترقية المجتمع ، بل كان النشاط في هذه النواحي مقصوراً على نساء الخلفاء والأمراء وغيرهن من نــساء الطبقــة الحاكمة ،وإذا كان النشاط محصوراً بالحرائر فلا يعني هذا انه لم يظهر من بــين الجواري من قام بدور هام في قصور الخلفاء والأمراء ورجالات الدولة، ولــيس أدلّ على صحة هذا القول كما يروي د. حسن إبراهيم حسن نقلاً عن المقّري مــن قصة الجارية طروب، جارية عبد الرحمن الأوسط ، فقد بلغ من شدة ميله إليهــا وكلفه بها أنها حين غضبت منه وأبت أن تقابله ، ترضاها ببدر المــال والحلــي الذي قدّرت قيمته بمائة ألف دينار، وقد كانت هذه الجارية تبرم أمور الدولة مــع نصر الخصيّ ، وان عبد الرحمن لم يردّ على شيئاً أبرمته[٢] .

أما الأميرة الحسناء " **صبح** " البشكنجية ،زوجة الحاكم الثاني وأم المؤيد (٣٦٦-٣٩٩هـ) فقد كانت تتمتع بنفوذ كبير في الدولة الأموية بالأندلس ، فقــد ظهرت " صبح " أو " اورورا " كما تسميها الرواية الإفرنجية التي تعني : الفجــر أو الصباح الباكر في أوائل حكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ، ولــيس هناك ما يعرف عن نشأتها وحياتها الأولى ولكن ما تقدّمه لنا الرواية الإســلامية أن " صبحاً " كانت جارية نافارية في دار المدنيات بقرطبة ، وبعد ذلــك أصــبحت محظية للحاكم المستنصر بالله وأمّاً لولده واستأثرت لديه بالنفوذ والرأي بعــد أن

[١] خطط المقريزي ج٢/٢٨٩ ،وابن الأثير ج٩/١٠٩- ١١٠ ، وانظر : الأعلام ج٣/٧٨ .
[٢] تاريخ الإسلام ج٣/٤٥٧ والمقري ج١/ ص ١٦٤- ١٦٥ .

أنجبت له ولديه عبد الرحمن الذي توفي صغيراً وهشاماً الملقب بالمؤيد ولا تشير الروايات إلى أن "صبحاً " أصبحت زوجة للحكم بل ظلّت جارية وأم ولـد ، إلاّ أنها كانت سلطانة على الحقيقة ، فالروايات الإسلامية تسميّها " السيدة صبح " أم هشام ، والروايات الإفرنجية تدعوها السلطانة صبح ، وكانت كلمتها مسموعة في تعيين الوزراء ورجال الدولة والبطانة،وفي اغلب شؤون الدولة ، ولها نفـوذ مطلق وسلطان لا يحدّ ، وقد أسندت أمور الدولة إلى المنصور بن أبي عامر الذي غدا ساعدها الأيمن ، وكانت مفتاح سعده وطريقه لما آل إليه بعد إعجابها بذكائه ومواهبه وظرف شمائله،ولما توفي الخليفة الحاكم المستنصر بـالله كانـت احـد الوصاة على الخليفة المؤيد بالله ، وكانت خير معين لأبي عامر في توليّ السلطة والإمساك بزمام الأمور في الأندلس ، وذلك بان أعانته على خصومة وأيدّته فـي بادئ الأمر في حجب ابنها الخليفة المؤيد بالله بعد أن أقنعها أبو عامر بـضرورة حجبه لسلامته وسلامة مقام الخلافة ، إلاّ أنها ما لبثت أن علمت بنيّة المنـصور أبي عامر بأنه يريد الاستئثار بالحكم [1]، فقامت عليه ،وبثّت بين العامـة أن أبـا عامر يسجن الخليفة المؤيد بالله ويحكم رغماً عنه ،ويسلب إرادته ، واسـتعانت عليه بحاكم المغرب الأقصى لنصرة الخليفة المسلوب ،لكن أبا عامر سحقه كباقي خصومه ، وبعد فشل محاولاتها في استرجاع ملك ابنها والتغلب على المنـصور أبي عامر، استكانت ورضخت للأمر الواقع الذي آل إليه مصير ولدها المؤيد بالله

ومن النساء اللاتي برزن علـى مـسرح الأحـداث ،وتـصرفن تـصرف السلاطين **ضيفة خاتون** (٥٨١ - ٦٤٠ هـ) ضيفة خاتون بنت الملك العـادل أبي بكر بن أيوب صاحب حلب، أميرة عاقلة حازمة ، تصرفت في حلب بعد وفـاة ابنها الملك العزيز ،وولاية حفيدها الناصر وهو طفل تصرّف الـسلاطين ، قرابـة ستة أعوام، مولدها ووفاتها بقلعة حلب[2]، سميت ضيفة لأنها عند ولادتها كـان عند أبيها ضيف فسميت ضيفة [2].

---

[1] مقدمة ابن خلدون ص ١٣٦ .
[2] أبو الفداء ج١٧١/٣ – وأعلام النبلاء ج ٢٦١/٢ والأعلام للزركلي ج٢١٦/٣ .

أما **تركان خاتون** : فقد كانت زوجة ملك شاه الــسلجوقي (٤٦٤ - ٤٨٥ هــ) وكانت من أوائل النساء اللاتي حلمن بالسلطة ، وقد تولتها فعلاً بعـد وفاة زوجها ،لان ابنها الوريث الشرعي لملك والده لم يكن يتجاوز الرابعــة مــن عمره وكان عليها أن تتواطأ مع الخليفة العباسي المقتــدر ، وان تبقــى مــوت زوجها طيّ الكتمان، غير أن الخليفة العباسي لم يكن ليقبل أن تتربع على العرش امرأة ، وان تلقى الخطب باسمها ،وعندما أصّر الخليفة على أن تكــون الخطبــة باسم وليّ العهد قاومت في البداية إلاّ أنها اضطرت في الأخير إلى قبول الــشروط من اجل أن تبقى في الحكم [١].

شجرة الدّر: جارية من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب ،اشــتراها في أيام أبيه، تميزت بالذكاء الحادّ ، والفطنة والجمال وكانت متعلمة تجيد القراءة والكتابة والخط والغناء ،وهي أم خليل الملقبة بعصمة الدين، حظيت عنده،وولدت له ابنه خليلاً فاعتقها وتزوّجها، وكانت معه في البلاد الشامية، لما كان مــستولياً على الشام مدة طويلة، ثم انتقل إلى مصر وتولى السلطنة بدلاً من أخيه الاصــغر الذي تقول الروايات عنه بأنه كان طائشاً والدولة في خطر مــن كــل الجوانــب، ويتربص بها الصليبيون والمغول، كانت شجرة الدّر تدير أمور الدولة عند غيــاب الملك الصالح في الغزوات، وكانت كما يقول ابن إياس: ذات عقل وحــزم كاتبــة قارئة ، لها معرفة تامة بأحوال المملكة ،وقد نالت من العزّ والرفعة ما لــم تنلــه امرأة قبلها ولا بعدها، ويسمّيها سبط أبن الجوزي، شجرة الدّر ويقــول : كانــت تكتب خطاً يشبه خط الملك الصالح ،فكانت تعلّم على التواقيع ، ولما توفي الملــك الصالح سنة(٦٤٧هــ) بالمنصورة والمعارك ناشئة بين جيشه والإفــرنج اخفــت خبر وفاته ،واستمر كل شيء كما كان : السماط يمدّ كل يــوم ، والأمــراء فــي الخدمة ، وهي تقول: السلطان مريض ما يصل إليه احد ،وذلك لعــدة أســباب : أهمها الخوف من حدوث البلبلة في الدولة وبخاصة في صفوف الجيش، وحتــى

---

[١] انظر : النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب ص ٣٩٠-٣٩١ .

تتغلب على لويس التاسع الذي نذر إن شفي من مرضه فسوف يشنّ حملة على مصر ،وفعلاً جهّز جيشاً وأبحر من مرسيليا عام ١٢٤٩ متوجهاً إلى مصر، وفي هذه الأثناء كان الملك الصالح مريضاً ، ولكنه استعد للأمر ، واتخذ من المنصورة مركزاً للقيادة العامة ، وولاّها للأمير فخر الدين نزولاً عند رغبة شجرة الدّر التي أثبتت أنها قادرة على مواجهة الصعاب ، غير أن شجرة الدّر حين لاحظت أن خبر وفاة زوجها أوشك أن ينكشف، وأن العدوّ أوشك أن ينهزم، قامت باستدعاء ابن زوجها "توران شاه" الذي كان في حصن "كيفا "وأمرت رجال الدولة والجيش أن يحلفوا له يمين الولاء،وان يدعى لها على المنابر في المساجد،وذلك لتبقى السلطة في يدها، وتتصرف في أمور الدولة كملك للمسلمين، وحين علمت بوصوله إلى القدس في طريقه انتقلت إلى القاهرة،فبعث يهددها،ويطلب المال والجواهر، فخافت شرّه ، واستوحش منه بعض المماليك فقتلوه،وتقدّمت للملك ، فخطب لها على المنابر وضربت السكّة باسمها، وأقامت عز الدين أيبك الصالحي وزير زوجها وزيراً لها ، وكانت علامتها على المراسيم، " أم خليل" وعلى السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين ، والدة المنصور خليل أمير المؤمنين، ولم يستقر أمرها غير ثمانين يوماً، وخرجت الشام عن طاعتها ،فتزوجت بوزيرها عز الدين ونزلت له عن السلطة ، واحتفظت بالسيطرة عليه ، وتلقّب بالملك المعزّ، وطلّق زوجته الأولى أم عليّ، ثم لما أراد أن يتزوج عليها أمرت مماليكها فقتلوه خنقاً بالحمّام ، وعلم ابنه عليّ بالأمر ، فقبض عليها وسلّمها إلى أمّه فأمرت جواريها أن يقتلها انتقاماً لموت زوجها[١].

وهكذا فان شجرة الدّر عاشت مكرّمة ذات نفوذ واسع وقوة، ولكنها ماتت ميتة ذليلة ولكن التاريخ خلّدها لوقوفها أمام الصليبيين ،وقوة شخصيتها ودهائها وقدرتها العجيبة على إدارة دفّة الحكم ، إلاّ أن غيرتها على كبريائها وكرامتها

[١] المقريزي ج٢٣٦/١- ٢٣٨ ، وانظر " الأعلام ج١٥٨/٣ وانظر : شجرة الدّر السلطانة الحكيمة من موقع اون لاين.

دفعتها إلى ارتكاب جريمتها فأسقطتها من علياء الشهرة إلى حضيض الهوان والعذاب والقتل.

رضيّة الدنيا والدين: تنحدر السلطانه رضية من أسرة تركية من المماليك، تولت السلطة في دلهي عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦ م بعد وفاة والدها السلطان شمس الدين لِلِمْش وهو احد القوّاد العسكريين الذين أرسوا دعائم الدولة الإسلامية في الهند عام ١٢٢٩ م، كان والدها احد مماليك السلطان قطب الدين أيبك الذي كان مقدّماً لدى السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سام الغوري سلطان غزته وبلاد خراسان ، بعد تغلّبه على ملوك وأمراء سلالة السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين ، الذي كان أول من قاد الجيوش لتلك الفتوحات الإسلامية في القارة الهندية، وبعد وفاة السلطان قطب الدين أيبك جلس شمس الدين على عرش البلاد الهندية عام ٦١٤هـ/١٢١٦م ، كان لهذا السلطان العادل أربعة من الأولاد ثلاثة من الذكور وهم : ركن الدين ومعز الدين وناصر الدين وابنته الوحيدة هي رضيّة الدين التي أشقاها جمالها وأضرّبها حسنها ، اختارها أبوها بدل أخوتها لذكائها وقوّتها،ومواهبها في إدارة شؤون البلاد وعدم قدرة أإخوتها ، وكان أول قرار اتخذته سك النقود باسمها واختيارها لقب رضية الدنيا والدين، وعندما حاول أمراء الحاشية والجيش إبعادها عن الحكم مترافقاً مع قيام أخيها الأكبر بقتل أخيها الأصغر ، باءت محاولاتهم بالفشل ، حيث اعتمدت على الشعب الذي ثار ضد أخيها وأمرت بقتله . يذكر ابن بطوطة أنها حكمت حكماً مطلقاً خلال أربع سنوات وكانت امرأة إدارية قوية، ولكن نهايتها جاءت سريعة بعد أن وقعت في غرام عبد حبشي لها اسمه جمال الدين ياقوت ، فعجّل ذلك في سقوطها[1].

---

[1] انظر : المسلمون في الهند لاحمد بخش الهروي ،ترجمة احمد عبد القادر الشاذلي – الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٩٥ – وانظر : منتديات التاريخ الإسلامي – www.Islamic history

دولت خاتون: أوّل خاتون وصلت إلى السلطة هي دولة خاتون التي اعتلت العرش بعد موت زوجها السلطان عز الدين محمد(٧١٦ هـ - ١٣١٦ م) من سلالة بني خورشيد المنغولية التي حكمت لورستان (جنوب غرب إيران) قرابة أربعة قرون ،غير أنها استقالت بمحض إرادتها لعدم قدرتها على إدارة البلاد، وتنازلت عن الحكم لأخيها عز الدين الحسن.

والخاتون الثانية التي حكمت بغداد هي " **تندون** " وهي أيضا منغولية من السلالة الجلائرية كانت تندو ابنة الملك عويس الذي تحالف مع مماليك مصر للوقوف في وجه تيمورلنك ، أرسلها أبوها إلى مصر للحصول على دعم سياسي، فتزوجت الملك الظاهر برقوق عاهل مماليك مصر،غير أنها لم تستطع البقاء في مصر بسبب حبها لوطنها العراق، فعادت وتزوجت من ابن عمها (شاه ولد) وبعد وفاة أبيها الملك عويس عام ٨١٤هـ/١٤١١م تبوأت العرش وحكمت مدة ثماني سنوات حتى وفاتها.[٢]

الحرّة الصليحية : هي أسماء بنت الصليحية، زوجة علي بن محمد الصليحيّ ملك اليمن، ووالدة ابنة الملك المكرّم احمد بن علي الصليحي ، من شهيرات النساء ، كان يخطب لها مع زوجها على منابر اليمن،قال الخزرجي: إذا حضرت مجلساً لا تستر وجهها ،وقال الذهبي : كانت تركب في مائتي جارية في الحلي والحلل، ومعها النجائب بسروج الذهب،وفيها يقول الشاعر:

قلت إذ عظّموا لبلقيس عرشاً دست اسما من عرش بلقيس أسمى

وحجت مع زوجها سنة ٤٥٩ هـ أو (٤٥٨ هـ) فقتل في أم الدهيم، وأسرها قاتله سعيد بن نجاح الحبشي المعروف بالأحول ،فاركبها في هودجها ، وجعل أمام الهورج رأس زوجها ورأس أخ لزوجها قتل معه ،وأقامت في الأسر ثمانية أشهر (أو سنة كاملة) في زبيد، ورأسا زوجها واخيه معلقان أمام طاقة دارها ، وابنها المكرّم في صنعاء لا يدري أين هي ثم علم ابنها بخبرها ،فأقبل في

---

[٢] انظر : فاطمة المرينسي- السلطانات المنسيات ص ١٧٨- ١٨٠ .

جيش وظفر بالاحباش ، وأنقذها وانزل الرأسين،فجعل عليهما مشهداً وعادت مع ابنها إلى صنعاء، فتوفيت فيها وهي حماة السيدة أروى بنـت احمـد الملكـة المعروفة بالحرّة الصليحية أيضا [1] وهي غير صاحبة الترجمة كما ترى .

ج - المرأة الجارية في بيوت الخفاء والأمراء والوزراء والقادة

غمر العراق بالجواري وغنائهن، وما يتبع ذلك من لهوٍ مجون، وقد كان هـؤلاء الجواري على شاكلتين: جوار للخاصة،وجوار للعامة، فللخليفة جواريه، وللأمراء والأغنياء وكبار رجالات الدولة جواريهم كذلك ، ثم هم يتهادون هـذه الجـواري فيما بينهم ،حباً في التجدد وفراراً من الاقتصار على صوت واحد،ولما كانت هذه الجواري من أمم مختلفة ، فكان لكل صنف منهن عاداته وتقاليـده فـي الغنـاء والطرب وضروب الظرافة، فانتشرت عاداتهن، وعرفن عادات غيـرهن، فخـضع ذلك على رأي الأستاذ احمد أمين لقانون الانتخاب، من اجل ذلك كان الغناء غنـاءً منتخباً، وانقسم الناس حيال ذلك إلى فريقين: فريق يتعصب للقـديم الـذي ألفـه الناس من غناء معبد وأمثاله من مغنّي الدولة الأموية ، يمثله اسحق الموصـلي، وفريق يتعصّب للجديد يمثّله إبراهيم بن المهدي، والجديد يعني مـا أدخـل علـى القديم من نغمات فارسية.

وكان تجار الرقيق يعنون كل العناية بتعليم جواريهم ضروب الثقافـة، لأنّ علم الجارية وأدبها يقوّم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوّم بدنها، وان الجارية إذا كانت جاهلة وقوّمت بمائتي دينار قومت بأضعاف ذلك إذا كانت مغنيـة وأديبـة ، لذلك انصرف تجار الرقيق إلى تعليم جواريهم فنون الأدب والإنشاء فـضلاً عـن الغناء، وما يتبع ذلك من إيقاع ورقص، يقول صاحب الأغاني عن عَريب: " كانت مغنية محسنة ،وشاعرة صالحة الشعر،وكانت مليحة الخط والمذهب في الكـلام،

---

[1] الأعلام ج١/٣٠٦ .

ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصورة، وجودة الضرب، وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب "[٢]. ويقول في متيّم : كانت صفراء مولّدة من مولّدات البصرة ، وبها نشأت،وتأدبت وغنّت، وأخذت عن إسحاق الموصلي وعن أبيه من قبله ... وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدباً ..." ويقول في دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي : " كانت من أحسن الناس وجهاً ، وأظرفهم وأكملهم ، وأحسنهم أدبا ، وأكثرهم رواية للغناء والشعر[٣]".

وإذا قُدّر لباحث ما أن يتتبع تاريخ الدولة العباسية ، يجد أن الدولة كانت تسير بخطوات متدرجة نحو الاستقرار وأصبحت الفنون والآداب من مميزات العصر وسماته اللامعة،والفنون والآداب والعلوم لا تنمو إلا في جوّ من الأمن والرخاء والاستقرار ونهضة العلوم والمعارف وتكريم العلم والعلماء[١] ،وكل خليفة من خلفاء هذه الدولة يعلو على من سبقه درجة في سلّم النعيم والرفاهية ، والناس هم الناس في كل عصر على دين أئمتهم.

فالسفّاح أول خليفة عباسي، كان همّه كبح جماح الثائرين، وسفك دماء الخارجين ، واصطناع الموالين، فكان يؤثر الجدّ والعلم على ضروب اللهو، وكان يقول: " العجب ممن يترك أن يزداد علماً ،ويختار أن يزداد جهلاً، فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً، فقال له الهذلي: لذلك فضّلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبيين[٢] وكان السفاح إذا سمع غناء يطرب ولكن من وراء الستر، ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت، والله ، أعد هذا الصوت[٣] ثم خلف السفاح أخوه أبو جعفر المنصور، وهو رجل الدولة والمؤسس الحقيقي لها، قضي على خصومه من أهل

---

(٢) الأغاني ج٨/١٧٥ وانظر : ضحى الإسلام ج٨٣/١
(٣) الأغاني ج٣١/٧، وانظر : ضحى الإسلام ج٣٨/١
(١) تاريخ الإسلام ج٢- ٣٧- ٣٨
(٢) مروج الذهب ج٣-٢٧٦-٢٧٧ .
(٣) مروج الذهب ج٢٧٨/٣

بيته ومن غيرهم، فلم يكن له في اللهو مجال ، وكان حازماً يشعر بالتبعة، ويضطلع بالمسؤولية، ولما سمع شعر طريف بن متيمّ العنبري في قوله:

إن قناتي لنبع لا يؤيّسها غمز الثقاف ولا دهن ولا نار

متى أجر خائفاً تأمن مسارحه وإن أخف آمناً تقلق له الدار

إن الأمور إذا أوردتها صدرت إنّ الأمور لها ورد إصدار

قال : أنا أحقّ ببيتيه منه، وأنا الذي وصف لا هو، وكانت لا تزال به بقية من بداوة وميل إلى البساطة، بلغه أن عبد الله بن مصعب بن الزبير قد اصطبح مع جارية تغنيه بشعر له فيه غزل، وفيه استهتار ، فقال المنصور: لكن الذي يعجبني أن يحدو بي الحادي الليلة بشعر طريف العنبري فهو آلف وأحرى أن يختاره أهل العقل، فدعا حادياً يحدو له، وألقى عليه شعراً في الفخر بمكارم الأخلاق فحداه به، فقال المنصور : هذا والله أحثّ على المروءة وأشبه بأهل الأدب ، ثم دعا الربيع وقال له : أعطه درهماً، فقال: يا أمير المؤمنين حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لي بعشرين ألف درهم ، وتأمر لي أنت بدرهم! قال: إنا لله ، ذكرت ما لم نحب أن تذكره ، وصفت رجلاً ظالماً اخذ مال الله من غيره حلّه، وأنفقه في غير حقّه، يا ربيع اشدد يديك به حتى يردّ المال، فما زال الحادي يبكي ويتشفع حتى كفّ عنه[1].

وبعد موت المنصور شعر الناس بشيء من الراحة، وملّوا الإفراط في الجدّ والاقتصاد الذين اتصف بهما المنصور،وتطلعوا لحياة فيها سعة من المال وطرق من النعيم، فوجدوا ذلك في الخليفة المهدي، وكان المهدي سخياً كريماً، ورث عن والده المنصور أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون درهم[2] .ففرّقها المهدي بين الناس سوى ما جبي في أيامه من الأموال ،وكثرة المال مدعاة للترف والنعيم واللهو واللعب، كان المهدي يحّب المغنين ولكن هذا لم

---

[1] الأغاني ج١٣/١١٦

[2] المسعودي ج ٢ ـ ١٩٦ .

يشغله عن وجوه الإصلاح التي قام بها ، فبعد أن كان أبوه المنصور يحب الحداء ويطرب له ، صار المهدي بحب الغناء ويستمع للمغنين والمغنيات، ويحضر مجالسهم ، ويستمع إليهم ولكن من وراء حجاب ن يقول الأستاذ احمد أمين نقلاً عن صاحب أخلاق الملوك [٣]،كان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بوالده المنصور، نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبو عون بان يحتجب عنهم،فقال له المهدي: إليك عني يا جاهل، إنما اللذة في مشاهدة السرور ، وفي الدنوّ ممّن سرّني، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذّتها؟ وأثاب على ذلك الأموال الكثيرة، كان المهدي كريماً كثير العطايا، يواتر عطاياه كل من حضره ويغنيه، وحسبك انه تخرّج في قصره ولداه زينة الدنيا وبهجتها في عصرهما في الظرف والغناء إبراهيم بن المهدي وعليّة بنت المهدي وكان يحب القيان ،ويحب الحديث عن النساء في غير دعارة ، وقد ذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبين[٤] انه كان يحب جارية اسمها جوهر، كان قد اشتراها من مروان الشامي وله فيها شعر ،وأول جارية اشتراها اسمها "محياة "ورزق منها ولد مات قبل استكماله السنة،وأول من حظى عنده جارية اسمها "رحيم"ولدت له " العباسة" ثم تزوج الخيزران واعتقها سنة تسع وخمسين ومائة وقد كانت تشارك في سياسة الدولة ولها دور كبير في حياة المهدي، واستطاعت بذكائها وانفتاحها على ثقافة عصرها أن ترتفع من مجرد جارية عادية تباع في سوق الرقيق، إلى أن تكون محظية الأمير فأم أولاده فزوجته الرسمية والملكة غير المتوجه،وسيفرد الباحث لها حديثاً في نهاية هاذ الباب.

وإذا كانت الجواري على جملة من الطرز ، فمنهن جواري القصور، وغالباً ما يكنّ مثقّفات ، وقد يكنّ شاعرات ، وجوار مثقفات يغالي مواليهن في أثمانهن ،وهناك جواري الخمارات ودور اللهو ، لطلاب التهتك والجواري

---

[٣] أخلاق الملوك ص ٣٤٠ – وانظر : ضحى الإسلام ج٨٩/١ .

[٤] البيان والتبيين ج٢٠٨/٣ .

السميرات على حد تعبير د. سامي عابدين[1] واقرأ ما كتبت إحدى جــواري المهدي له ،وقد أهدته تفاحة مطيّبة تقول :

هدية منّي إلى المهـــــدي تفاحة تقطف من خــــدّي
محمّرة مصفــــــرّة طيّبت كأنها من جنّة الخلــــــد

فأجابها الهدي بقوله:

تفاحة من عند تفاحـــــة جاءت فمــاذا صنعت بالفؤاد
والله ما ادري أأبصرتهـــا يقظان أم أبصرتها في الرّقاد[2]

وفي زمن خلافة المهدي برزت صورة المرأة الحرّة والمرأة الجارية بشكل واضح ، فقد كان كثير الجلوس إلى النساء، وكانت زوجه الخيــزران أم موســى الهادي وهارون الرشيد تجلس في عتبه الرواق المقابل للإيوان ، وتجلس (زينب بنت سليمان) بإزائها ، وفي الصدر مجلس الخليفة المهدي ،يقصدهن فــي كــل وقت ، فيجلس ساعة ثم ينهض، وكان من تأثير الخيــزران أن رشّــح المهــدي ولديها (الهادي والرشيد) للخلافة مع أن ابنه الأكبر عبد الله من ابنة عمّه رابعة بنت أبي العباس وهي عربية هاشمية.

وفي عهد الرشيد،زاد إقبال الناس على الجواري وتعليمهن ودفع الأثمــان الباهظة في شرائهنّ مما أدى إلى أن تشارك المرأة في شؤون الحياة المختلفــة، فقد كانت زوجة الرشيد "زبيدة" الملكة الثانية بعد أمه الخيزران وكان لزبيدة دور واضح في حياة الرشيد كما سيتضح في نهاية الباب،يكفي أنها كانت وراء ترشيح ولدها الأمين للخلافة قبل أخيه المأمون الذي كان المرشّح الأول لها، أما علاقــة الرشيد بالجواري الحسان في قصره فانه يحدثنا عن نتفٍ منها الأصمعي فيقــول: دخلت على هارون أمير المؤمنين ، وبين يديه جارية حسناء عليها لمّـــةٌ جعــدة،

(1) انظر : كتابة الغناء في قصر الخليفة المأمون
(2) العقد الفريد ج٨/١١٢ .

وذؤابة تضرب الحِقْوَ منها، وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب هذا ما عمل في طراز الله! فقال : يا اصمعي ، صفها ،فأنشأت أقول :

كنانية الأطراف سعدية الحشا   هلالية العينين طائية الفم

لها حكم لقمان ،وصورة يوسف   ونغمة داود ، وعفّة مريم

فقال : أحسنت والله يا أصمعي، فهل عرفت اسمها؟ قلت لا يا أمير المؤمنين،فقال : اسمها دنيا ، فأطرقت ساعة ثم قلت :

إنّ دنيا هي التي   تملك القلب قاهرة

ظلموها شطر اسمها   فهي دنيا وآخره

قال الأصمعي :فأمر لي بعشرة آلاف درهم .[1]

ومن طرائف الجواري عند الرشيد أن اسحق الموصليّ قال : كان هارون الرشيد جالساً بين جارتين من جواريه ،فقال لهما: من يبيت عندي هذه الليلة منكما؟ فقالت احداهما: أنا ،فقالت الأخرى : بل أنا ، فقال للأولى : ما حجتك فيما ادّعيت ؟ قالت : قول الله { والسابقون السابقون أولئك المقرّبون } [2]،وقال للثانية : وما حجتك أنت ؟ قالت: قول الله : { وللآخرة خير لك من الأولى } [3]فقال : لتقل كلّ واحدة منكما شعراً في الغزل، فمن كانت أرقّ شعراً باتت عندي فقالت الأولى :

أنا التي امشي كما يمشي الوّجي   يكاد أن يصرعني تَغَنّجي

من جنة الفردوس كان مخرجي

وقالت الأخرى :

أنا التي لم يرَ مثلي بشر   كلامي اللؤلؤ حين ينثَرْ

أسحر من شئت ولست اسحر   إن سمع الناس كلامي كفروا[4]

---

[1] العقد الفريد ج ٨- ١٠٨ ،١٠٩ .
[2] سورة الواقعة أية ١١ .
[3] سورة الضحى آية ٤
[4] التكفير : اظهار التعظيم،انظر : لسان العرب مادة كفر.

فقال لهما الرشيد: قد أحسنتما وأجدتما، وما لواحدة منكمـا فـضيلة على صاحبتها، ولكن أبيت بينكما[٥]! وفي عهد الأمين بن زبيدة، وفي ظل تـدفّق الثروة على بيت المال،وازدياد الانغماس في اللهو المجون والمتـع، زاد الـسعي وراء كل ما هو جديد ومستورد، وأصبح ذلك دأب الكثيـر مـن أبنـاء المجتمـع العباسي، وأصبح ذلك كلّه رافداً من روافد التحرر العـام التـي سـادت أوسـاط المجتمع الذي آل أمره إلى الاستقرار والأمن .

فالأمين كان شاباً غرّاً ،رأى سلطاناً ومالاً تحت تصرفه ، وليس له عقـل ناضج وتجربة أخيه المأمون فانفق كل وقته فـي إرواء شـهواته مـن غلمانـه المخصيّين وجواريه ، قال عنه الفضل بن الربيع : ينام نومه الظربـان ،وينتبـه انتباه الذئب ، همّه بطنه، يخاتل الرعاء والكلاب ترصده، لا يفكر في زوال نعمـة ولا يروّي في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد ألهاه كأسه وشغله قدحه،فهو يجري في لهوه ، والأيام توضع في هلاكه ...[١] ذكر أبو جعفر قال :بينا محمد بن زبيـدة الأمين يطوف في قصر له ، إذ مرّ بجارية له سكرى ، وعليها كساء خزّ تـسحب اذياله ، فراودها عن نفسها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا على ما تـرى ، ولكن إذا كان في غدٍ إن شاء الله! فلما كان من الغد مضى إليها فقال لها : الوعد ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار ؟ فـضحك ، وخرج إلى مجلسه ،فقال : من بالباب من شعراء الكوفة؟ فقيل لـه : مـصعب ، والرقاشيّ ، وأبو نواس ، فأمر بهم فادخلوا عليه فلما جلسوا بين يديه، قـال : ليقل كل واحد منكم شعراً يكون آخره : كلام الليل يمحوه النهار.

تأمل اثر كلام الجارية في نفس الأمين ، وكيف انه طلب إلى الـشعراء أن يضمنّوا شعرهم ما قالته جاريته السكري ، فأنشأ الرقاشي:

متى تَصحو وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار

وقد تركتك صبّاً مستهامـاً ... فتاة لا تزور ولا تـزار

---

[٥] العقد الفريد ج٨/ ١٠٩ ، ١١٠ .

[١] الطبري ج٥/٥٨ .

وقال مصعب: أتعذلني وقلبـــك مستطار كئيـب لا يقـرّ لــه قـــــرار

بحبّ مليحة صادت فؤادي بألحاظ يخالطها احـورار

ولما أن مددت يدي إليهـا لألمسها بدا منها نفــار

فقلت لها عديني منك وعداً فقالت في غدٍ منك المزار

فلما جئت مقتضياً أجابـت كلام الليل يمحوه النهــار

وقال أبو نواس: وخود أقبلت في القصر سكرى ولكن زيّن السكرَ الوقــار

وهزّ المشي أردافــاً ثقـــالاً وغصناً فيه رمّان صـغار

وقد سقط الردا عـن منكبيْهـا من التخميش وانحلّ الإزار

فقلت الوعْد سيدتـي فقالـت: كلام الليل يمحوه النهــار

فقال له : أخزاك الله ! أكنت معنا ومطّلعاً علينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عرفت ما في نفسك ، فأعربت عما في ضميرك ، فأمر لــه بأربعــة آلاف درهــم ولصاحبيه بمثلها[1].

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون لم تكن شهواته وملاهية كـشهوات أخيــه وملاهيه، فالمأمون رجل حنكته التجارب ، وعلّمه ما قاســى مــن الأهــوال فــي الحروب وما تحتاجه الدولة من حزم وبصر بالأمور ، ثم كان له مــلاذ عقليــة تشغل وقته ، فهو يحب الكتب ويقرأ الفلسفة ، ويعشق الجدل في المسائل الدينية والفقهية ، وحوله هالة من العلماء من كل نوع يباحثهم ويجادلهم، وهو مع ذلــك يلهو لهواً خفيفاً فيشرب النبيذ[2].

وكان يزيّن مجلسه ويغنيه إسحاق الموصلي ، كما كـان أبــوه إبــراهيم الموصلي يزيّن مجلس أبيه الرشيد ، قرّبه المأمون وأعلى شانه كما قرّب عمّــه إبراهيم بن المهدي وكان مغنيّاً مبدعاً.

---

(1) العقد الفريد ج ٨/ ١١٥- ١١٦ .

(2) الطبري ج ٢٥٦/١٠

لقد كان تأثر المأمون بالشعر المغنّي شديداً ، فقد كان يسرّ عندما يعتب على إحدى جواريه ، طمعاً في استرضائها بأبيات مغنّاة فقيل : عتب المأمون على "مؤنسة "فخرج إلى الشماسية متنزهاً وخلفها عند احمد بن يوسف الكاتب، فرجت أن يذكرها إذا صار في متنزهة فيرسل في حملها،فلم يفعل وتمادى في عتبه ، فسألت احمد بن يوسف أن يقول على لسانها شعراً ، فقال :

يا سيّداً فقده أغرى بي الحزنا ما ذقت بعدك لا نوماً ولا وَسَنا
ما زلت بعدك مطوياً على حرَقٍ أشنى المقام وأشنى الأهل والوطنا
ولا التذذت بكأس في منادمةٍ مذ قيل لي أنّ عبد الله قد ظعنا
ولا أرى حسناً تبدو محاسنه إلاّ تذكرت شوقاً وجهك الحَسَنا

وبعثت إلى اسحق الموصلي فغنّاه به ، وقيل :بل بعثت إلى "سندس " فغنت به فاستحسن ذلك ، وقال : لمن هذا الشعر؟ فقال احمد بن يوسف: لمؤنسة يا سيّدي تترضاك وتشكو البعد عنك ،فركب من ساعته حتى ترضّاها ورضي عنها[٣].

أما المغنية "دنانير "فقد ذكر أنها كانت لرجل من أهل المدينة ، وكان خرّجها وأدبها ، فكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحة فلما رآها يحيى وقعت بقلبه فاشتراها ،وكان الرشيد يصير إلى منزله فسمعها حتى ألفها واشتد إعجابه بها ، فوهب لها هبات سنية ، منها انه وهب لها في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار، وعلمت أم جعفر خبره فشكته إلى عمومته ، فصاروا إليه جميعاً وعاتبوه، فقال : مالي في هذه الجارية من أرب في نفسها ، وأما اربي في غنائها، فاسمعوها فإن استحقت أن يؤلف غناؤها، وإلاّ فقولوا ما شئتم فأقاموا عنده ، ثم نقلهم إلى يحيى حتى سمعوها عنده، فعذروه وعادوا إلى أم جعفر فأشاروا إليها ألا تلحّ في أمرها ، فقبلت ذلك ، وأهدت إلى

(٣) الأغاني : ط ١ الثقافة ج ٥٦٧/٢٢ .

الرشيد عشر جوار منهن " ماردة " أم المعتصم ، "ومراجل " أم المأمون و" فارورة " أم صالح [1].

لا نستغرب حبّ المأمون للغناء، فصوت " دنانير " كان الحافز في إهداء أم جعفر لوالده جوار من بينهن أمّه " مراجل " التي اشتهرت بالغناء ، وغلب عليها الرقص المشارك للصوت، وقد يجتمع في قصر المأمون العلم بالفقه والغناء ممـا دفع المأمون أن يقول: " ما أعجب ما اجتمع فيه : العلم بالفقه والغناء" [2]، حتى انه كتب إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي أن يتحول إلى القصر، وكان فيه يومئذٍ محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان، وذكاء وصغير غلاما أحمـد بـن يوسـف الكاتب ومحمد بن إسماعيل بن علي بن عبـد الله بـن عبـاس، وكـان عالمـاً بالغناء،والفقه جميعاً، وكان يحيى بن أكثم احمد اعلام الدنيا بالفقه ووصفه احمـد بن يوسف بالعلم والغناء[3].

وقد كان بعض الجواري في القصور العباسية يتميزن بثقافة عربية أصيلة مقتدرة، تحسّ من خلال سماعك لحديثها أو قراءتك لكتابتهـا أنهـا ذات ثقافـة واسعة، وقدرة على التصرف بافانين الكلام بارعة ، ومعرفة باللغة عميقة، وقدرة على تشقيق جوانب الكلام عجيبة، واحتجاج مكين بالبراهين المقنعة، فهاك رسالة كتبتها جارية للمأمون وقد أهدت له تفاحة ، وكتبت إليه تقول :

إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك ، وتـواتر ألطافهم عليك ، فكرت في هدية تخف مؤونتها وتهون كلفتها، ويعظـم خطرهـا ، ويجلّ موقعها ؛ فلم أجد ما يجتمع ف يه هذا النعت ، ويكمل فيه هذا الوصـف ، إلا التفاح ؛ فأهديت إليك منها واحدة في العدد ، كثيرة التصرف ؛ وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها، وأكشف لك عن محاسنها وأشرح لك لطيـف معانيها، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنّن الشعراء في أوصافها ،حتى ترمقها بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنـه : أحـسن

---

[1] الأغاني : ج١٦/ص ١٣٧ .
[2] الأغاني : ج ١٤/٤٥ وانظر : الغناء في قصر المأمون ص ٢٢٤ .
[3] وفيات الأعيان ج٦/ ١٤٧- ١٤٨ .

الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصفرة الدرّيـــة ،والحمـــرة الخمريـــة والـــشّقرة الذهبية ، وبياض الفضة ، ولون التبر ، يلذّ بها من الحـــواس: العـــين ببهجتهـــا والأنف بريحها والفم بطعمها ، وقال ارسطا طاليس الفيلـــسوف عنـــد حـــضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه: التمسوا لي تفاحة اعتصم بريحها ،واقضي وطـــري من النظر إليها ، وقال إبراهيم بن هانئ ما علّل المريض المبتلّـــى ، ولا ســـكنت حرارة الثكلى ، ولا ردّت شهوة الحبلى ، ولا جمعت فكرة الحيـــران، ولا ســـكنت حنقة الغضبان ،ولا تحيت الفتيان في بيوت القيان بمثل التفاح،والتفاحة يا أميـــر المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رميت بها لم تؤلمك، وقد اجتمع فيهـــا ألـــوان قوس قزح من الخضرة، والصّفرة ؛ وقال فيها الشاعر:

حمرة التفاح مع خضرتـــــه	اقرب الأشياء من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهـــوةً	واسقينها بنشاط وفـــــــرحْ
ثم غنّى لي لكي تطربنـــــي	طرفك الفتان قلبي قد جـــرحْ

فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك، واصرف إليها بغيتك، وتأمل حسنها بطرفك ولا تخدشها بظفرك ، ولا تبعدها عـــن عينـــك، ولا تبـــذلها لخدمك، فإذا طال لبثها عندك، ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه، ويقصدها بصرفه، فتذهب بهجتها ، وتحيل نضرتها، فكلها : هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ .

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[١]

ولقد ألقت الحياة الاجتماعية التي عاشتها الطبقة المترفة مـــن الخلفـــاء والأمراء والقادة وأصحاب النفوذ في الدولة ، ألقت بظلالها علـــى الأدب ، فعبّـــر عنه الأدباء تارة بالمقطعات القصيرة ،وأخرى بالقصائد الطوال ولعل هذا آت مـــن كثرة المجالس الأدبية التي تعقد في بيوت الأصدقاء والأغنياء والأدبـــاء وحـــبّهم للملح والنوادر ووصف ما يعرض لهم من مجالس الأنس أو في المهاداة بالنبيذ،

---

[١] العقد الفريد ج ٣١٨/٧.

أو وصف الجواري البيض والسود وحسنهن ، وسمّوا النساء البيض الحسان الحمر ، قال شاعرهم:

هجانٌ عليها حمرة في بياضها يروق بها العينين والحسن أحمر

وشبهوهنّ بالنار من اجل ذلك، كما هام بعض الشعراء بالجواري السود، ودافعوا عن حبهّن من مثل قول الشريف الرضي من قصيدة له:

أحبك يا لون الشباب فإنني رأيتكما في العين والقلب توأما
سواد يودّ البدر لو كان رقعةً بجبهته أو شقّ في وجهه فما
سكنت سواد القلب إذ كنتِ مثله فلم ادر من عز من القلب منكما
وما كان سهم العين لولا سواده ليبلغ حبّات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبي ألمى فلا تلمْ جنوني عن الظبي الذي كله لمى[1]

وقال السلاميّ يصف سوداء:

يا ربّ غانية بيضاء تصحبني من العتاب كؤوساً ليس تنساغ
أشتاق وطرّتها أم صدغها ومعي من كلّها طررٌ سودٌ وأصداغ
كأننا لا أتاح الله فرقتنا يا لعبة المسك بازٌ تحته زاغ[2]

وقد قيل : إن ديوان ابن سكّرة يربي على خمسين ألف بيت ، منها في قينة سوداء يقال لها" خمرة " أكثر من عشرة آلاف بيت" [3]، كما تفنّن الشعراء في وصف القيان وغنائهن ، وأكثروا ، من ذلك ابن الرومي في صاحبته وحيد المغنية:

يا خليليّ تيمتني وحيد ففؤادي بها معنّى عميد
غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخدّين ذاك السواد والتوريد

---

(1) انظر : ظهر الإسلام /ج١/ ١٠٢ .
(2) يتيمة الدهر ج ٢/ ٤١٧ .
(3) يتيمة الدهر ج ٣/٣

فهي برد بخدّها وســـــلام وهي للعاشقين جهد جهيد

....

ظبية تسكن القلوب وترعـــا ها وقمريــــة لها تغريـــد

تتغنّى كأنها لا تغنــــــــّى من سكون الاوصال وهي تجيد

مدّ في شأو صوتها نفس كــا ف، كأنفاس عاشقيها مديـــد

عيبها أنها - إذا غناء الأحرار – ظلّوا وهم لديها عبيـــد

خلقت فتنة ، غنـــاء وحسنـــاً ما لها فيهما جميعاً نديـــد[٤]

وقال في وصف قينة مغنية وراقصة:

فتاة من الأتراك ترمـــي بأسهم يصبن الحسا في السّلم لا في المعارك

ظللنا لها نصباً تشـــك قلوبنـــا بذاك الشجا الفتان لا بالنيــــازك

تطامن عن قدّ الطـــوال قوامهـــا وأربي على قدّ القصـــار الحواتـــك

إذا هي قامت في الشفوف اضاءها سناها فشفّت عن سبيكة سابــــك[١]

لقد ظلّت الحياة الاجتماعية تسفل وتنحدر إلى أن بلغت مداها في الانحدار عندما غشي المجتمع من حبّ الغلمان ما ظهر صــداه علــى الــسنة الــشعراء، فأفاضوا فيه في تحفظ حيناً، وفي استهتار أحياناً، وقد شارك في قول الشعر فـــي الغلمان بعض ذوي المناصب الكبيرة من غير تحرّج أو حياء[٢].

---

[٤] ابن الرومي حياته من شعره ص ٣٠١.

[١] ابن الرومي حياته من شعره ص ٣٠١ .

[٢] الامتاع والمؤانسة ج١٧٥/٢

الجارية شاريـــــة

من الجواري اللاتي عشن في بيوت الخلفاء والأمراء "شـــارية "جاريـــة إبراهيم بن المهدي ، وكانت من مولدات البصرة، يقال أن أباها من بني سامة بن لؤيّ المعروفين ببني ناجية وانه جحدها، وكانت أمّها أمة، فدخلت في الرق، وقيل أنها كانت تدّعي أنا من بني زهرة، وقيل : بل سرقت وبيعت ، فاشترتها امرأة من بني هاشم فأدّبتها وعلّمتها الغناء ثم اشتراها إبراهيم بن المهدي ، فأخذت عنـــه غناءه كلّه أو أكثره ، وبذلك يحتج من يقدّمها على عريب ويقـــول: إنّ إبـــراهيم خرّجها وكان يأخذها بصحة الأداء لنفسه وبمعرفة ما يأخذها به ولم تلق عريـــب ذلك لأن المراكبي لم يكن يقارب إبراهيم في العلم ولا يقاس به في بعضه فضلاً عن سائره .

ولما عرضتها مولاتها للبيع ببغداد ، عرضت على إسحاق بـــن إبـــراهيم الموصلي فأعطى فيها ثلاثمائة دينار ثم استغلاها بذلك ولم يردها فجئ بهـــا إلـــى إبراهيم بن المهدي فساوم بها ، فقالت له مولاتها أن إسحاق الموصلي أعطى بها ثلاثمائة دينار وأنت أحق بها فدفع ثمنها، ثم دعا بقيّمته فقال :خذي هذه الجاريـــة ولا تزيينها سنة وقولي للجواري يطرحن عليها ،فلما كان بعد سنة أخرجت إليه ، فنظر إليها وسمع منها، فأرسل إلى اسحق بن إبـــراهيم ،فلمـــا أتـــاه أراه إياهـــا واسمعه غناءها، وقال : هذه جارية تباع فبكم تأخذها لنفسك؟ قال إسحاق : آخذها بثلاثة آلاف دينار وهي رخيصة بها ، فقال له إبراهيم : أتعرفها ؟ قال: لا ، قال : هذه الجارية التي عرضتها الهاشمية بثلاثمائة دينار فلم تقبلها وقد حكي عن هبة الله بن إبراهيم بن المهدي أنها عرضت ببغداد على إبراهيم بن المهدي فأعجـــب بها إعجاباً كبيراً ،فلم يزل يعطي بها حتى بلغ ثمنها ثمانية آلاف درهم استقرضها من علي بن هشام ودفع ثمنها، ثم إن إبراهيم اعتقها وتزوجها وأصدقها عـــشرة آلاف درهم، واشهد عليها الشهود العدول ، وبعد موت إبراهيم آل أمرهـــا إلـــى المعتصم، وكانت شادية مغنية محسنة، يذهب غناؤها بعقل سامعها، وكانت مـــن

أكرم الناس وكان لها مقام رفيع عند المعتز يحب غناءها ويطرب له ، كما كان لها حظوة عند المعتمد، فكان يثق بشارية ولا يأكل إلا طعامها قال أبو الفرج : حدثني جحظة قال : كنت عند المعتمد يوماً فغنت شارية بشعر مولاها إبراهيم بن المهدي ولحنه:

يا طولَ علّة قلبي المعتاد إلفَ الكرام وصحبة الأمجاد

ما زلت آلف كلّ قرم ماجدٍ متقدّم الآباء والأجداد

فقال لها : أحسنت والله ! فقالت : هذا غنائي، وأنا عارية ، فكيف لو كنت كاسية! فأمر لها بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصة ،فحمل ذلك إليها ،وعجب الذين رأوا ما وهبه لها المعتمد فقال احدهم لصاحبه: هل بلغك أن خليفة أمر لمغنيّة بمثل ما أمر به أمير المؤمنين اليوم لشارية[1]؟

الجارية بَذْل

بذل جارية صفراء مولّدة من مولدات المدينة المنوّرة ، تربت بالبصرة، وهي إحدى المحسنات المتقدمات الموصوفات بكثرة الرواية، يقال أنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت، ولها كتاب في الأغاني يشتمل على اثني عشر ألف صوت، عملته لعلي بن هشام، وكانت حلوة الوجه ظريفة ضاربة متقدمة، إبتاعها جعفر بن موسى الهادي فأخذها منه محمد الأمين وأعطاه مالاً جزيلاً ، وأخذت بذل غناءها عن أبي سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وابن جامع وابراهيم وطبقتهم ، كانت بذلك من أحسن الناس غناءً ، وكانت استاذة كل محسن ومحسنة ، وكانت أروى خلق الله للغناء ، وقال محمد بن الحسن الكاتب: إن الأمين وهبها من الجوهر ما لم يملك احد مثله، ورغب إليها وجوه القواد والكتّاب والهاشميين في التزويج فأبته، وأقامت على حالها حتى ماتت،طلب إليها المأمون أن تغنيه ، فغنت

[1] عن نهاية الأرب ج٥/٨٢-٨٨ بتصرف.

صوتاً ونسبته إلى صاحبه ، فخالفها إسحاق في النسبة واللحن فسكتت ساعة ، ثم اندفعت تغنّي هذه الأصوات الثلاثة:

أولا من شعر عباس بن الأحنف :

أبكي ، ومثلي بكي من حبّ جارية لم يخلق الله لي في قلبها لينا

هل تذكرين وقوفي عند بابكم نصف النهار وأهل الدار لا هونا؟

ثم سكتت قليلاً ، واندفعت تغنّي ثانياً من شعر إبراهيم الموصلي في مدح الرشيد:

إذا ظلم البلاد تجللتنا فها رون الإمام لها ضياء

بها رون استقام العدل فينا وغاض الجور وانفسخ الرجاء

رأيت الناس قد سكنوا إليه كما سكنت إلى الحرم الظباء

تبعتَ من الرسول سبيل حق فشأنك في الأمور به اقتداء

ثم سكتت برهة وغنّت ثالثاً من شعر قيس بن ذريح:

بكيت ، نعم بكيت وكم أليف إذا بانت قرينته بكاها

وما فارقت لبنى عن تقالٍ ولكن شقوة بلغت مداها

فطرب المأمون واستعادها مراراً ، ثم نظرتْ "بذل" إلى إسحاق وسألته عن صانعها، فاضطرب ولم يعرفها ! ثم قالت للمأمون : يا أمير المؤمنين ! هي والله لأبيه تعني إبراهيم الموصلي ، وقد أخذتها من فيه ، فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره؟ فاشتد ذلك على إسحاق ، وخجل أمام المأمون ،وأخيراً يعترف إسحاق بأستاذيتها له معترفاً بفضلها ومرجعيتها كلما احتاج إلى شيء من صنعتها، وكثيراً ما كان المأمون يبعث إليها فتغنيه ، فأمرها بالغناء، فغنت : ألا لا أرى شيئاً ألذّ من الوعد، فجعلته ألا لا أرى شيئاً ألذّ من ....[1] فإذا بالمأمون يلتفت إليها مغضباً ،وقال لها أتميّ صوتك وزيدي فيه:

---

[1] الأغاني ط ١ الثقافة ج ١٧/ ص ٢٦ ، وانظر : الغناء في قصر المأمون ص ١٨٤ .

ألا لا أرى شيئاً ألذّ من الوعـــد ومن أملي فيه وإن كان لا يجدي
ومن غفلة الواشي إذا ما أتيتهــا ومن زورتي أبياتها خالياً وحدي
ومن ضجة في الملتقى ثم سكتـــةٍ وكلتاهما عندي ألذّ من الخلـــد

....

الباب الثالث

أ- المرأة ودور اللهو وعلاقتها بالغناء واثر ذلك في المجتمع العباسي

المقدمة :

المجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً منغلقاً على نفسه، ولا مجتمعاً منفتحاً على الآخرين بلا ضوابط أو حدود ولا هو مجتمع ملائكة ، بل هو مجتمع وسطيّ ،فيه فسحة من جمال لمن يلهو لهواً بريئاً ويلعب، أو يضحك ويمرح، ويغنّي ويطرب ، ولكن كلّ ذلك بضوابط شرعية ، فديننا الحنيف - ولله الحمد - يتعامل مع الإنسان :جسمه وروحه وعقله ووجدانه، وهو مطالب إلا يحيف عليها، وان لا يشبع واحدة مما ذكر على حساب الأخرى ، وإنما يبقى الأمر فيها في حدود القوام والاعتدال، قال تعالى : { والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً } { سورة الفرقان ٦٧ } فإذا كانت الرياضة تغذّي الجسم، والعبادة تغذّي الروح، والعلم يغذّي العقل ، فان الفنّ يغذّي الوجدان.[١]

والفن كما يقال – هو الإحساس بالجمال، والانفعال به ، إلى حدّ التذوّق، واسمع قوله تعالى :{ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون } {سورة النحل/٥} {ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون} { النحل/٦ } في الآية الأولى أشار المولى – سبحانه - إلى المنفعة والفائدة في المأكل ،وفي الثانية أشار إلى الجمال الذي يتلمّسه الإنسان في الأنعام في غدوّها ورواحها، من جمال خلقة، ومن جمالها كثرتها إذا رآها الناس قالوا: هذه نعمَ فلان ، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمةً وضروعاً، ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل

---

[١] فقه الغناء والموسيقا ص ١٤ .

درّها وسرور النفس بهـا إذ ذاك [٢] وفـي قولـه تعـالى : { والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة } { النحل /٨ } فالركوب لهذه البهائم يحقق الفائدة للإنسان ، والزينة تحقق المتعة الجمالية، وبهذا تتكامل حاجات الإنسان المادية والنفسية على حد تعبير شيخنا يوسف القرضاوي.

والجمال على وجه العموم تارة يأتي من الأشياء التي تقع تحت طائلة الحسّ، سواء أكان هذا الجمال صادراً عن النظر إلى السماء وما يتلألأ في صفحتها من نجوم، وما فيها من بروج ، أو في الأرض وما ازدانت به من روض يرفّ وحدائق ذات بهجة، وانهار يتدفق ماؤها عذباً سلسبيلاً، والإنسان نفسه يعدّ لوحة جمالية ، كما في قوله تعالى: { وصوّركم فأحسن صوركم } { التغابن /٣ } فالمؤمن يستمتع بكل ما خلق الله وأتقن صنعه - سبحانه - لأنه {الذي أحسن كلّ شيء خلقه } { سورة السجدة/ ٧ }.

ولعلّ اقرب فنون الجمال إلى الإنسان هو فنّ القول الذي يبدو في الشعر والنثر وضروب هذين الجنسين الأدبيين وقد كان رسول الله يستمع إلى الشعر ويتأثر به ، قال الخليل بن احمد الفراهيدي : كان الشعر أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام[١]، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يتوق إلى معرفة كيفية جريان الشعر على ألسنة الشعراء، فسأل عبد الله بن رواحة: ما الشعر ؟ فيجيبه : شيء يختلج في صدر الرجل، فيخرجه على لسانه شعراً[٢]، وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر ويتأثر به كان يجنّده في خدمة الدعوة إلى الإسلام ، كما صنع مع حسان بن ثابت، وقد استمع إلى قصيدة كعب بن زهير ذات الاستهلال الغزلي، كما استمع إلى قصيدة النابغة الجعدي، واستشهد بالشعر في بعض المواطن، على نحو ما قال صلى الله عليه

---

[٢] الجامع لأحكام القرآن الجزء /١٢ ص ٢٧٤ .
[١] الجامع لأحكام القرآن ج١٥/٥٢
[٢] شرح بانت سعاد ص ١٣١ – وانظر : الإسلام والشعر د. سامي مكّي العاني ص ٤٧ .

وسلم : أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: ألا كــلّ شــيء مــا خــلال الله باطل[٣] ، وقد كان عمر – رضي الله عنه - يحضّ المسلمين على روايــة الــشعر والاستشهاد به لتفسير القرآن الكريم ، وكذلك الحال في الإمام علي وعبد الله بن عباس ترجمان القرآن.

كما كان الكثير من الأئمة شعراء، والخلفاء الراشدون كانوا على نحوٍ مــا يقولون الشعر، وكذلك الأئمة الكبار من أمثال عبد الله بــن المبــارك ، والإمــام الشافعي ، وابن جرير الطبري وهارون الرشيد ، كانوا شــعراء ،ولكــنهم كــانوا شعراء ملتزمين بضوابط الشرع والعمل الصالح وذكر الله في كل موقف، فعنايــة الإسلام بالجمال لا تخفى على ذي بصيرة. وحرصه على تربية الحاسّة الجماليــة عند الإنسان المسلم حقيقة واضحة ،سواء أكان الجمال في السماع أو في البصر أو في حواس أخرى ، ولعل الجمال المسموع أو الغناء هو موضوع الحديث، وهو بيت القصيد.

وقبل أن نتعرف حكم الإسلام في الغناء نستفتي المعاجم في معنى الغناء ، يقول لسان العرب: الغناء كالكساء : من الصوت ما طرّب به ، قال حميد بن ثور:

عجبت لها أنّى يكون غناؤها   فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما [١]

وفي النهاية في غريب الحديث : الغناء رفع الــصوت وموالاتــه، وقــال الشافعي عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، ما أذن الله لشيء كإذنــه لنبــيّ يتغنّى بالقرآن يجهر به، معنى يتغنّى بالقرآن : تحسين القراءة وترقيقها [٢] .

وكل شعر عند ابن سيده سواء أكان غزلاً أم مدحاً أم هجاء، إنما يقال في كل واحدٍ منها غنيّت وتغنيت، وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله : كل من رفع صوته بشيء ووالى به مرة بعد أخرى فهو غناء عند العرب، وأكثره فيما شــاق من ضرب أو شجا من نغمة ولحن ،فلذلك قيل: غنّت الحمامة وتغنّى الطائر.

---

[٣] فقه الغناء والموسيقا ص ٢٠.
[١] لسان العرب مادة غني
[٢] النهاية في غريب الحديث والاثر ج٣٢٢/٣ – والحديث اخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

والآن ما حكم الإسلام في الغناء والموسيقا؟

اتفق جمهور العلماء على تحريم كل غناء يشتمل على فحش أو فسق أو تحريض على معصية، إذ الغناء ليس إلا كلاماً فحسنه حسن وقبيحه قبيح، وكل قول يشتمل على حرام فهو حرام، فما بالك إذا اجتمع له الوزن والنغم والتأثير ؟ واتفق العلماء على إباحة ما خلا من ذلك من الغناء الفطري الخالي من الآلات والإثارة ، وذلك في مواطن السرور المشروعة كالأعراس وقدوم الغائب، وأيام الأعياد ،ونحو ذلك بشرط إلا يكون المغني امرأة في حضرة أجانب منها، والنصوص في ذلك كثيرة، وليس هذا موطنها [٣] فهل خفي حكم الغناء على خلفاء بني العباس ومن في معيّتهم من الوزراء والكبراء والقادة، أو أنّه حملّ عليهم ما لم يحملوا عند صاحب الأغاني ومن أخذ عنه؟ ويبقى أن نقول: إن الناس ليسوا ملائكة والعصمة للأنبياء.

أما علاقة المرأة الجارية بالغناء ودور اللهو وشرب النبيذ وانحطاط الأخلاق والبعد عن التدّين فهي علاقة جدلية، فليست تقتنى الجارية إلاّ للخدمة والغناء والرقص والعزف على الآلات. وإذا كان المهدي فد فتح باب اللهو المعتدل البرئ على مصراعيه؛ فان الناس تجاوزوا حدودهم في التبذّل والانهماك في الملذات، وما كان ذلك ليكون لولا جملة من الأسباب، منها ما يتعلق بالثروة التي انهالت على حاضرة الدولة، واستقرار الوضع السياسي: واختلاط العناصر السكانية كالفرس والعرب، والفرس بطبيعتهم ميّالون إلى اللهو والسرور والإفراط في حبّ النبيذ، فكأن البرامكة أرادوا أن يعيدوا سيرة الأكاسرة من جديد ، وما صاحبها من لهو وعبث ومجالس غناء، ومنها كثرة الجواري والقيان كثرة تفوق التصوّر، فكثرت الجواري وسفر الجمال عن وجهه، وتبذّل بعض الخلفاء تبذّلاً لا يليق

---

[٣] هذا خلاصة ما قال به د. يوسف القرضاوي في كتابه فقه الغناء والموسيقا ص ٢٥.

بجلال الخلافة وأهميتها الدينية والسياسية، فقويت النزعة إلى اللهو والخلاعة والترف والمجون، والرقيق والشّراب والغناء واللهو إنما يكون حيث يكون الترف الذي يصاحب الثروة والمال، فكانت مجالس بعض الخلفاء تغصّ بالمغنين والمغنيات،وما يصاحب ذلك من إنفاق الأموال الطائلة عليهم، ولمعت أسماء كثيرة من المغنين والمغنيات في بلاطات الخلفاء، وعلى سبيل المثال، فقد روي أن الرشيد اتخذ ألفي جارية لكل منها ميزة خاصة، تميزّها عن غيرها، تصحبهن ثلاثمائة قينة للغناء والموسيقى ما بين جنكية (ضاربة على الجنك) وعودية ودفية وقانونية وزامرة وراقصة ومغنية وسنطرية (ضاربة على السنطرة) وهي آلة وترية،وهذا قول مشكوك فيه لأن طبيعة الرشيد طبيعة مفطورة على التدين.

ثم كانت مجالس الخليفة الأمين الذي أولع باللهو والطرب والخصيان، حتى آثر ذلك على جميع لذّاته، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه، وتراه يراقص وصائفه وخدمه من غير تصوّن ولا حشمة ولا حياء[١]، ولم تكن دور اللهو أو مجالس اللهو والطرب مقصورة على كبار رجالات الدولة فحسب[٢]، تتمايل فيها ربّات القدود، ويستمتع فيها أولو الأمر والكبراء بالأصوات الحلوة والقدود الميّاسة، ويشربون الأنخاب على سماعها، فقد كان للعامة أيضاً جوارٍ وقيان عامة يملكهن نخّاسون محترفون، فيعرضونهن للغناء في بيوتهم ، ويأوي إليهم الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن ، ومن أشهر القيّانين ابن رامين، فقد كان له منزل بالكوفة، وله جوارٍ مغنيات، أشهرهن سلامة الزرقاء، ويجتمع في بيته الفتيان للسماع والطرب والشراب، ويقولون فيه وفي قيناته الشعر، وممن كان يختلف إليه روح ابن حاتم المهلبي، ومحمد بن الأشعث، ومعن بن زائدة، وابن المقفّع ، وأمثالهم يسمعون وينفقون الأموال ، وينشدون أشعار الغزل، ولما خرج ابن رامين حاجّاً بجواريه، بكى الشعراء لخروجه

---

[١] انظر العصر العباسي ج٣/٣٠٦

[٢] انظر: المستطرف ج ١٨٦/٢

ووصفوا لوعتهم من فراق مجلسه، كما وصفوا كثرة النـــاس الـــذين كـــانوا يغشون بيته، من ذلك قول أحدهم:

أيّة حال يا ابــــن رامــين	حال المحبيّن المساكيـــــنِ
تركتهم موتى ولم يتلفــوا	قد جرّعوا منك الأمريّـــــن
وسرت في ركب على طيّة	ركـــبِ تهـــامٍ ويمانيـــــن
يا راعي الذود لقد رعْتَهم	ويلـــك من روع المحبين
فرّقت جمعاً لا يرى مثلهم	بين دروب الروم والصين[١]

وكان لهذا النوع من الجواري الأثر السيّء في نشر الخلاعة والمجــون، ويعلّل الجاحظ فساد هؤلاء القينات بقوله: "وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهـــي إنما تنشأ من لدن مولاها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عــن ذكــر الله مــن لهــو الحديث... وبين الخلعاء والمجّان، ومن لا يسمع منه كلمة جدّ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين، ولا صيانة مروءة...." [٢].

لقد بلغت العراق مبلغًا عظيماً من الأناقة في المعيشة، بحيث أنهم جعلـــوا للظرف والظرفاء قوانين متعارف عليها ، فهناك قوانين في الزيّ ، وقوانين فـــي التعطّر ، وقوانين في الشراب، وما هو ظرف في الرجال لا في النساء، وما هــو ظرف في النساء لا في الرجال، ولم تكن قصور الخلفـــاء والأمــراء والــوزراء والأغنياء تعجّ بالقيان والجواري في العراق فحسب ، بل كانت الشام التي آلت إلى آل حمدان وعلى رأسهم سيف الدولة كانوا مترفين ممعنين في الترف، فقــصور سيف الدولة ملأى بالجواري الروميات اللاتي وقعن في أسره في معاركـــه التـــي خاضها مع الروم[٣].

---

(١) الأغاني ج١٣/١٣٧ وما بعدها، وانظر: ضحى الإسلام ج١/٨٠
(٢) الجاحظ : رسالة القيان ص ٧٢ ،وانظر: ضحى الإسلام ج١/٨٠
(٣) ظهر الإسلام ج١/٨٣.

وأما مصر فقد بلغت في العهد الطولوني مبلغاً عظيماً من الترف والنعيم، وأكثر ما يوضح هذا الترف زواج قطر الندى بنت خمارويه التي خطبها الخليفة العباسي المعتضد بالله في بغداد ، فتفنَّن خمارويه في جهازها، وأنفق عليها من خزائن الدولة ما حملته معها من مصر إلى بغداد ما جعل حالة مصر المالية تتضعضع ، فقد كان من بين هذا الجهاز دكة تتألف من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبّك ،في كل عين من التشبيك قرط معلّق فيه حبّة من جوهر لا يعرف لها قيمة ، وكان في الجهاز مائة هاون من ذهب، وقد عمل حساب نفقات الجهاز فكانت دفعة من نفقاته أربعمائة ألف دينار، وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد، والشقة بينهما بعيدة، فأمر خمارويه بان يبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصراً تنزل فيه قطر الندى ، وكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا أتمت مرحلة وجدت قصراً قد فرش ،وأعدّ بكلّ أنواع المعدات ، فكأنها في هذه الرحلة الطويلة في قصر أبيها حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ .(١)

لقد كان لكثرة الرقيق في العراق أن امتلأت قصور الخلفاء وبيوت الأمراء والوزراء والكبراء بهم،وكان لهذا كلّه اثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الرقيق ، واختلطت الدماء العربية بغيرها من الدماء، حتى الخلفاء أنفسهم كان الكثيرون منهم أبناء جوارٍ ، فالخلفاء العباسيون كلهم أبناء جوارٍ ما عدا السفاح والمهدي والأمين ، ولم يلِ الخلافة من بني أمية في الأندلس من كانت أمّه حرّة أصلاً، وكثر تعليم الجواري الغناء، واتخذ اصحابهن لهن بيوتاً معدّة للسماع في الأحياء المختلفة، وكثرت هذه البيوت في بغداد في العصر العباسي حتى قال أبو حيّأن التوحيدي: " وقد احصينا - ونحن جماعة في الكرخ - أربعمائة وستين جارية في جانبي بغداد ،ومائة وعشرين حرّة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة - هذا سوى من كنّأ لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه ورقبائه ،وسوى ما كنّا نسمعه

---

(١) ظهر الإسلام ج ٨٤/١ .

ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، أن خلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه(٢).

وهذه الأماكن التي اتخذها أصحاب القيان المغنيات للسماع كانت عامة يغشاها الناس،ولم يتحرج منها أحد، حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية كانوا يحضرون ويسمعون، فابن فهم الصوفي يسمع مغنية اسمها " نهاية "جارية ابن المغني ، وابن غيلان التاجر يسمع غناء "بلّور "جارية ابن الزيدي ، وأبو الحسن الجراحي يسمع غناء"شعلة"وأبو سليمان المنطقي الفيلسوف الكبير وشيخ أبي حيّأن يسمع غناء صبيّ موصلي فتن الناس في عصره.

على أن هذه المحال التي كانت تغنّي فيها القيان ويرتادها صنوف متنوعة من الناس، كان بعضها متهتكاً يرتاده السفلة والمعربدون الذين لا همّ لهم إلا إشباع لذائذهم من المحرمات،وبعضها الآخر كان على شيء من التحفظّ يرتاده العلماء والقضاة والصوفية، ولم يكن الغناء الذي تشدو به هذه المغنيات باللغة العامية، إنما كان بالشعر العربي السهل القريب المعنى السائغ والخفيف الوزن، فقد روي أنّ "قِنوة البصرية "كانت تغنّي:

يا ليتني أحيا بقربهمو   فإذا فقدتهم انقضى عمري

وسندس تغنّي : مجلس صبيّن عميدين   ليسا من الحبّ بخلوين

قد صيّرا روحيهما واحداً   واقتسماه بين جسمين

تنازعا كأساً على لذّة   قد مزجاها بين دمعين

الكأس لا تحسن إلاّ إذا   أدرتها بين محبيّن

ودرّة تغني : لست أنسى تلك الزيارة لماّ   طرقتنا وأقبلت تتثنىّ

طرقت ظبية الرصافة ليلاً   فهي أحلى من حسّ عوداً وغنّى

كم ليالٍ بتنا نلذّ ونلهو   ونسقّي شرابنا ونغنيّ

---

(٢) الامتاع والمؤانسة ج١٨٣/٢ وانظر : ظهر الإسلام ج٩٤/١.

هجرتنا فما إليها سبيـــــــل غير أناّ نقول : كانت
وكنّـــــــا

وإذا بلغت "كانت وكنّا "زلزلت الأرض ، فرأيت الجيب مشقوقاً، والــدمع منهملاً ، ومكتوم السرّ بادياً ، وعلوة تغنيّ بدرب السّلق ببغداد.

بالورد في وجنتيك !من لطمك	ومن سقاك المرام ، لِمْ ظلمــك؟
خلاّك لا تستفيق من سكـــــرٍ	توسع شتماً وجفوة خدمَــــك
معقرب الصدغ ! قد ثملت فما	يمنع من لثم عاشقيــك فمَــك
أظلّ من حيرة ومن دَهــــش	أقول لما رأيــت مبتسمـــــك
بالله يا أقحــوان مضحكــــه	على قضيب العقيق من نظمــك؟

وروعة جارية ابن الرضى تغني في الرصافة:

وحقّ محل ذكرك من لسانـــي	وقلبي حين أخلوا بالأمانــــي
لقد أصبحت أغبط كل عيـــنٍ	تعانيها فتسعد بالعيــــــــان[1]

والناظر في هذا الشعر الذي كانت تغنّيه القيان المغنيــات فــي حفلاتهــن الغنائية في دور القيّانين يراه شعراً سهلاً في ألفاظه قريباً إلى الفهم في معانيــه إلى أذهان جمهوره، وهي معان تدور حول العشق والغرام ولهجــر والوصـــال ، ووصف الحبائب واللقاء بهن ،وما يدور بين العاشقين من توجع وتأوهات ولـــثم وشمّ وقبل ،في حين جمهور هؤلاء المغنيات يسمعهن وهن يتأوّدن مرددات هــذه الأشعار المغنّاة يستفزّهم الطرب استفزازاً شديداً وصاخباً فمنهم كما رآه أبو حيّان التوحيدي يشقّ ثيابه، ومنهم من يضرب بنفسه الأرض ، ومــنهم مــن يحملــق عينيه، ومنهم من يستغيث ،ومنهم من يحوقل[1].

---

[1] الإمتاع والمؤاانسة ج١٨٣/٢ .
[1] الامتاع والمؤانسة ج١٨٣/٢ .

وإذا كان معنى القينة الأمة المغنيّة التي تتخذ الغناء صناعة لها، لان الغناء من عمل الإماء دون الحرائر [٢]، فان بعض هؤلاء القيان كنّ يتاجرن بالعشق والغناء، فيوقعن في أحبالهن الشبّان الموسرين حتى يستنزفن أموالهم ،ثم يلفظنهم، وقد وصف احدهم هذه الحالة أدقّ وصف فقال: " إنّ القينة منهنّ إذا رأت في مجلس فتىً له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال، مالت إليه لتخدعه... ومنحته نظرها ، وأشارت إليه بكفّها ، وغمزته بطرفها، وغنّت على كاساته، ومالت إلى مرضاته ،حتى توقع المسكين في حبالها ،وتحويه بلطف تملّقها ،وتستعين بالمكر والخداع ، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها، وتبعث إليه بخاتمها ،وخصلة من شعرها،وكتاب قد نمّقته بظرفها،ونقطت عليه قطرات من دمعها وختمته بالغالية والعنبر... حتى إذا حوت عقله،وسلبت قلبه ، أخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي،وشكت من غير ألم لتتوالى عليها هداياه، حتى إذا نفد اليسار، وتلف المال ، وأحسّت بالإفلاس ، أظهرت الملل ، وأعلنت البدل، وتبرّمت بكلامه ، وضجرت بسلامه، وأخذت في الجفاء والعتاب، وصرفت عنها هواه ،ومالت إلى سواه" وقد قال أحد الشعراء يصف هذه الحالة:

صحوت فأبصرت الغواية من رشدي ... وأيقنت أني كنت جرت عن القصد

فلا يعشقْن من كان يعشق قينةً ... فما هو منها في سعيد ولا سعد

تؤدّك ما دامت هداياك جمّة ... وترفدك عشقاً ما بقيت أخارفد

إذا ما رأت في مجلس من تخاله ... غنيّاً حبته بالتحية والودّ

فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد ما يعيد ولا يبدي

فتفصَد لا مِنْ حاجة لفصادها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصد

فمن بين خلخال يصاغ وخاتم ... ومن دملج يهدي على اثر العقد

فذا فعلها حتى إذا عاد مفلساً ... تجنّت وأبدت جانب الهجر والصدّ

فقولا لمن يهوى القيان تفهّموا ... مقالي فإني قد نصحت لكم جهدي [٣]

---

(٢) لسان العرب مادة قيّنَ

(٣) الموشيّ ص ٩٣ وما بعدها باختصار ،وانظر : ظهر الإسلام ج١/٩٦.

وقد نشأ عن هذه العلاقات المنحطة بالقيان ، والأساليب الخسيسة الملتوية التي ينهجها بعضهن ؛ أن نشأ جدال بين الشباب: أيهما خير: عشق القيان أو عشق الحرائر؟ فيقول احد الظرفاء:

ليس عشق الإماء من شكل مثلي إنما يعشق الإماءَ العبيـد
صل إذا ما وصلت حرّة قـوم قد حماها آباؤها والجدود

ويقول غيره : عليك بالقيان، فان لهنّ فطناً ليست لكثير من النساء .

وقد فرض هذا الاتجاه إلى القيان والإماء نفسه على المجتمع، الأمر الذي جعل بعض المشتغلين بالعلم أن يؤلف فيهن الكتب ،وقد ذكر الأستاذ احمد أمين في كتابه ظهر الإسلام أن ابن بطلان ألّف كتاباً في تجارة الرقيق [1]،وتبعه غيره، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس ، وما يمتزن به ، وما يعاب عليهن ، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها، ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية، وحيل النخاسين ، وكيف يسترون العيوب.

وإذا كانت صرعات الموضة تستهدف النساء، فتجري لهن المسابقات في الجمال ، واستعراض أجسامهن ؛ فان جهابذة النقد الجمالي أيام زمان، كانوا هم الخبراء في الجمال يقول أبو الفرج : أكثر البصراء بجواهر النساء هم جهابذة النقد يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والممشوقة، ولا بدّ أن تكون كاسية العظام... وتكلموا في الألوان وحسنها، وقال أبو الفرج في معرض حديثه عن الألوان في كتابه النساء: يمازج البياض لونان يزيدانه حسناً، الحمرة والصفرة ؛ فأما الحمرة فتعتري البياض من رقة اللون وصحة الدّم، وأما الصفرة فتعتري البيض لاستتارهن وملازمتهن الكنّ والنعمة والخفض والدعة، وتعتريهن أيضاً لملازمتهن التضمّخ بالطيب... ويقال أن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن؛ فان لونها يكون أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى الصفرة، كما أفاض المشتغلون بالتاليف

---

[1] عنوان الكتاب : رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد لان بطلان الرقيق النصراني الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري،وانظر : ظهر الإسلام ج٩٧/١

عن القيان في ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء ،والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد ، والنحور والصدور والثدي، واختلاف الأذواق في كبرها أو صغرها، والخصور والسوق والأقدام، ومزجوا ما قيل في كل ذلك من التعبير الدقيق في اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد.

كما تفننوا في دقة الفروق بين المغنيات، وفلسفة الغناء ،"فعلوة " أحسن ما تكون إذا رفعت عقيرتها ، "ونهاية " إذا اندفعت في شدوها ، و "بلّور " إذا رجّعت ،و" قلم " إذا تناوأت في استهلالها ، وتضاجرت على ضجرتها،وتذكرت شجوها الذي قد أضناها ، وأنضاها، و" سندس " إذا تشاجت وتدللت وتفتّلت وتقتّلت وتكسَّرت ،وتقلسفوا في الغناء فقالوا : هل الغناء لذّة الحسّ أو لذّة العقل ،ولِمَ يكون الغناء ألذّ وأطيب إذا سند المغني آخر وهكذا[1]، على أن الرقيق لم يكن عملهن الغناء وحسب ، فمنهن من كان يعمل في محالّ الغناء العامة، ومنهن أمهات الأولاد ،وملك اليمين ، وقد تغلغلن في بيوت الخلفاء والأمراء والوزراء والأغنياء وأوساط الناس، ومنهن من يقمن في البيوت للخدمة، وقد يبلغن منزلة كريمة عند مواليهن.

وإذا كان للجواري من اثر في الأدب ،وفضلٍ عليه ؛ فان هذا الأثر يبدو في جانبين:

الأول : ما تثيره هذه الجارية بوصفها امرأة في نفوس الشعراء من عاطفة قوية تجيش لها صدورهم ،فيقولون فيها شعراً عذباً رقيقاً يترجمون فيه عن بوح مشاعرهم.

والثاني: أن المرأة قد تكون شاعرة فتترجم عن ذات نفسها بشعر أخّاذ، تكون فيه أقدر من الرجل غير أنها تشاركه فيه، ولا أدلّ على ذلك مما يرويه علي بن الجهم عن المتوكل على الله وجاريته "قبيحة " إذ قال المتوكل : يا عليّ ! قلت

---

[1] الامتاع والمؤانسة = ٨٢/٢ وما بعدها.

لبيّك يا أمير المؤمنين قال : دخلت الساعة إلى قبيحة، وقد كتبت على خدّها بالمسك اسمي، فوالله ما رأيت سواداً في بياض أحسن منه في ذلك الخدّ،فقل فيه شعراً ، فقلت : يا أمير المؤمنين " أمظلومة معي؟ قال : نعم ، ومظلومــة خلــف الستارة ، فدعت بدواة وبدرت بالقول ، فقالت:

وكاتبة بالمسك في الخدّ جعفــــراً   بنفسي مخطّ المسك من حيـــث أثّــرا

لئن أودعت سطراً من المسك خدّها   لقد أودعت قلبي من الحبّ أسطـــــرا

فيامن لمملوك تمـــلك مالكــــاً   مطيعاً له فيما أســـرّ وأظهــــــرا

ويامن مناها في السرائر جعفـــر   سقى الله من صوب الغمامة جعفـــرا

قال علي بن الجهم: وأفحمت فلم انطق ، وتغلّبت على خواطري فما قــدرت على حرف أقوله ، فضحك أمير المؤمنين[١] ،ويبدو أن الجواري كنّ أنشط ، بمــا اتيح لهن من أسباب التثقيف من الحرائر في الجانبين السابقين ، ويرجع الــسبب في ذلك إلى طبيعة العلاقة مع المرأة الحرّة ومع المرأة الأمة ، فقد كان الناس كما روى الجاحظ يغارون على الحرائر أكثر من غيرتهم علـــى الجـــواري والقيـــان، ويحجبون الحرّة ويشدّدون في تحجيبها، وإذا أراد احدهم أن يتزوجها بعث بخاطبة تنظر إليها ، وتصف للخاطب محاسنها وعيوبها، أما الخاطب فلا يراهـــا إلا بعـــد الزواج، ولكن الجارية لها شأن غير ذلك، فهو لا يعيّر بها كما يعيّر بالحرّة، ثم أن الجارية سافرة غير متحجبة ، بحكم أنها في كل وقت معرّضة للبيـــع والـــشراء، تماماً كالسلعة المعروضة ،وهي في الوقت نفسه ، تقضي للرجـــل حوائجـــه ،وإذا أراد احد أن يستمع لغناء أو يلهو بالقينات في بيوت القيّانين ، فهنّ اللائي يغذين ميله إلى السماع، ورغبته في اللهو، بما يملكن من قدرات ومواهب وفنون بحكم تدريبهن وتثقيفهن ، ولكونهن سافرات غير محجبّات ، يقع عليهن نظـــر النـــاس شعراء وغير شعراء، أما الحرائر فإنهنّ مصونات في بيوتهن فلا يقع عليهن نظر ا حد إلاّ المحارم من أقاربهن ، لذلك كان طبيعياً – كما يقول الأستاذ احمد أمين [٢]

---

[١] العقد الفريد ج ١٠٨/٨

[٢] انظر ضحى الإسلام ج٨٢/١

– أن الأدباء والشعراء يغذّون أدبهم وشعرهم بالجواري أكثر مما يغذّونه بالحرائر، ومن ناحية أخرى فان الجواري كنّ موضع اعتناء من قبل التجّار فيعلمونهن فنون الآداب ، وضروب الفنون أكثر من الحرائر، وذلك لان علم الجارية وأدبها كان يقوّم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوّم بدنها ،وان الواحدة منهن إذا قوّمت بمائتي دينار من غير تعليم ؛ قوّمت بأضعاف مضاعفة مغنية أو شاعرة ، أما الحرائر فلم يكن يعني بتعليمهن إلا فئة قليلة في المجتمع ، وهي طبقة الإشراف ومن في حكمهم،وقليل ما هم . وهناك سبب آخر يراه الأستاذ احمد أمين ونشاركه الرأي وهو أن الجواري في نظر الناس ملهى للرجال آنذاك بحكم غلبتهن علا السواد الأعظم من النساء، فحاول القائمون على أمورهن أن يرقوا بمستوى الخدمات التي يتطلبها اللاهون في هذه الملاهي، ومن جملة هذه الخدمات وعلى رأسها أن تكون الجارية مغنية وأديبة وموسيقية وشاعرة، فان ذلك افعل في قلوب الروّاد ، أما الحرائر فقد انصرفن ولاسيما المتعلمات منهن إلى الاشتغال بالحديث وببعض العلوم والتصوّف ، وكان الدافع إلى ذلك دينياً بحتاً.

زينة الحرائر وزينة القيان

لزوجات الخلفاء والأمراء والسلاطين وكبار التجار أسلوب خاص في التزيّن يليق بمقامهن كحرائر، ويأنفن من خلاله أن يكون تقليداً للجواري والقيان اللاتي كان همّهن عرض مفاتنهن وإبراز ما يرينه جميلاً في أجسادهن ، وإخفاء العيوب التي ينفر منها عشّاق اللذائذ والمتهافتون على موائد السمع والطرب، ولم تكن نساء الكبراء في سجن مركزي يحول بينهن وبين ملاحظة الجواري والقيان وهن يتبرجن تبرّج الجاهلية الأولى وأشدّ والاتصال بهن ، فكان لا بدّ أن يتولد بين هؤلاء الحرائر وهاتيك القيان نوع من الغيرة ، تدفع الحرائر المتصونات إلى استخدام وسائل زينة للظهور بمظهر لائق يكبح جماح شهوة الأزواج فلا يتطلعون إلى الجواري، فالزينة والمرأة صنوان ، لكن هذه الموجة العارمة من الزينة التي

أحدثتها الجواري والقيان لم تمنع المرأة الحرّة العفيفة أن تأخذ بشيء منهـا يليق بكرامتها واعتزازها بأصالتها العربية، فتترفع عن مستوى بعض أشكال الزينة المستباحة التي كانت تظهر بها الجواري من مثل الكتابة على العصائب والوجه والجباه وراحات الأيدي والأقدام ، وأطراف الثياب، وفي معظم الأحيان كانت الكتابة أبيات من الشعر الغزلي الذي يفجرّ الشهوة،ويثير الغريزة الجنسية لدى الناظر إليهن ، أو عبارات رقيقة وأسماء المحبين وكان الهدف من وراء ذلك لفت الأنظار واصطياد المحبين وما إلى ذلك. واليك هذه الأنماط من الكتابات .

قال أبو الحسن: دخلت على هارون الرشيد،وعلى رأسه جوارٍ كالتماثيل، فرأيت عصابة منظمة بالدرّ والياقوت مكتوباً عليها بصفائح الذهب:

ظلمتني في الحبّ يا ظالم   والله ما في بيننا حاكم

قال : ورأيت في عصابة أخرى :

مالي رميت فلم تصبْك سهامي   ورميتني فأصبتني يا رامي

قال :ورأيت على أخرى :وضع الخدّ للهوى عزٌّ

قال : ورأيت في صدر أخرى هلالاً مكتوباً عليه :

أفلتّ من حور الجنان   وخلقت فتنة من يراني

قال اسحق بن إبراهيم الموصلي :دخلت على الأمين محمد بن زبيدة وعلى رأسه وصائف، وفي عصابة إحداهن :

ألا بالله قولوا يا رجال   أشمس في العصابة أم هلال

وفي أخرى : أتهوون الحياة بلا جنونٍ   فكفّوا عن ملاحظة العيون

وكتبت "ورد "جارية الماهاني على عصابتها ، وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها:

تمت وتمّ الحسن في وجهها   فكلّ شيء ما سواها محال

للناس في الشهر هلال ولي   في وجهها في كل يوم هلال

وكتب في عصابتها بيتين من شعر الحسن بن هانئ" أبي نواس" وهما:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعــلا عليك عقلي فإنّ السَّهم قد قتــلا

أجريته في مجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

وقال علي بن الجهم: خرجت علينا " عالج " جارية خالصة ، كأنها خــوط بان، وهي تميس في رقّة، وعلى طرّتها مكتوب بالغالية، وكانت من مجّــان أهــل بغداد مع علمها بالغناء:

يا هلالاً من القصور تجلّــــى صام طرفي لمقلتيْك وصلّى

لست ادري ليلـــــــي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى

لو تفرّغت لاستطالة ليلـــــي ولرعي النجوم كنت محِــلاّ

قال : وخرجت علينا " منال " وعليها درع خام،على جانبه الأيمن مكتوب:

كتب الطرف في فؤادي كتاباً هو بالشوق والهوى مختوم

وعلى الأيسر مكتوب:

كان طرفي على فؤادي بــلاء إن طرفي على فؤادي مشوم

قال :وحدثني الحسن بن وهب،قال : كتبت " شعب " على قلنسوة جاريتها " شكل " :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبّــه إلاّ حسبتك ذلك المحبوبـــــا

حذراً عليك وإنني بــك واثق ألا ينال سوايّ منك نصبـــــا

وكتبت عنان جارية الناطفي على عصابتها:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت فاغرب بعينيك يا مغرور عن عيني

فان لي سيف لحظ لست أغمـــدة من صنعة الله لا من صنعة القيــن

وكتبت "حدائق " في كفّها بالحناء:

ليس حسن الخضاب زيّن كفـــيّ   حسن كفّي زينٌ لكل خضــــــاب

قال : وخرجت علينا جارية حمدان،وقد تقلدت سيفاً محلّى، وعلى رأسها قلنـــسوة مكتوب عليها: تأمّل حسن جارية يحار بوصفها البصــر

مذكرّة مؤنّثة فهي أنثى وَهي ذكــــــر

وعلى حمائل سيفها مكتوب بالذهب:

لم يكفه سيف بعينيــــــه	يقتل من شاء بحدّيــــــــه
حتى تردّى مرهفاً صارمــــاً	فكيف أبقى بين سيفيـــــــهِ
فلو تراه لابساً درعــــــه	يخطر فيها بين صفّيْـــــــه
علمت أن السيف من طرفــه	أقتل من سيف بكفيْـــــــهِ

وكتبت واجد على منطقة جاريتها منصف الكوفية:

تكّتي من غمزة العيـــــــن	إذا ما مســـــت تنحـــــلّ
وفــــؤادي رقّ حتـــــــى	كاد من صدري ينســـــــلّ
بعض ما بـــــي يصدع القلــب	فما ظنـــــــك بالكـــــــلّ[1]

وقد كانت المرأة العباسية تتزين بطلاء جسدها بـــالورس حتـــى تـــصير صفراء، فقد كتب الجاحظ في هذا المعنى نقلاً عن الأصمعي حين كـــان يتحـــدث الرشيد عن احد أصحابه الذي كان ناحل البدن كاسف البال، فسأله الأصمعي عـــن تغيّره ،فقال: قصدت بعض القرابة فألفيـــت عنـــدهم جاريـــة قـــد طلـــت بـــدنها بالورس،وقد بلغ من عزّة المرأة العربية أنها تأنف من التـــشبّه بـــالجواري فـــي

---

(1) انظر : العقد الفريد ج٨ / ١٢٨ – ١٣١ .

بعض أحوال تسريح شعرها، فها هي (ريطة بنت العبّاس بن علي) زوجة المتوكل فضّلت أن "تطم" شعرها على ألاّ تتشبّه بالجواري حينما طلب إليها المتوكل أن تفعل ذلك.

ب- المرأة وعلاقتها بشعراء العصر العباسي وأثر ذلك في الأدب

اختلفت علاقة الشعراء في نظرتهم إلى محبوباتهم ما بين نظرة عفيفة مهذبة يبث فيها الشاعر محبوبته لو أعج قلبه وخوافي مشاعره بصدق وانفعال،وبين نظرة تتعلق باللذة الحسية البعيدة عن الطهر والعفة، فكأن النظرة الأولى كانت تنساب في تيار الغزل العذري العفيف، والثانية كانت تتعلق بالغزل الصريح،وهو الغالب على الشعراء، بسبب كثرة الإماء والجواري ودور النخاسين التي كانت تزخر بالجواري من كل جنس، فأشاعت هذه الجواري في جو بغداد كل ضروب التحلل والانفلات، وكانت بضاعة المغنيات من هؤلاء الجواري شعر الغزل موقّعاً على الأنغام ، فسعَّرن قلوب الشعراء، وثورّن مكامن العفّة في نفوسهم، فاخذوا يعبّرون عن أحاسيسهم تعبيراً حرّاً صريحاً بعيداً عن الحياء، ويمثّل الاتجاه الأول في العفة والحياء عبّاس بن الأحنف ، ويمثّل الاتجاه الثاني بشّار بن برد، وظل التياران متجاورين.

ويرى د. شوقي ضيف: أن الغزّالين الماديين يستمدّون معانيهم من مخازن الغزل العذري لغناه بالمعاني التي تصورّ لوعات الحب وعذابه[1].

ومن شعراء الغزل العذريّ إبراهيم بن المدبّر الذي تولّى ولايات كثيرة منها ولاية البصرة، ورأس بعض الدواوين التي كان يعمل بها منذ زمن المتوكل،

---

[1] العصر العباسي الثاني ص ٤٤٤

وكان يهوى جارية اسمها عرّيب ولهما أخبار كثيرة ساقها أبو الفــرج فــي ترجمته لكلّ منهما[٢] ومن قوله فيها:

زعموا أني أحبّ عَريبـــا صدقوا والله حبّــاً عجيبا

حلّ من قلبي هواها محــلاً لم تدع فيه لخلق نصيبـــا

هي شمس والنساء نجــوم فإذا لاحت أفلن غيوبـــا

وهو في هذه الابيات يصرّح بأنه لا يشركه معها جارية في حبّه وهيامه، غير أن هذا الكاتب شرك مع عريب حبيبة واحدة أخرى اسمها "نبت" كانت مــن الجواري القيان وفيها يقول:

نبتٌ إذا سكتت كان السكوت لها زيناً وإن نطقت فالدّر ينتشــر

وإنما أقصدت قلبي بمقلتهـــا ما كان سهم ولا قوس ولا وتر[٣]

ومن شعراء الغزل العذريّ الذي أسندت إليه رئاسة ديوان الإنــشاء فــي عهد المستعين سعيد بن حميد، واشتهر بتبادله الحبّ مع فضل الشاعرة، وبينهما محاورات شعرية ومن هؤلاء الشعراء عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد، علق قلبه بحب قينة تسمى"شاجي" وهام بها وشملها بحبّه وعطفه وكلف بها كلفاً شديداً قبل زواجه بها وبعد زواجه، وإلى ذلك يشير:

زرعتْ وشاجي بيننا في شبيبتي غراس الهوى فاعتمَّ بالثمر العذب

وماتت قبله، فظل يبكيها بكاءً مرّاً ، جازعاً عليها جزعاً لم ير مثله، وظل يزور قبرها وهو ينوح عليها ويتفجع بمثل قوله:

يميناً بأني لو بليت بفقدهـــا وبي نبض عرق للحياة وللنكس

لأوشكت قتل النفس عند فراقها ولكنها ماتت وقد ذهبت نفســي[١]

---

[٢] الأغاني ج ١٢٤/١٩

[٣] الأغاني ج ١١٧/١٩

[١] الأغاني ٤٣/٨

وكثير من الجواري كنّ ينظمن الشعر ويحسنَّ نظمه، وكــنّ يكتــبن أبياتاً منه على طررّهن وعصائبهن وجوانب ثيابهن، فيوقدن الحــبّ فــي قلــوب الرجال ويشعلنه إشعالاً.

وقد ذكر ابن المعتز في كتابه طبقات الشعراء المحدثين بعضاً منهن مثل : فضل والخنساء جارية هشام المكفوف، ومحبوبة جارية المتوكل، وكانت قد أدّبت وثقِّفت، وتمرنت على قول الشعر حتى أحسنته، وكانت تلحّنه وتغنّــي بــه علــى العود، وكانت تحلّ من قلب المتوكل محلاً رفيعاً... وقالت شعراً فيه تصوّر لوعتها من خصامه ومغاضبته وأنها لا تصبر عن لقائه فقالت:

أدور في القصر لا أرى أحداً	أشكو إليــــه ولا يكلّمنــــــي
حتى كأني أتيت معصيـــــةً	ليس لها توبـــــةٌ تخلّصنــــي
فَمن شفيعٌ لنا إلى ملَـــــك	قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباح عادلنـــا	عاد إلى هجره وقاطعنــــــي

فصفّق المتوكل طرباً، ودخل إليها وتصالحا[٢].

لقد كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال مفتوحة ودائمة ،ولا يمنع من دخولها احد ، وكان الشعراء كغيرهم يغشون هذه الدور ، ويترددون عليهــا ، وهم بطبيعة شاعريتهم أكثر الناس إحساساً بالجمال،وأكثرهم تــذوّقاً ، وأشــدّهم انفعالاً به، فالجواري يغازلنهم ، ويستملن قلوبهم ، وهم لا يقصرون في اصطناع الأساليب التي يستميلون بها قلوبهن ، وكثيراً ما كان احدهم يقع في حبّ جاريــة ما ولا يستطيع أن يتخلص من هذا الحبّ لدرجة أن بعضهم كان يرى أن العــيش الهانئ لا يكون إلاّ مع القيان والإتجار بهنّ ، فأبو دلامة يقول :

إن كنت تبغى العيش حلواً ناعماً	فالشعر أعذبه وكن نخّاســـا
تنل الطرائف من ظراف نهّـــد	يحدثن كل عشية أعراســـــا

---

[٢] مروج الذهب ج ٤٢/٤

وهذه الأعراس التي ربطها أبو دلامة بالقيان والجواري ظلت قائمة طوال العصر، على رأي د. شوقي ضيف، وظل الشعراء يختلفون إليهن بصورة مستمرة ،وكنّ أحياناً يزرنهم في دورهم ، ويبتن عندهم وقد يحدث أن ينسج الشاعر خيوط علاقة مع إحدى الجواري، فيشتريها احد الكبار كالخليفة أو أمير من الأمراء أو وزير من الوزراء أو قائد مشهور ،فيظل قلب الشاعر معلقاً بها وتظل تملك عليه كل شيء من أمره ، على نحو ما رأينا " عتبه " إحدى جواري المهدي وعلاقة أبي العتاهية بها ،وجنان جارية الثقفيين تملكت قلب أبي نواس،وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر تملكت قلب العبّاس بن الأحنف، أما أبو العتاهية فقد تعلّق بجارية من جواري زوجة المهدي ريطة بنت السفّاح ، وهي عتبة وكانت تزدريه كما ازدرته سعدى من قبل ،ومضى لا يكفّ عن غزله بها ولا يرعوي، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه، فحدّثت المهدي بشأنه،فغضب لتعرّضه لحرمه وجواري قصره، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري أن شفع له لدى المهدي ، فعفا عنه وردّ إليه حريته[1]، يقول أبو العتاهية في عتبة:

كأنها من حسنها درّة ... أخرجها اليمّ إلى الساحلِ
كأنّ في فيها وفي طرفها ... سواحراً أقبلن من بابلِ
لم يبق منيّ حبّها ما خلا ... حشاشة في بدن ناحلِ
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى ... من شدّة الوجد على القاتل[2]

فأبو العتاهية يتظلم من صاحبته التي لا ترحمه، ولا تنيله لا كثيراً ولا قليلاً، وأن حبّها أسقمه وأضناه، وانه يبكي من شدّة وجده بها لدرجة انه يشعر بالموت لشدّ' ما به من صبابة، أما أبو نواس فان صاحبته جنان،يموت احد أقارب

(1) نفسه ج ٤/٤٥ وانظر : العصر العباسي الأول ص ٢٣٩ .
(2) طبقات ابن المعتز ص ٢٣٠.

مواليها الثقفيين ، فيتحايل كي يراها وهي تلطم في المــأتم ، ليقــول هــذه الأبيات البارعة المشهورة [١]:

يا قمراً أبــرزه مأتـــــمٌ ... يندب شجواً بين أتــــراب
يبكي فيذري الدرّ من نرجس ... ويلطم الورد بعنّـــــاب
لا تبك ميتاً حلّ في حفـــرة ... وابك قتيلاً لك بالبـــــاب
أبرزه المأتم لي كارهـــــاً ... برغم دايات وحجّـــــاب
لا زال موتاً دأب أحبابـــه ... ولم تزل رؤيته دابـــــي

وكان سفيان بن عيينة المحدّث كثير السماع لشعر أبــي نــواس، يــسمع الأبيات فتنال إعجابه ويقول : إن أبا نواس أشعر الناس فــي هــذه القــصيدة[٢]، وفرق كبير بين اشعر الناس واعشق الناس ، أما العباس بن الأحنف فقــد تعلّــق قبله بفوز،وكان من الصبابة والعشق بحيث ملك عليه مجامع قلبه ،فهو يتــرجح بين اليأس والرجاء، والسخط والرضى ، والقنوط والأمل ، وانه في كــل خطــرة نفس وخفقة قلب ينزع إلى الشعر يفضي إليه بذات نفسه، ويشكو إليــه عــصيّ وصله، انه وقد امتدت أسباب الصدود، وانقطعت حبال الرجاء يعمد إلى هذا القول الرقيق معنى ومبنى وقافية وإيقاعاً[٣]:

بكيت من طرب عند السماع كمـــا ... يبكي اخو غصص من حسن تذكير
وصاحب العشق يبكي عند سكرتـــه ... إذا تجاوب صوت البمّ والزيــــر
يا "فوز" يفديك خلق الله كلهــــم ... طوعاً وكرهاً على صغر وتصغيــر
يا "فوز"لولاك لم أنفكّ من طــرب ... آوي إلى آنسات كالدّمى حــــور
يا "فوز" أهلك لاموني فقلت لهــم ... أدّوا فؤادي أدعكم غير مزجــــور
يا أهل "فوز" أما لي عندكم فــرج؟ ... ويلي ولا راحة من طول تعزيــري
يا أهل "فوز" ادفنوني بين دوركم ... نفسي الفداء لتلك الــدور من دور

---

[١] ديوان أبي نواس ص ٢٤٢ .
[٢] ديوان أبي نواس ص ٢٦٣
[٣] ديوان عباس بن الأحنف ص ١١٤ ، وانظر : الشعر والشعراء ص ٣٥٩

لقد أحب هذا الشاعر صاحبته فوزاً حباً يسلكه في عقد العذريين الذين ألفناهم في القرن الأول الهجري قولاً ومعنىً ورقّة وإحساساً وإبداعاً، بحيث إن المرء لو لم يكن يعرف أن للعباس صاحبات أخريات ، لما جال بخاطره إلاّ انه واحد من رواد الموحدين في محراب الحبّ، وسلطان في قافلة العاشقين[1]، وعبّاس يتسع قبله لأكثر من حبيبة ، فصاحبته "ظلوم" هي الحبيبة الثانية التي أوحت إليه الجزء الثاني من شعره، وهذا أمر مستهجن بين العشّاق المعاميد الذين وقفوا في حبّهم على حبيبة واحدة، أما عبّاس بن الأحنف فقد عشق أكثر من حسناء،ومحّض كل واحدة من حبيباته كل الحبّ والطهر والإخلاص والعفة والعذرية ،ندر أن يصل إليها شاعر في عصره ، بل لو وزّع على العاشقين أجمعين لوسعهم إفصاحاً وتعبيراً فماذا قال في ظلوم؟

نظر العيون إلى ظلومَ نعيم	إن السرور يقيم حيث تقيم
وأرى النساء يلمنني في أمرها	أبغض إليّ بمن أراه يلوم
ما قوّمتك ملوك أرضٍ قيمة	إلاّ ارتفعت وقصّر التقويم
وجهٌ يكلّ الطرف عنه إذا بدا	هو بالعفاف وبالتقى موسوم
يحسدن وجهك يا ظلوم إذا بدا	هيهات ! مالك في الجمال قسيم
وغبطت نفسي إذ رأيتك مرةً	من لا يراك فإنه محروم[2]

إن صاحبته في نظره امرأة عفيفة طاهرة الذيل حسنة المخبر تميزت بالتقى والجمال وأنها في مقام لا يدانيها مقام امرأة من بنات جنسها.

أمّا **بشار بن برد** في علاقته بالمرأة ؛ فقد اتجه اتجاهين اثنين:

أ - اتجاه العذريين الذين حمل لواءهم جميل ،ونهج نهجه قيس ليلى، وقيس لبنى، والصّمة بن عبد الله ،وعبد الله بن الدمينة، وكثيرّ عزة وأضرابهم ،

---

(1) الشعر والشعراء ص ٣٦٤ .
(2) الديوان ص ٢٣٦ .

فجاءت عباراته في غزله ملفعة بنقاء البــداوة وطهرهــا وعفّتهــا ونصاعتها ورقّة نبراتها وجمال إيقاعها وتسلسل معانيها ، مــع محاولــة البوح بعواطفه لتبدو صادقة ،بعيدة عن المجون والدنس والتهتك ،ومــن هذا الوادي قصيدته البائية في صاحبته " عبده " التي خرجت مع زوجهــا من البصرة إلى عمان:

لقد زادني ما تعلمـــين صبابـــة	إليك فللقلب الحزين وجيـــب
وما تّذكرين الدهر إلاّ تهلّلـــت	لعينيّ من شوق إليك غـــروب
أبيت وعيني بالدموع رهينـــة	وأصبح صبّا والفؤاد كئيـــب
إذا نطق القوم الجلوس فإننـــي	أكبّ كأنيّ من هواك غريـــب
يقولون داء القلب جنّ أصابـــه	ودائي غزال في الجمال ربيــبً
إذا شئت هاج الشوق واقتاده الهوى	إليك من الريح الجنوب هبــوب
هوى صاحبي ريح الشمال إذا جرت	وأهوى لقلبي أن تهبّ جنــوب
وما ذاك إلاّ أنها حين تنتهـــي	تناهى وفيها من عبيدة طيــب

" ويمضي بشار في قصيدته هذه الجميلة التي تذكرّنا بطهر الشعر العذري ورونقه حين يضفي أسباباً من التقي على سلوكه، وألواناً من العفّة على حبّه في سؤال وجواب، وتعليق وتحليل، وبث شكوى ،وانتظار أمل وتقرير تمنٍّ في قوله ".[1]

وقائلة : إن مـــتّ في طلـــب الصـــبِّا	فلا بدّ أن تحصى عليك ذنـــوب
فرمْ توبة قبل الممـــات فإننـــي	أخاف عليك الله حين تـــؤوب
فقلت لها : لم أجن فـــي الحب بيننا	أثاماً على نفسٍ فممّ أتـــوب؟
أرانا قريباً في الجـــوار ونلتقـــي	مراراً ولا نخلو وذاك عجيـــب
ألا ليت شعري هـــل أزورك مـــرةً	وليس علينا يا " عبيد "رقيـــب

[1] الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ١٦٠ .

فنشفي فؤادينا من الشوق والهوى   فان الذي يشفي المحبّ حبيـــــب[٢]

ب -اتجاه آخر فاسق ما جن متهتك ، متأثر فيه بما يــتلاطم فـــي المجتمـــع العباسي من تهالك بعض الناس على اللذات، وجرأة وما بعدها جرأة على المحصّنات من النساء، فيشكّك من عفّتهن وطهر أذيالهن ويلحّ بالــدعوى إلى الخنا والفحش،وينال من الطاهرات العفيفات من نساء زمانه وزمـــان غيره ويقول:

لا خير في العيش إن كنّا كذا أبدا   لا نلتقي وسبيل الملتقى نهـــــج

قالوا حرام تلاقينا فقلت لهـــــــم   ما في التلاقي ولا في قبلة حرج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   فاز بالطيّبات الفاتك اللهــــــج[٣]

ويمضى بشّار في غيّه ينال من الحرائر ويحرّض طلاب الفجور على عدم الاكتراث بما يسمعونه من هؤلاء النساء من أقوال جارحة وصدود عــنهم، فــانّ عسرهن ميسور، وانه لا عفّة عندهن،إلا في ظاهر الأمر ،يقول:

قاسِ الهموم تنلْ بها نجحــــــا   والليل إنّ وراءه صبحـــــــــا

لا يؤيسنّك من مخبــــــــــّأة   قولٌ تغلّظه وإن جَرحــــــــا

عسر النساء إلى مياســــــرة   والصعب يمكن بعد ما جمحَــا

لقد ضجّ العلماء والشرفاء من هذا الشعر الفاجر،ورفع عقيرته بالاحتجاج والأخذ على يد قائله واصل بن عطاء، ومالك بن دينار وسوار بن عبد الله ويزيــد بن منصور الحميري خال المهدي، فأمر المهدي بان يحــضر بــشّار ،وأمطــره الخليفة بوابل من الشتائم المقذعة تعليقاً على أبياته ، ويقول له : تلك أمــك يـــا كذا... أتحضّ الناس على الفجور وتقذف المحصنات المخبآت ،والله لئن قلت بعد

---

[٢] ديوان بشار ج ١٧٩/١- ١٨٠

[٣] الأغاني ج٣/٢٠٠

هذا بيتاً واحداً في نسيب لآتين على روحك[1]. وبشار هذا عاش في البصرة وهذه المدينة كانت مهوى افئدة الوافدين من الفرس الــذين حملــوا أوزاراً مــن العادات المنحرفة وأحمالاً من العقائد المنحلّة الدنسة التي يأباهــا الإســلام،فألقت بثقلها على هذا المجتمع، وأناخت بعفونتها عليه، فأشاعت فيه التفسّخ، وأهوت به في وديان الضلال والتفسّخ والانحراف والفساد، ويــرى د. الــشكعة أن مدينــة البصرة وريثة الطرب والغناء والشراب الذي كان شائعاً في مكة والمدينة، ثم مــا لبث أن انتقل إليها متخلياً عن سمات الحشمة أو الاحتياط التي كان يوجبها طبيعة السلوك العام في المدينتين الحجازيتين ،فلما صار الأمر إلى البصرة أصبحت بيوت القيان مذبحاً للفضيلة بعد أن كانت محجة للفضلاء في الحجاز عند جميلة وعــزة الميلاء، والبصرة مدينة المواخير ودكاكين الخمر... وفي نساء البــصرة آنــذاك خلاعة وجرأة، يرددن الشعر الخليع ويسمحن لأنفسهن أن يترددن علــى أمــاكن الشبهات، ويخالطن الرجال حتى إن شاعراً مثل بشّار بسمعته وفجوره ولــسانه الخبيث الذي كان يخشاه الرجال، يستقبل العديد من النساء في بيته مــرتين فــي الأسبوع لكي يستمعن إلى شعره...لقد انتشر شعره بين الناس انتشار النار فــي الهشيم، حتى إن أبا الفرج الاصبهاني يقول على لــسان احــد رواتــه: عهــدي بالبصرة وليس فها غزلاً ولا غزلة إلا يروي من شعر بشّار، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به، ولا ذو شرف إلاّ هو يهابه، ويخاف معرّة لسانه،وكان يدسّ في هذا اللون من الشعر السموم التي تدغدغ الغرائز وتتّهم الحرائر، وتحطّم معاني العفة عند المحصنات إلى المدى الذي جعل مالك بن دينار يقول: ما شيء ادعى لأهــل هذه المدينة إلى الفسق من شعر هذا الأعمى[1]. فأضاف بشعره هذا معــولاً مــن معاول الهدم التي ألمت بالمجتمع العباسي من جرّاء وجــود القيــان والمغنيــات وانتشار الزندقة والشعوبية في جنباته تنخره نخر السوس في الشجرة.

---

[1] نفسه ج٣/٢٤ .

[1] بتصرف عن الشعر والشعراء ص ١٣٠ ، وانظر الأغاني ج٣/٢٤٧ ، ١٨٢ .

وإذا كان بشّار بن برد قد ساءت علاقته بالمرأة ،فدعاها إلى الفجور والتجرّد من العفة والطهر فان مسلم بن الوليد كان له موقفان من هذه المــرأة ، موقف تصوّف في علاقته بالمرأة من خلال الحديث عنها عفيفة طاهرة، بعيدة من الدنس ،جرى في حلبة أهل الغزل العذري في عفّته وتصوّنه وطهره، مــن نحــو قوله في صاحبته "سِحْر "قصيدته البائية التي مطلعها [٢]:

كتاب فتىً أخي كلَفٍ طــــروبِ	إلى خود منعمّة لعــــــوبِ
صبوت إليك من حزن وشـــوقٍ	وقد يصبو المحبّ إلى الحبيــب

....

وقائلة أفق من حبّ "سِحْـــــر"	فقلت لها : جهلت ولم تصيبــي
ولو أن الجنوب تجيب عنـــــيّ	لأهديت السلام مع الجنــــوب
أمرتِ بهجرها سفهاً فتوبـــــي	إلى الرحمن مما قلت توبــــي
ألا يا ليتني قاضٍ مطـــــــاع	فأقضي للمحبّ على الحبيـــــبِ

وقصيدته مفعمة بالوله والصبابة والوجد والفتنة والتوبة ، أمــا موقــف مسلم الآخر من المرأة ، فانه يتغزّل بها غزلاً حضرياً يفوح منــه عطــر بغــداد وزينتها، وتبدو في قصيدته لغة العصر ورقّة المدنية ، يقول من قصيدة[٣]:

غراء في فرعها ليلٌ على قمـــر	على قضيب على دعص النقا الدّهس
أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها	أرقّ ديباجةً من رقّة النّفــــــس
كأن قلبي وشاحاها إذا خطـــرت	وقلبها قلبها في الصمت والخّـــرس
تجري محبتها في قلب عاشقهــا	جري السلامة في أعضاء منتكـــس

أما **عبد الله بن المعتــز**، فشأنه شأن الشعراء جميعاً، وشأن المترفين من أبناء الخلفاء كلف هذا الشاعر بمحبوبة اسمها : شرّة "وكثيراً ما ردّد اسمها في

---

(٢) ديوان مسلم بن الوليد ص ١٩١ وما بعدها

(٣) ديوان مسلم ص ٣٦٥ .

شعره تارة باسم "شرة" وأخرى باسم "شريرْ" وقد تعلّق بها اشـدّ التعلّـق ،وحين تمرّ بخاطره يرقّ شعره ويعذب أسلوبه ،وتصبح معانيه قريبة إلى خـاطر القارئ ، من نحو قوله:[1]

زار الخيال وصدّ صاحبـــــه	والحبّ لا تقضى عجائبـــــه
يا شرّ قد أنكرتنـــــي فلكم	ليل رأتكِ معي كواكبـــــه
شابت نواصيـــه وعذّبنـــي	من طول أيامي أراقبـــــه
حتى إذا الإمســـاء أورده	حوض الغروب فعبّ شاربـــه
هام الهوى بمتيّم قلـــــقٍ	في الصبر قد سّدت مذاهبـــه
باتت تغلغل بين ثني دجـــى	حتى اتتكِ به ركائبـــــه
بأبي حبيب كنت أعهـــده	لي واصلاً فازورّ جانبـــه
عبقِ الكلام بمسكة نفحـــت	من فيه ترضي من يعاتبـــه
نبّهته والحيّ قد رقـــدوا	مستبطناً عضباً مضاربـــه
فكأنني روّعت ظبي نقـــا	في عينه سنة تغالبـــــه

أما ابن الرومي فقد أكثر من وصف مجالس السماع ،وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ،وكانت أذنه مرهفة وشعوره حادّاً،فإذا لم يقع المغنّي أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صبّ عليهما شواظاً ، مـن هجائـه ، وقـد صـوّر المغنية" وحيد "وكانت قد فتنته بجمالها وصوتها وحسنها ،وفيها يقول:[2]

تتغنىّ كأنها لا تغنـــــيّ	من سكون الاوصال وهي تجيد
من هدوٍّ هناك تجحـظ عيـــنٌ	لك منها ولا يدّر وريـــــد
مدّ في شأوِ صوتهـا نفـــسٌ	كافٍ كأنفاس عاشقها مديـــد
وأرقّ الدلال والغنـج منـــه	وبراه الشجا فكاديبيـــــد
فتراه يموت طـوراً ويحيـــا	مستلّذ بسيطه والنشيـــــد

---

[1] ديوان ابن المعتز ص ٥٠

[2] ديوان ابن الرومي ص ٩٨

فيه وشي ،وفيه حلي من النعم مصوغ يختال فيه القصيـــــد
في هوى مثلها يخفّ حليــــم راجح حلمه ويغوى رشيـــــد
عيبها أنها إذا غنّت الأحـــــرار ظلّوا وهم لديها عبيــــــــــد

ونختم هذا الباب بما أورده الأغاني عن الحياة الاجتماعية التـــي يحياهـــا الشعراء وبعض النساء: كانت بالبصرة قينة لبعض ولد سليمان بن عليّ،وكانـــت محسنة بارعة الظرف وكان بشّار صديقاً لسيّدها ومدّاحاً له ،فحضر مجلسه يوماً والجارية تغنّي ، فسرّ بحضوره وشرب حتى سكر وقام،ونهض بشّار فقالت : يـــا أبا معاذ ، أحبّ أن تذكر يومنا هذا في قصيدة ، ولا تذكر فيها اســـمي ،وإلا اســـم سيّدي" [١] ،وبشّار يهوى الاستجابة لمطالب الرقيقات الجميلات، فأجابها بقـــصيدة ذات مستوى فنيّ رفيع في الإبداع الشعري المتمكن من لمح المعاني وتوليـــدها، ولكنه يدلّ ابلغ دلالة على روح الحياة الاجتماعية التي يحياها وينتمي إليها ،إنها الحياة المشبعة باللهو والترف والتطري في توليد أحاديث النساء، التي لا تتـــصل بحقيقة العشق والحبّ، بل تدلّ على خبرة وتجربة في إشاعة روح اللهو والعبـــث المحببة لدى أنواع من النساء يعشقن اللهو السابغ والهـــوى المبـــاح[٢] وهـــذه القصيدة يقول فيها:

وذات دلّ كأن البدرّ صورتهـــــــا باتت تغنيّ عميدَ القلب سكرانــــــا
(إن العيون التي في طرفها حـّـور قتلننا لم ثم لم يحيين قتلانــــــــــا)
فقلت أحسنتِ يا سؤلي ويا أملـــــي فأسمعيني جزاك الله إحسانــــــا:
يا حبذا جبل الريّأن من جبـــــــلٍ وحبذا ساكن الريّأن من كانــــــا)
قالت : فهّلا فدتك النفس أحسن من هذا لمن كان صبَّ القلب حَيرانــــا
(يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقـــة والأذن تعشق قبل العين أحيانــــا)
فقلت أحسنت أنت الشمس طالعـــــةً أضرمت في القلب والأحشاء نيرانا

---

[١] الأغاني ج٣/١٥٨- ١٥٩
[٢] انظر : الشعر العباسي ، تطوره وقيمة الفنية د. محمد أبو الانوار ص ١٧٠- ١٧١ .

فأسمعيني صوتاً مطرباً هزجـــاً يزيد صباً محباً فيك أشجانـــا
يا ليتني كنت تفاحاً مفلّجـــة أو كنت من قضب الريحان ريحانـــا
حتى إذا وجدت ريحي فأعجبهـــا ونحن في خلوة مثّلث إنسانـــا
فحرّكت عودها ثم انثنت طربـــا تشدو به ثم لا تخفيه كتمانـــا
(أصبحت أطوع خلق الله كلّهـــم لأكثر الخلق لي في الحب عصيانـــا
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنـــا فهات انك بالإحسان أولانـــا
لو كنت أعلم أن الحبّ يقتلنـــي أعددت لي قبل أن ألقاك أكفانـــتا
فغنّت الشَّرب صوتاً مونقاً رَمـــلاً يذكي السرور ويبكي العين ألوانـــا
(لا يقتل الله من دامت مودتـــه والله يقتل أهل الغدر أحيانـــا)

لقد كان خوف الناس شديداً على نسائهم وبناتهم من شعر بشار وأمثاله، فاسمع بشاراً وهو يقول:

قد عشت بين الريحان والــراح والمزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بيـــن فغفور إلى القيروان فاليمـــن
شعراً تصلّي له العواتق والثيّب صلاة الغواة للوثـــن[1]

والشاعر علي بن جبلة الذي أطلق عليه الأصمعي صفة " العكوّك" فلصقت به وغلبت عليه ، كان واحداً من قافلة شعراء المرحلـة العباسـية المطبـوعين، والذين وقعوا في حبّ الجواري فقد هام هذا الشاعر في جارية اسمها "شـكلة " وألحّ عليه غرامها فراح يشكو حاله في أبيات من الغزل الرقيق، الذي نلحظ عليه أسلوب الشعراء المكفوفين يقول هذا الشاعر:

إني ليقنعني تعهّـــد شكلـــة إن حال دونَ لقاء شكلة حائل
ويزيدني كلفـــاً بها هجرانهـــا ويسّرني عنها الحديث الباطل
وإذا تكلم عـــاذل في حبّهـــا أغرى الفؤاد بها ورقّ العاذل
من أين ما امتحنـت محاسن وجهها بهر العيون بها هلال ماثـل

[1] انظر : الأغاني ج٥/٥ وانظر : ضحى الإسلام ج١/٩٠

شجيت خلاخلها بساقٍ خدلـــــــــةٍ وشجيت عمداً بالذي هو قائل

والابيات كما ترى تأتزر بالعفة وتتشح بالبعد عن المجون، واسمعه هــو يتغنى بهذه الأبيات التي تنمّ عن لوعة معاناته في الحب يقول:

لو أن لي صبرها أو عندها جزعي لكنـــــت أعلم ما آتي وما ادع

لا أحمل اللوم فيها والغرام بهـــا ما حمّل الله نفساً فوق ما تسع

إن دعا باسمها داعٍ فأسمعنــــــي كادت له شعبة من مهجتي تقع[٢]

ج- أبرز النساء الشواعر في العصر العباسي ومكانتهن في المجتمع

١ - الحرائر الشواعر: عليّة بنت المهــدي ، الفارعــة بنــت طريــف ،ولاّدة المهزمية

٢ - القيان الشواعر:عَريب ، عِنان ، فضل ، سكن، رابعة العدوية المتصوفة

أ- عليّة بنت المهدي

تدفقت شاعرية المرأة مثلما تدفقت شاعرية الرجل ، فالمواهــب لا تميّــز الذكر من الأنثى ، كما أنها تتجاوز حدود التخصص ،وما أكثر الشاعرات اللاتــي تلألأت أسماؤهن في الجاهلية من مثل : أسماء المريّة ، وأمامة بنت ذي الإصبع، وأميّة بنت عبد شمس، وأميمة بنت عبد المطلب، وأم الأغر بنت ربيعة أخت كليب [١]. كما برزت شاعرات دبّ الشعر على ألسنتهن في الإسلام مثل : حبيبــة بنــت الضحّاك ،وحميدة بنت النعمان، وتماضر بنت عمرو ، وخولة بنت الأزور ، ودرّة بنت أبي لهب [٢] وغيرهن كثير.وكان من الطبيعي أن تنبغ شاعرات في العــصور

---

[٢] انظر : تاريخ بغداد ج٣٥٩/١١ وانظر : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٣٩ .

[١] انظر شاعرات العرب ص ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤

[٢] نفسه ص ٦٢ ، ٧٧ ، ٩٨ – ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٠ وانظر : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٥٥ .

العباسية مثل: عليّة بنت المهدي، والفارعة بنت طريف ، وولاّدة المهزمية، وخديجة بنت المأمون وغيرهن من الحرائر، غير أن طبيعة البيئة في العصر العباسي لم تكن على شاكلة بيئات العصور السابقة ، من حيث إنها لم تقدّم لنا هذه البيئة الجديدة الشاعرة الحرّة العفيفة التي ألفناها في العصور السابقة للعصر العباسي، صحيح أنه وجد بين الشاعرات الجاهليات والإسلاميات من غرقن في الحبّ، واكتوين بلوعته، ولكن واحدة منهن لم تخرج عن الجادّة، ولم تترخص أو تتهافت كما فعلت أكثر شاعرات العصر العباسي ، ولا زالت أسماعنا ندية بما باحت به بعض الشواعر في العصر الأموي كليلي الاخيلية ، في صاحبها توبة الحميري، وقد ظنت انه أراد بها ريبة، فقالت :

وذي حاجة قلنا له لا تبج بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل

وها هي ليلى العامرية تقول لصاحبها قيس بن الملّوح المعروف " بمجنون ليلى " كلاماً يشنّف الآذان ويتلفع بالعفّة:

كلانا مظهر للناس بغضاً ... وكلّ عن صاحبه مكين

تبلّغنا العيون بما أردنا ... وفي القلبين ثّم! هوى دفين

وأسرار اللواحظ ليس تخفى ... وقد تغري بذي الخطأ الظنون

وكيف يفوت هذا الناسَ شيءُ ... وما في الناس تظهره العيون[1]

إلاّ انه لم يمنع أن يوجد بين شاعرات العصر العباسي من تميزن بالعفة والحشمة والوقار مثل زهراء الكلابية التي كانت تحدّث اسحق الموصلي وتناشده، وكانت تميل إليه ، وتكنّي عنه في شعرها الجميل من نحو:

وجدي بجمل على أني أجمجمه ... وجد السقيم ببرء بعد إدنافٍ

---

[1] شاعرات العرب ص ٣٧٩ .

أو وجد ثكلي أصاب الموت واحدَها   أو وَجد مغترب من بين ألاّف[٢]

أمّا عليّة بنت المهدي فقد كانت واحدة من المتفردات بالغناء والموسـيقا والشعر، ولدت في بغداد عام (١٦٠ هـ /٧٧٧ م) وعاشت طفولتها في قصور الخلافة العباسية، فهي أخت هارون الرشيد ، كانت من أحسن خلق الله وجهـاً ، وأظرف النساء ، وأعقلهن وأكملهن ذات صيانة وأدب بارع ، تزوجها موسى بن عيسى العباسي ، وكان أخوها الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها، ولها ديـوان شعر وتوفيت عام ٢١٠هـ/٨٢٥ م ببغداد، وفي القصور العباسية رضعت لبـان العلم والمعرفة والآداب المختلفة والفنون، وقد كانت الأميرة عليّة تتمتع بموهبـة فنية وأدبية ، فبدأت مبكراً بقول الشعر وصياغة الألحان التي كانت تأتيهـا عفـو الخاطر، فتغنيها بصوتها الساحر وألحانها الشجيّة التي تعبّر فيها عن مـشاعرها الرقيقة ووجدانها الغضّ ، وقد قيل فيها : " ما اجتمّع في جاهليـة ولا إسـلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة.

وأم عليّة أم ولد مغنية يقال لها مكنونة من جواري المروانية المغنيـة ، والمروانية هذه ليست من آل مروان بن الحكم، وإنما هي زوجة الحسن بن عبـد الله بن عبيد الله بن العبّاس ، وكنت مكنونة من أحسن جواري المدينـة وجهـاً، فاشتريت للمهدي في حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغلبـت عليـه ، حتـى كانـت الخيزران تقول: ما مَلك أمةً أغلظ عليّ منها، ولما اشتريت للمهدي ستر أمرهـا عن أبيه المنصور حتى مات ، واستولدها المهدي عليّة هذه.

روي عن أبي احمد بن الرشيد قال: كنت يوماً بحضرة المأمون هو يشرب النبيد، ثم قام وقال لي : قم ، فدخل دار الحرم، ودخلت معه، فسمعت غناءً أذهـل عقلي ولم اقدر أن أتقدم ولا اتاخر ،وفطن المأمون لما بي فضحك، وقـال : هـذه عمتك تطارح عمّك إبراهيم [١] وكان في جبينها فضل سعة ، فاتخـذت العـصائب المكلّلة بالجوهر لتستر جبينها، فهـي أول مـن أحـدث ذلـك، وكانـت حـسنة

---

[٢] نفسه ص ١٤١ ، وانظر : الحماسة البصرية ص ١٢٤ .

[١] الأغاني ج٧٢/٩ وانظر : نهاية الارب ج ٢١٢/٤

الدين،وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب، ولم تله بشيء غير قول الشعر في الأحيان ، إلاّ أن يدعوها الخليفة إلى شيء فلا تقدر على خلافة ،وكانت رحمها الله تقول: ما حرّم الله شيئاً إلاّ وقد جعل فيما حلّل منه عوضاً ، فبأي شيء يحتجّ عاصيه والمنتهك لحرماته ،وكانت تقول : لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قطّ، وما أقول في شعري إلاّ عبثًا[1] وكانت رحمها الله تحبّ أن تراسل بالأشعار من تختصه،فاختصّت خادماً يقال له طلّ من خدم الرشيد تراسله بالشعر، فلم تره أياماً ، فمشت على ميزاب وحدثته ثم قالت في ذلك.

قد كان ما كلّفته زمناً ... يا طلّ من وجدي بكم يكفي
حتى أتيتك زائراً عجلاً ... أمشي على حتفي إلى حتفي

فحلف عليها الرشيد ألاّ تكلّم طلاً ولا تسميّه باسمه، فضمنت له ذلك، واستمع عليها يوماً وهي تقرأ آخر سورة البقرة ، حتى بلغت إلى قوله تعالى : { فإن لم يصبها وابل * فارادت أن تقول : " فطلّ * فقالت : فالذي نهى عنه أمير المؤمنين ، فدخل عليها أمير المؤمنين ، فدخل عليها الرشيد، وقبّل رأسها ، قد وهبت لك طلاًّ ولا أمنعك من شيء تريدنه،ولها في طلّ هذا عدّة اشعار صنعت فيها ألحاناً ، وكانت في بعضها تصحّف اسمه وتكنّي عنه بغيره، كما كانت أيضاً تقول الشعر في خادم لها يقال له: رشأ وتكنّي عنه بزينب ومن شعرها فيه.

وَجد الفؤاد بزينبا ... وجداً شديداً متِعبا
أصبحت من كلّف بها ... أدعى شقياً منصبا
ولقد كنيت عن اسمها ... عمداً لكي لا تغضبا
وجعلت زينب سترة ... وكتمت أمراً معجبا
قالت وقد عزّ الوصال ... ولم أجد لي مذهبا
والله لا نلتَ المودّة ... أو تنال الكوكبا

---

[1] نهاية الأرب ج٤/٢١٣ .

وروي عن أبي هفّأن قال : أهديت للرشيد جارية ، فخلا معها يوماً واخرج كل قينة في داره ، واصطبح، وكان من حضر من جواريه للغناء والخدمة في الشراب (عدد كبير) في أحسن زيّ من كلّ نوع من أنواع الثياب والجوهر، واتصل الخبر بأم جعفر، فعظم عليها ذلك، فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها ، فأرسلت إليها عليّة: لا يهولّنك هذا ،والله لأردنه إليك قد عزمت أن أضع شعراً، وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريّ ، فلا تبقي عندك جارية إلاّ بعثت بها إليّ وألبسيهن أنواع الثياب ليأخذن الصوت مع جواريّ ، ففعلت أم جعفر ما أمرتها به، فلما جاء وقت صلاة العصر، لم يشعر الرشيد إلاّ وعليّة وأم جعفر قد خرجتا من حجريتهما معهما جواريهما وسائر جواري القصر، عليهن غرائب اللباس، وكلهّن في لحن واحد صنعته عليّة وهو :

منفصل عنّي وما قلبيَ عنه منفصلْ

يا هاجري اليوم لمن نويت بعدي أن تصلْ

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر وعليّة وهو على غاية السرور، وقال : لم ار كاليوم قطّ، يا مسرور: لا تبقيّن في بيت المال درهمّا إلاّ نثرته . وروي عن عريب أنها قالت : أحسن يوم رأيته في الدنيا وأطيبه يوم اجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدي عند أخته عليّة، وعندها أخوهما يعقوب بن المهدي، وكان احذق الناس بالزَّمر، فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب بن المهدي يزمّر عليها :

تحبّب فان الحبّ داعية الحبِّ وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

تبصّر فان حدّثت أن أخا هوى نجا سالماً فَارْج النجاة من الحبّ

إذا لم يكن في الحبّ سخط ولا رضاَ فأين حلاوات الرسائل والكتب

وغنى إبراهيم من صنعته وزمر عليه يعقوب:

لم ينسنيك سرور ولا حزن وكيف لا ،كيف ينسى وجهك الحسن

ولا خلا منك قلبي ولا جسدي كلّي بكلّك مشغول ومرتّهن

يا فردة الحسن ما لي منك مذ كلفت نفسي بحبَك إلاّ الهمّ والحــــــــزن
نور تولّد من شمسٍ ومن قمــــــــر حتى تكامل فيك الروح والبـــــــدن[1]

ولعلية ديوان شعر، وأشعارها منبثة في أجزاء الأغــاني ، وفــي كتــاب أشعار أولاد الخلفاء ، وعندما مات الرشيد حزنت عليه حزناً كثيراً ،وتركت الغناء وقرض الشعر حزناً وتأسفاً على رحيله، أما أخوها إبراهيم بن المهدي فقد كــان يأخذ عنها بعض الألحان التي سكبتها بوحاً صادقاً وفناً أصيلاً، وبلغــت ألحانهــا ثلاثة وسبعين لحناً، وذاع شعرها المغنّي الذي تميزّ بتوهج عاطفته، وعمق معانيه وبساطة ألفاظه ، وسهولة تلحينه. وتوفيت عليّة عن عمر خمسين ســنة، وكــان سبب وفاتها أن المأمون ضمّها إليه وجعل يقبّل رأسها ووجها مغطىّ،فشرقت من ذلك وسعلت ،ثم حمّت بعقب هذا أياماً يسيرة وماتت ، رحمها الله[1] .

ومن شعرها في أخيها الرشيد وقد زارها مرة:

تفديك أختك قد حبيت بنعمــــــةٍ لسنا نعدّ لها الزمان عديــلا
إلا ّالخلود وذاك قربك سيّـــــدي لا زال قربَك والبقاء طويــلا
وحمِدت ربي في إجابة دعوتي ورأيت حمدي عند ذاك قليلا

وغنّت الأمين بشعر هو آخر ما قالته وهو:

أطلتِ عاذلتي لومي وتفنيـــــــذي وأنت جاهلة شوقي وتسهيدي
لا تشرب الراح بين المسمعات وذر ظبياً غريراً نقيّ الخدّ والجيــد
قد رنّحته شمول فهو منجـــــدل يحكي بوجنته ماء العناقيــــــد
قام الأمين فأغنى الناس كلّهــــــم فما فقير على حال بموجـــود[2]

---

[1] الأغاني ج ٨٩/٩
[1] نهاية الارب ج٢١٨/٤ .
[2] اشعار أولاد الخلفاء ص ٦٣.

وعليّة شاعرة رقيقة ، ومثقفة واسعة الثقافة ، والــذي يبــدو مــن شعرها أن معظمه قبل في الغزل والحبّ، وفي مدح أخيها الرشيد وولديه الأمــين والمأمون ، أما غزلها فلم يكن بالغزل الفاحش، ولا بالغزل البواح ، إنمــا كانــت تكنّي ولا تصرّح، وإذا كان كلامها عن نفسها صحيحاً، لا غفــر الله لــي فاحــشة ارتكبتها قطّ،ولا أقول الشعر إلاّ عبثاً "فان ذلك يعني أن ما كانت تعبّر بــه عــن لوعة الحبّ ومرارة الوجد إنما كان عبثاً، ولــيس حقيقــة، ويــرى د. مــصطفى الشكعة أن غزلها مرّ في ثلاثة أطوار[٣] :

الطـور الأول : عبّرت فيه عن ترفّعها واستكبارها على النــاس ، وأنهــا تخلو وحدها، وتستمتع بشرب الراح، فهو نديمها، إذ لا نديم كفء لهــا، يــصلح لمنادمتها ومشاركتها ، تقول:

خلوت بالــراح أناجيهــــا   آخذ منها وأعاطيهـــــا
نادمتها إذ لم أجد لي صاحباً   أرضاه أن يشركني فيهــا

وفي الطور الثـاني: تراها تصرّح بأنها عاشقة،وان الحب قد ملك عليهــا أقطار فؤادها، ولكنها لا تستطيع أن تفصح عن اسم حبيبها، وتودّ لو أنها في بلد نازح ،علّها تفصح عمّن تحبّ ، تقول:

كتمت اسم الحبيب عن العباد   وردّدت الصبابة في فؤادي
فوا شوقي إلى بلدٍ خلــــيّ   لعلّي باسم من أهوى أنادي

وفي الطور الثـالـث : من شعر الحبّ عند عليّة أنها تسمي من تحبّ باسم زينب فتكنّي عن حبيبها بهذا الاسم قصداً إلــى الــستر وجنوحــاً إلــى العذريــة المحتشمة ، تقول:

وجد الفؤاد بزينــــــــبا   وجداً شديداً متعبـــــــا

---

[٣] انظر: شعر أولاد الخلفاء ص ٢٦٥- وشاعرات العرب ص ٢٥٩ – والشعر والشعراء ص ٤٥٨- وما بعدها.

أصبحت من كلفي بهـــــا أدعى سقيماً منَصبـــــا
ولقد كنيت عن اسمهـــــا عمداً لكي لا تغضبـــــا
وجعلت زينب ستـــــــرة وكتمت أمراً معجبـــــا
قالت لقد عزّ الوصـــــال ولم أجد لي مذهبـــــا
والله لا نلت المـــــــودّة أو تنال الكوكبـــــــا

وإذا صح ما قالته عن شعرها بأنها تذهب فيه مذهب العبث، فاننا يمكـــن أن نقول إن عليّة في حياتها الحقيقية غير عليّة فيما تذهب إليه في شعرها، والله اعلم بالسرائر، ولكنها تبقى أميرة مثقفة ثقافة دينية فقهية وأدبية وفنية، فتراهـــا تستعمل مصطلحات فقهية في شعرها الغزلي ، بأسلوب ينمّ عـــن نفـــس صـــافية وشاعرية خصبة على حد تعبير د.الشكعة، تقول:

ليس خطب الهوى بخطب يسير ليس ينبيك عنه مثل خبير
ليس أمر الهوى يدبّر بالـــرأي ولا بالقياس والتفكيـــــر

وإذا ربطنا شاعرية هذه الأميرة بالبيئة الاجتماعية في العصر الذي عاشت وكيف كان المجتمع يعج بـــضروب الأمـــشاج والأجنـــاس، وأســـواق الجـــواري والمغنيات، وبروز ظاهرة المجون والزندقة والشعوبية ،ووصلنا الأميرة باخيهـــا إبراهيم بن المهدي نجد انهما كـــان يغنيـــان علـــى معزوفـــة واحـــدة ،يـــشربان ويلهوان،وان ما شاع عنهما من تمّجن ولهوٍ وغناء، ربما استغلّه أبناء عمومتهما من الشيعة، للنيل من خلافة بني العباس ،ومن سمعة البيت العباسي ،وذلك حينما يجرون المقارنات بين حشمة وطهارة نساء آل البيـــت ورجالـــه وبـــين مجـــون وانفلات نساء بيت بني العباس[1].

---

[1] انظر : الشعر والشعراء ص ٤٦١ .

ب-الفارعة بنت طريف

اختلفت المصادر في تحديد اسمها ،فبعض هذه المصادر سمّتها ليلى، وبعضها الآخر سمّتها فاطمة[٢] ،وسواء أكانت الفارعة أو ليلى أو فاطمة فإنها كانت شاعرة فارسة خاضت غمار الحرب، كانت تركب الخيل وتقاتل وعليها الدرع والمغفر، وتعدّ الفارعة من شواعر الدولة العباسية ،وهي أخت الوليد بن طريف الشيباني، رأس الخوارج، وأشدّهم بأساً، اشتدت شوكته أيام الرشيد، وطالبت أيّامه ، فوجّه إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني ،وكان الوليد شجاعاً صاحب بأس وصلة ، جريئاً مقداماً جسوراً قويّ الشوكة بحيث كان سكان ضواحي بغداد لا يأمنون نزوله إليهم وغارته عليهم[٣]، فجعل يزيد يخاتل الوليد ويماكره وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا: إنما يتجافى عنه للرحم، وإلاّ فشوكة الوليد يسيرة ، فوجّه الرشيد كتاباً مغضباً إلى يزيد، واقسم بالله لئن أخّر مناجزة الوليد ليوجهّن إليه من يحمل رأسه إلى أمير المؤمنين، فسار يزيد إلى الوليد بن طريف، فلحق به وقتله ، وذلك سنة١٧٩هـ ، وتعلم الفارعة بمقتل أخيها ، فتلبس لباس الحرب وتهاجم جيش يزيد الذي يكشف أمرها فيواجهها ويطاردها ويضرب بسيفه مؤخرة فرسها قائلاً: اغربي ، لقد فضحت العشيرة ، يريد عشيرة بن شيبان التي ينتسب إليها كلٌّ من يزيد والوليد وأخته الفارعة .

ويبلغ التأثر بالفارعة أشدّه لفقدها أخاها البطل الشجاع، فترثيه بقصيدة بليغة من شعرها وقد وقفت على قبره في المكان الذي صرع فيه وهو الخابور قائله:[١] والقصيدة من البحر الطويل.

بتلّ نباتى رسم قبر كأنه ... على علَم فوق الجبال منيفِ

تضمّن جوداً حاتمياً ونائلاً ... وسّورة ضرغام ورأيَ حصيفِ

---

(٢) شاعرات العرب ص ٣٧٤٧ وانظر خبرها في الطبري ج١٠/ ٦٥

(٣) وفيات الأعيان ج٣١/٦ وانظر: الشعر والشعراء في العصر العباسي ص٤٦٢ وانظر : سمط اللآلئ ص ٩١٣

(١) معاهد التنصيص ج١٦٢/٣- ١٦٣ – وانظر : وفيات الأعيان ج٣١٢/٦ ، والاغاني ج٩٣/١٠- ٩٤ .

ألا قاتل الله الجثى كيف أضمرت فتى كان للمعروف غير عيوفِ

فإلاّ تجبني دمنة هي دونه فقد طال تسليمي وطال وقوفي

وقد علمتْ أن لا ضعيفاً تضمّنت إذا عظم المرزي ولا ابن ضعيف

فتىّ لا يلوم السيف حين يهزّه إذا ما اختلى من عاتق وصليف

فتىّ لا يحبّ الزاد إلاّ من التقى ولا المال إلاّ من قناً وسيوف

ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة وأجرد ضخم المنكبين عطوفِ

فقدناه فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجاً لعدوٍّ أو لجاً لضعيف

حليف الندى إن عاش يرض به الندى وإن مات لا يرضى الندى بحليف

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيا ربّ خيل فضّها وصفوف

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف

ألا يا لقومي للنوائب والردى ودهر ملحٍّ بالكرام عنيفِ

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس همّت بعده بكسوف

ولليث فوق النعش إذ يحملونه إلى حفرة ملحودة وسقوف

إذا ما ذكرنا هذه الشاعرة الفارسة ذكرنا معها الخنساء بنت عمرو بن الشريد يرحمها الله، غير أن الفارعة كانت أطول نفساً من الخنساء، وأجزل عبارة ولهول فجيعتها بأخيها فان الفارعة مفعمة بالحزن على أخيها الفارس الجواد، الثائر على الظلم بحسب اعتقاد الخوارج، والذي لا يهاب الموت، فقد تقدّم إلى ساحة المعركة وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورةٌ لا يصطلى بناري

جوركم أخرجني من داري

فالرجل يتّهم العباسيين بالجور والظلم ، الأمر الذي جعله يخرج عليهم ثائراً مقاتلاً بشجاعة لا يهاب الموت، متسلحاً بشجاعة عزّ نظيرها،ومن كانت هذه شجاعته يستحق أن يحزن عليه الناس، بل الأرض التي خرّ فيها صريعاً.

وتمضي القصيدة على هذه الشاكلة مصوّرة صنوف الحــزن والوان الجزع على أمير الشراة الذي رزء به قومه وأتباعه من الــشراة الــذين بايعوه على الامارة عليهم ، فقد كان له من صفات الحمد والبطولة عزّ نظيرها في بني قومه .

وقد ورثته الفارعة في قصيدة أخرى : من المتقارب.

ذكرت الوليد وأيّامــــــــــه   إذا الأرض من شخصه بلقــــــع

فأقبلت أطلبه في السمـــــــاء   ما يبتغي أنفه الأجــــــــــدع

أضاعك قومك فليطلبــــــــوا   إفادة مثل الذي ضيّعــــــــوا

لو أنّ السيوف التي حدّهـــــا   يصيبك تعلم ما تصنّــــــــــع

نَبَتْ عنك أو جفلت هيبــــــةً   وخوفاً لصولك لا تقطــــــــع[1]

ج- ولاّدة المِهزميـــةّ[2]

ولاّدة المّهزميّة من الشاعرات الحِرائر، لعلّها من أهــل البــصرة ،وهــي قريبة لأبي هفّان عبد الله بن احمد ابن حرب المهزمي الراوية المعــروف، لقــد روى أبو هفّان لولادة شعراً تميّز بالفخامة والجزالة ،وفيه كما يقول د. مــصطفى الشكعة: " فحولة الأوائل ورصانة المجيدين وقوة المتمكنين ،بل أن الأنموذج الذي وصل إلينا من شعرها ربما لم يرق إلى مستواه الفني بعــض شــعر كثيــر مــن الشعراء الكبار[3]، وولاّدة المِهزمية البصرية غير ولاّدة بنت المــستكفي الأمويــة الأندلسية ، ولم يحفظ التاريخ لولاّدة المهزمية غير قصيدة واحــدة تفخــر فيهــا بشمائلها ومكانة قومها تقول:

لولا اتّقاء الله قمت بمفخــــــــرٍ   لا يبلغ الثقلان فيه مقامــــــــــي

---

[1] وفيات الأعيان ج٦/٣٣ وانظر : معاهد التنصيص ج١٦٣/٣
[2] شاعرات العرب ص ٤٨١ .
[3]

بأبوّة في الجاهليـــــــة ســـــادة بزّوا العـــــلا أمراء في الإســـلام
جادوا فسادوا مانعين أذاهــــــم لنداهم بذلٌ علـــــــى الأقـــــوام
قد أنجبوا في السؤد دين وأنجبوا بنجابة الأخوال والأعمـــــــــــام
قوم إذا سكتوا تكلّم مجدهـــــم عنهم فأخرس دونَ كلّ كـــــــلام

إن هذا الشعر الذي تفجرّت به شاعرية ولاّدة ومن قبلها الفارعـــة بنـــت طريف تميّز بالفخامة والجزالة ، والبعد عن التكلف،ولكنه كما يقال يـــشكل نمطـــاً وسطاً بين شعر المدينة الذي يتميز بالرقة والسلاسة وشعر البادية الــذي يتميـــز بالخشونة.

٢ – أ – من القيان الشواعر عَريب

لم يكن الشعر في يومٍ ما وقفا على الرجال دون النساء، ولا على النـــساء الحرائر دون القيان ،والمجتمع العباسي طفح بالكثير من هؤلاء الجواري، فلم يخل منهن قصر لخليفة أو أمير أو وزير ، ولا بيت غني أو كوخ فقير ، وقـــد تفننـــت هذه القيان بالاساليب التي يستولين بها على قلوب مالكيهن ونيل اعجابهم ،وذلك بما يملكنه من جمال مظهر، وغنجٍ ودلال، ولباقة في التصرف، وقدرة بارعة على العزف، وصوت رخيم قادر على إتقان الغناء الآخذ بمجامع القلوب "ثم ما لبـــث أمر الجواري أن تطوّر فأصبح القيّانون يحرصون قدر استطاعتهم على أن يعـــدّوا جواريهم ، إعداداً أدبياً ويخرّجونهن على اللغة ويدربّونهن على قول الـــشعر،فنبغ من بينهن القينات الشاعرات الموهوبات وبعض أولئك جمع إلـــى اجـــادة الـــشعر جمال الصوت وإتقان العزف وبراعة الضرب وحسن الأداء مع جمال وافر وبديهة حاضرة، ونكتة سريعة في غير تحرّج من فحش اللفظ سماعاً أو قولاً"[١] .

---

[١] الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٦ .

على أن أكثر هؤلاء الشاعرات وغير الشاعرات من القيان كنّ منحرفات اشعن في المجتمع المجون والخلاعة والتهتك تحت ستار الظرف والفكاهة وبراعة المنطق وجمال الشكل ، واعتدال الخلق، غير انه وجد من بين هؤلاء وهؤلاء قيان صالحات فضليات من امثال "سكن "جارية محمود الورّاق ، وخنساء جارية هشام المكفوف.

وعّريب واحدة من طراز القيان المنحرفات المتهتكات الماجنات ،ثقفت هذه الجارية ثقافة عريضة في مجال الغناء والموسيقا ورواية الشعر ، وفي مجال الثقافة العربية واللغة والأدب والأخبار. قيل عن عَريب إنها جارية المتوكل على الله، وقيل : إنها ابنة جعفر البرمكي من إحدى جواريه، وذلك أن أمّ عَريب كانت تسمّى فاطمة ، وكانت قيّمة لأم عبد الله بن يحيى البرمكي ، آواها وأحبّها ، وسأل أم عبد الله أن تزوجّه إياها ، ففعلت ، وأسكنها في السرّ داراً بناحية باب الانبار ، وكان يتردد عليها فولدت عَريب سنة ١٨١ هـ/٧٩٧ م وتوفيت أمّها ، وتركتها طفلة ، فدفعها جعفر إلى امرأة نصرانية لتربيّها.

ولمّا وقعت نكبة البرامكة باعتها النصرانية إلى تاجر قيان اسمه (سنبس) وهذا بدوره باعها إلى اسماعيل المراكبي فكانت جاريته ،يقول ابن المعتز: إنه سمع الفضل بن مروان يقول: كنت إذا نظرت إلى قدمي عريب شبّهتهما بقدمّي جعفر بن يحيى ، وتعجب قوم من بلاغة عريب وأدبها ،فقال واحد منهم: فما يمنعها من ذلك وأبوها جعفر بن يحيى [1]، وكانت عَريب على ما أورده أبو الفرج مغنية محسنة، وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام ، ونهاية في الحسن والجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب، وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار والرواية للشعر،لم يتعلق بها احد من نظرائها ولا رئي في النساء – بعد القيان الحجازيات مثل جميلة وعزّة الميلاء

---

[1] الأعلام ج١٩/٥ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٦ ،٤٦١ ،٤٦٢ والغناء في قصر الخليفة المأمون ص١٦٨ ، ونهاية الأرب ج٩٥/٥

وسلاّمة الزرقاء ومن جرى مجراهنّ على قلّة عددهن – نظير لهـا ،قـال : وكان فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهنّ مما يكون فـي مثلهـا مـن جواري الخلفاء،ومن نشأ في قصور الخلفاء وغذّي برقيق العيش الذي لا يدانيـه عيش الحجاز والمنشأ بين العامة والعرب الجفاة،وشهد لها مـن لا تحتـاج مـع شهادته إلى غيره ،فروي عن حماد بن اسحق قال: قال أبي : مـا رأيـت امـرأة اضرب من عريب، ولا أحسن صنعة، ولا اخفّ روحاً،ولا أحسن خطاباً بارعاً ، ولا أسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والنرد ،ولا أجمع لخصلة حسنة لم أرهـا فـي امرأة غيرها قط، قال حماد: فذكرت ذلك ليحيى بن أكثم،فقال : صدق أبـو محمـد ،هي كذلك قلت: أفكانت كما ذكر أبو محمد في الحذق؟ قال يحيى : هـذه مـسألة الجواب فيها على أبيك هو أعلم منّي بها ،فأخبرت أبي بذلك، فضحك ثم قال: أمـا استحييت من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا ؟

قال ابن المعتز: قال علي بن يحيى : أمرني المعتمد علـى الله أن اجمـع غناء عَريب الذي صنعته ،فأخذت منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها ، فكتبته فكان ألف صوت وقد قيل أكثر من ذلك،كما حكى ابن المعتز عـن الهشامي أن مولاها المراكبي خرج بها إلى البصرة فأدّبها وخرّجها وعلّمها الخطّ والنحو والشعر والغناء، فبرعت في ذلك اجمع ،وتزايدت حتى قالت الشعر، وكان لمولاها صديق يقال له: حاتم بن عدي من قواد خراسان... فكان مولاها يـدعوه كثيراً ويخالطه، فركبه دين فاستتر عنده،فمدّ عينه إلى عرَيب وكاتبهـا فأجابتـه ودامت الصلة بينهما وعشقته وهربت ،وأتته فمكثت عنده ،ومولاهـا لا يتّهمهـا بشيء من أمرها ، ثم بعد ذلك ملّته وهجرته وهربت منه ،فكانت تغني عند أقـوام عرفتهم ببغداد، فلما اجتاز ابن أخي المراكبي عرف صوتها وغناءها، فبعث إلـى عمه وكبسها وأخذها وضربها مئة مقرعة، ثم ندم على ذلك، وصالحها ووهب لها عشرة آلاف درهم ،وقد بلغ الأمين خبرها فبعث بإحـضارها وإحـضار مولاهـا، فأحضرا، فغنّت بحضرة إبراهيم بن المهدي،فطرب الأمين واستعادها ،وأثنى علـى صوتها إبراهيم وقال لابن أخيه الأمين: إن تطاولت الأيام وسـكن روعهـا ازداد

غناؤها حسناً وطيباً،فقال للفضل بن الربيــع: خــذها إليــك وســاوم بهــا ففعل،فاشتطّ مولاها في السّوم ثم أوجبها له بمائة ألف درهم،ولما قتل الأمين ظل ثمنها في ذمته فلم يدفعه لمولاها ،وحاول مولاها استعادتها، ولكن المأمون أمــر ببيعها واشتراها بخمسين ألف درهم وقيل بخمسة آلاف ، وقيل إن المأمون أحبّها حبّاً جارفاً حتى قيل: إنه قبلّ رجلها في بعض الأيام ،، وأنها قالت إثر ذلــك، والله يا أمير المؤمنين لولا ما شرّفها الله به من وضع فمك الكريم عليهــا لقطعتهــا ! ولكن لله عليّ ألاّ اغسلها لغير وضوء أو طهر إلا بماء الورد ما عــشت فكانــت تفعل ذلك إلى أن ماتت والباحث يستبعد ذلك عن المامون.

ولّما مات المأمون بيعت في ميراثه، ولم يبع له عبــد ولا أمــه غيرهــا، فاشتراها المعتصم بمائة ألف درهم وأعتقها فهي مولاته،أما أخبارها مع محمد بن حامد، وهو واحد من عشّاقها الكثيرين ،وقد كانت تخاطر بنفسها حتــى تلقــاه ، وحملت منه، وأنجبت بنتاً، فبلغ ذلك المأمون فزوّجه إياها ،قال حمدون: كنت ليلة في مجلس المأمون في بلاد الروم بعد العشاء الآخــرة فــي ليلــة ظلمــاء ذات رعودوبروق، فقال لي المأمون :اركب الساعة فرس النّوبة وسر إلى عسكر أبــي اسحق (يعني المعتصم) فأدّ إليه رسالتي وهي كيت وكيت. فركبت فلم تثبت معي شمعة، وسمعت وقع حافر دابة فرهبت ذلك فجعلت أتوقاه حتى صَك ركــابي تلــك الدابة،وبرقت بارقة فأبصرت وجه الراكب فإذا عَريب ،فقلت: عَريب ؟ قال : نعــم حمدون؟ قلت : نعم ،ثم قلت لها : من أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت : من عنــد محمد بن حامد ،قلت :وما صنعت عنده؟ قالت : يانكس ، عَريب تجئ فــي هــذا الوقت من عند محمد بن حامد خارجة من مضرب الخليفة راجعة إليه تقول لها : أيّ شيء عملت معه؟ صلّيت معه التراويح، أو قرأت عليه أجزاء من القــرآن ،أو دراسته شيئاً من الفقه ! يا أحمق ، تحادثنا وتعاتبنا واصطلحنا ولعبنــا وشــربنا وغنيّنا وانصرفنا،فال : فأخجلتني وغاظتني وافترقنا ... ولعريب مواقف مخجلــة

مع صاحبها محمد بن حامد ،فقد كانت امرأة لعوباً تتلاعب بعواطف الرجـال وتتهتك من غير حياء ولا تصوّن ،وقد أورد أبو الفرج [١] ما يلي :

.... وقد جرى ذكر الخلفاء ،قالت : عَريب : منهم ثمانية ما اشتهيت منهم أحداً إلاّ المعتز فانه كان يشبه أبا عيسى بن الرشيد ، ولم يملكهـا مـن هـؤلاء الخلفاء الثمانية إلا الأمين والمأمون والمعتصم،ولكنها لم تحبّ احداً منهم، رغم أن معظمهم احبها ،إنما كانت تقوم بمجلس الغناء خير قيام ، وكانها صـاحبة مـذهب تدعو إليه وهو مذهب اباحي ، فهي من المغنيات الفاجرات ،وهي القائلـة: لقـد نظرت نظرةمريبة في مجلس،فادّعاها أكثر من ثلاثين رئيساً، والله ما علـم أحـد منهم لمن كانت إلى هذا الوقت،وقد كانت تفاخر بالمعاصي وتجاهر بها من غيـر تأثّم ،قالت لابن حمدون وقد غضبت على بعض جواريها: يا أبا العباس ،إن كنـت تشتهي أن ترى زناي وصفاقة وجهي وجرأتي على كل عظيمة أيام شبابي فانظر إليها واعرف أخبارها ،فعريب عند الكثيرين كما صوّرها ابن المعتز: من أحـسن النساء وجهاً، وأفصحهن لساناً،وأبلغهن بياناً، وأصنعهن كفاً ، وكانـت شـاعرة مفلقة مطبوعة وكان المأمون معجب بصوتها[٢] ، ومن شعرها :

أجاب الوابل الغـــــدق   وصاح النرجـــس الغرق
وقد غنــّى بنان لنـــا   جفون حشـــوها الأرق
فهات الكأس مترعــــة   كأن ختامها حَـــــدق[٣]

وكانت عريب تنافس الواثق فيما يصوغه من الألحان ، وتصوغ في ذلـك الشعر بعينه لحناً ، فيكون أجود من لحنه ، فمن ذلك قولها :

أشكو إلى الله ما ألقى من الكتمد   حسبي بربي ولا أشكو إلى احد
أين الزمان الذي قد كنت ناعمـةً   في ظلّه بدنوّي منك يا سنـدي

---

[١] الأغاني ج١٨/١٨٤
[٢] طبقات ابن المعتز ص ٤٢٥ .
[٣] نهاية الأرب ج ٥/١١٢ وفي رواية : كأن حبابها حَدق ،انظر : شاعرات العرب ٢٤٣. ٢٤٥ .

وأسأل الله يوماً منك يفرحنـــــي فقد كحلت جفون العين بالسّهــد
شوقاً إليك وما تدري بما لقيــت نفسي عليك وما بالقلب من كمد[1]

هذه هي عريب ، عاشت حياة طويلة ، كرعت من اللــذات مــا أشــبعت حياتها، وعبّرت عنها بنغمات عودها ،حاكية أبهج الألحــان ، وأفــتن الأصــوات [2]،وقدّمت من نفسها نموذجاً سيئاً للعاملين بالفن في مجاهرتها بالمعاصي، وتعدد علاقاتها المشينة بالرجال، وكان أثرها سيئاً فيمن اقتفى أثرهــا مــن الجــواري والمغنيات اللاتي أشعن الفاحشة والمجون والتهتك في المجتمع ،فقد عاشت هــذه الجارية ستاً وتسعين سنة غرقت فيها بالخلاعة والمجون والإباحية ،وهذه صفات مشينة إذا ما وزنت بمعايير الفضيلة التي يجب أن تتحلّى بها المرأة المسلمة .

وعَريب لم تحبّ أحداً ممن كان له علاقة بها من الخلفاء والرؤساء ،وإنما كانت تتلهّى بقلوبهم ،وتتلاعب بعواطفهم ،وأكثر ما قالته من شعر كان فــي أحــد الخدم وهو صالح المنذري وكانت قد أحبّته وتزوجته بعض الوقت ،والثاني محمد بن حامد احد قواد المأمون في خراسان، أما المنذري الخادم فقد ابتعد عنها قليلاً ،لان الخليفة المتوكل أرسله في مهّمة إلى مكان بعيد،فاشتاقت إليه وقالــت فيــه شعراً وصاغته لحناً:

أما الحبيب فقـــــد مضـــــــــى بالرغــم مني الرّضـــــــــــــا
أخطـــــــــأت في تركي لـــــــــه لم ألق عنـــــــه عوَضـــــــــا[3]

وأما عشيقها الأصهب الشعر الأزرق العينين محمد بن حامد فإنها وهبتــه قلبها، ومنحته حبّها وتغزلت به كما لو كان امرأة جميلة، تقول:

يأبـــــى كـــــــــلّ أزرق أصهب اللون أشقـــــــــــر
جنّ قلبي به وليس جنوني بمنكَرِ[4]

---

[1] الأغاني ج٢١/٨٧ .
[2] انظر : الغناء في قصر المأمون ص ١٦٩ .
[3] الأغاني ج ١٨/ ١٨٩

والباحث يظن أن عشّاقها ومحبيها لم يكن يخفى عليهم تهتكّها وعلاقاتها المشينة بهم وبغيرهم ،ولذلك تراها تدفع عن نفسها تهمة الخيانة فتقول :

وَيلي عليك ومنكا أوقعت في الحبّ شكاّ
زعمت أني خؤون جوراً عليّ وإفكا
إن كان ما قلتَ حقاً أو كنت أزمعت تركا
فأبدل الله ما بي من ذلّة الحبّ نسكا [1]

ومجمل القول في عريب على حد تعبير د. مصطفى الشكعة أنها واحدة من الشاعرات القيان اللائي شغلن الدولة العباسية بخلفائها ورؤسائها وقوّادها وعمّا لها فترة طويلة من الزمان، وهي من ناحية الغناء تمثل مكانة تسمو على مكانة جميلة وعزّة الميلاء في الحجاز ،وأما في الشعر ،فان قدرها – كما هو واضح من مقطوعاتها التي ذكرنا ليس من النفاسة بحيث يشارك الرواة وأصحاب الأخبار والطبقات في انه في مرتبة سامية أو منزلة عالية ، وإنما يندرج تحت ما يمكن أن نطلق عليه شعر القيان[1]،وهو شعر مستهلك ليس له أية قيمة أدبية ، لان عناصر خلود الأدب تكمن في جمال التعبير، وصدق الشعور وبراعة التصوير ،وقوة التأثير وإذا كان في شعرها بعض هذه العناصر فانه يفتقد إلى بعضها الآخر الأمر الذي يجعله في مستوى صاحبته الخلقية .

ب- عِنان الناطفية (ت ٢٢٦ هـ)

شاعرة من أشهر شواعر القيان ،وهي من مولدات اليمامة ، وقيل من المدينة اشتهرت ببغداد ، وتميزت بفصاحتها وبلاغتها وسرعة بديهتها وحدّة خاطرها ،وقد وصفها أبو علي القالي في أماليه فقال : عنان الشاعرة اليمامية

---

[٤] الأغاني ج١٨/١٨٠
[١] الأغاني ج١٨/١٨٣ وانظر الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٧٨ .
[٢] الشعر والشعراء ص ٤٧٩ .

،كانت بارعة الأدب ،سريعة البديهة وكان فحول الشعراء يساجلونها فتنتصف فيهم[٢] كان العباس بن الأحنف يهواها، ولها أخبار معه ومع أبي نواس وغيرهما.

كان مولاها الناطفي منحرفاً في أخلاقه ، يروي بكر بن حماد الباهلي يقول: لما انتهى إليّ خبر عنان ،وأنها ذكرت لهارون،وقيل له : أنها اشعر الناس خرجت معترضاً لها، فما راعني إلاّ الناطفي مولاها قد ضرب على عضدي، فقال لي : هل لك فيما سَنَحَ من طعام وشراب ومجالسة عنان؟ قلت : ما بعد عنان مطلب ،ومضينا حتى أتينا منزله ، فعقل دابته ، ثم دخل ،فقال : هذا بكر شاعر باهلة ، يريد مجالستك اليوم فقالت ،لا والله إني كسلانه ، فحمل عليها بالسوط،ثم قال لي : ادخل فدخل ودمعها يتحدّر كالجمان في خدّها فطمعت بها فقلت:

هذي عنان أسبلت دمعها ... كالدرّ قد توبعَ في خيطه[١]

ثم قلت لها : أجيزي ، فقالت :

فليت من يضربها ظالماً ... تجفّ يمناه على سوطه

فقلت لها : إن لي حاجة ،فقالت : هاتها ،فمن سببك أوذينا ،قلت لها : بيت وجدته على ظهر كتابي لم أقرضه ،ولم اقدر على إجازته ، قالت : قل : فأنشدتها:

فما زال يشكو الحبّ حتى حسبنه ... تنفّس من أحشائه وتكلّما

قال : فأطرقت ساعة ثم أنشدت :

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه ... إذا ما بكى دمعاً بكيت له دماً

فقلت لها : فا عندك في اجازة هذا البيت:

بديع حسنٍ بديع صدٍّ ... جعلت خدّي له ملاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت :

---

[٣] الأمالي ج١/٢١٤ ، ٢١١ وانظر: سمط اللآلي ج١/٥٠٠

[١] ورواية هذا البيت واجازته أورده صاحب كتاب شاعرات العرب (ص٢٨٠) على لسان بكر بن حمادالباهلي ، وكذلك صاحب العقد الفريد ج٧/٦٣ ، ٦٤ وأورده د. الشكعة على أن الذي دخل على عنان الشاعر مروان ابن أبي حفصة وطلب إليها اجازة البيت :
بكت عنان فجرى دمعها ... كالدرّ قد توبع في خيطه ... انظر : الشعر والشعراء ص ٤٦٨ .

فعاتبــــــــوه فعنّفــــــــــوه فأوعــــــــدوه فكان مــــــاذا؟

كان مولاها الناطفي كما رأينا يجمع لها الشعراء في بيتـه علـى موائـد الخمر، ويناشدونها الأشعار وتناشدهم، وشعرهم يومئذٍ ما بين شعر عفّ وآخـر بذئ من غير تأثم أو حياء، وقد شغلت عنان الأدباء والشعراء في بغـداد علـى عصر الرشيد من مثل أبي نواس، ودعبل الخزاعي ، ومروان بن أبي حفـصه ، والعبّاس بن الأحنف ،واليزيدي الحميري مؤدب المأمون ،وأبي النـضير شـاعر البرامكة وأبي زهير رزين العروضي الشاعر نزيل بغداد[٢]، فـضلاً عـن بعـض الأعراب الذين كانت المصادفات تلقي بهم في نادي مولاها لمطارحتها الشعر. بل لقد كان على رأس هؤلاء جميعاً الخليفة الرشيد نفسه الذي هـمّ بـشرائها مـن صاحبها ذات يوم ثم رأى أن يرجع عن قوله ، غير أنه ما لبث أن اشتراها بعـد عدة أعوام بعد موت الناطفي ودفع فيها مسرور الخادم في المزايدة على شـرائها مائتين وخمسين ألف درهم، وتقول رواية القالي [١]: إن الرشيد أولدها ولدين ماتا صغيرين ،والخبر عندي موضع شكّ إذ ليس معقولاً أن يتزوج الرشيد جارية غير عفيفة، لا تقيم وزناً لأدب أو دين أو خلق، قالت ترثي الناطفي :

يا موت أفنيت القرون ولم تزل	حتى سقيت بكأسك النطّافـــــا
يا ناطفيّ وأنت عنّا نـــــازح	ما كنت أول من دعوه فوافـــي

لقد كانت عنان بما تميزت به من طبيعة انثوية جمالاً وشباباً،وبما تمتلكه من استعدادات فطرية ذكاء وموهبة وحدّة خاطر ،ورغبة جامحة نحو الانحـراف السلوكي من مجون وخلاعة ، كلّ ذلك كان يشكلّ لدى المجتمـع الـذي عاشـت فيه،والذي كان يشغله الشعر والموسيقا والغناء والشراب ،كان يشكّل سـمة مـن أهم سماته،في التطلّع نحو هذه الجارية وبخاصة إذا كان مولاها ممـن يتـاجرون بالرذيلة ويغضّون الطرف عما لا ينبغي لكرام الناس أن يغضوا الطرف عنـه[١] ، حدّث صاحب الأغاني أن عنان كانت تكتب على عصابتها بالـذهب: " لـيس فـي

---

[٢] الأغاني ج٢١٤/١ ، ٢١١ ، وانظر : سمط اللآلي ج٥٠٠/١

[١] الامالي ج ١ / ٢١٤، ٢١١ وانظر سمط اللآلئ ج ١/ ٥٠٠

العشق مشورة"[٢]ولعلّ في عرض هذا الشعار أمام الناظرين ما يدفع بعضهم لمراودتها عن ما لا يحسن الظنّ، الأمر الذي شجّع الشعراء المجّان أن يكاتبوها بشعر كل معانيه مجانة وانحلال مثل ما فعل أبو النضير[٣] ولعنان قدرة عجيبة على اجازة أي بيت من الشعر مهما كانت جودته ، ومهما كان قائله بشعر إن لم يفقه طرافة معنى أو براعة صياغة، فانه لا يقصر دونه،ثم هي بعد ذلك لها من أصالة القول ما يجعلها تقول شعراً فخماً جزلاً تستطيع أن تواجه به الفحول من الشعراء من غير تردد أو وجَل ، فلقد فعلت ذلك عندما هجت أبا نواس بأبيات موجعة ، سلكت فيها مذهب بشّار،نذكر منها البيت الأول ونعفّ عن بقيّتها :

مت متى شئت قد ذكرتها في الشعر　　　وجرّر أثواب ذيلك فخراً[٤]

ومن طرائف شاعرية عنان أن رزين العروضي الشاعر دخل على عنان وعندها أعرابيّ فقالت له : يا عمّ جاء الله بك على حاجة، فيقول لها ما هي ؟ فتقول هذا الأعرابيّ يسألني أن أقول بيتاً ليجيزه، وقد عسر عليّ الابتداء، فابتدئ أنت عليّ فقال رزين:

لقد قلّ العزاء فَعيل صبري　　　غداة حمولهم للبين زمّتْ

فقال الأعرابي :

نظرت إلى أواخرها ضحيّاً　　　وقد رفعوا لها عصبا فرنّتْ

فقال عنان :

كتمت هواهم في الصدر منيّ　　　على أن الدموع عليّ نمّتْ

ويعلق رزين على ذلك فيقول : فكانت عنان أشعرنا [١].

ولعلّ أطرف ما يروى عن عنان أن الرشيد جلس ذات ليلة مع سمّارة فغنّاه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير حيث يقول:

إن الذين غدوا بلبّك غادروا　　　وشلاً بعينك لا يزال مَعينا

---

[٢] الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٧

[٣] الأغاني ج ١١/ ٢٦٨ .

[٤] الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٨ نقلاً عن الورقة ص ٤٢ .

[١] الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٦٩ نقلاً عن الورقة ص ٤٢ .

فطرب الرشيد طرباً شديداً ،وأعجب بالأبيات وبغنائها وقال لجلسائه : هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهّن ،وله هذه البدرة، وكان بين يديه بدرة من الدنانير، فلم يصنع جلساؤه شيئاً، فقال خادم على رأسه : أنا لك بهـا يـا أميـر المؤمنين ،قال الرشيد: شأنك ، فاحتمل البدرة، ثم أتى الناطفيّ فقال له : اسـتأذن لي على عنان، فأذنت له ، فدخل وأخبرها الخبر، فقالت : ويحَك ! وما الأبيـات ؟ فأنشدها إياها فقالت له : اكتب :

هيّجـت بالقول الذي قد قلته ... داء بقلبي ما يزال كمينـاً

قد أينعت ثمراته في حينهـا ... وسقين من ماء الهوى فروّينـا

كذب الذين تقوّلوا يا سيـدي ... أنّ القلوب إذا هّويـن هّوينـا

فقالت له : دونك الأبيات ، فدفع إليها البدرة ورجع إلى الرشيد، فقال له: ويحّك! من قالها ؟ قال : عنان ، جارية الناطفيّ ،ويروي الأصمعي قـائلاً : مـا رأيت الرشيد متبذلاً قطّ إلا مرة ،كتبتْ إليه عنان جارية الناطفيّ رقعة فيها :

كنت في ظلّ نعمةٍ بهواكـا ... آمناً لا أخاف جفاكـا

فسعى بيننا الوشاة فاقـرر ... ت عيون الوشاة بي فهناكـا

ولعمري لغير ذا كان أولـى ... بك في الحقّ يا جعلت فداكـا

قال : فاخذ الرقعة بيده ، وعنده أبو جعفر الشطرنجي، فقال : أيكم يـشير إلى المعنى الذي في نفسي فيقول فيه شعراً وله عشرة آلاف درهم ، فظننت انـه وقع بقلبه أمر عنان فبدر أبو جعفر:

مجلس ينسب السرور إليـه ... لمحبّ ريحانـه ذكراكـا

فقال : يا غلام ، بدرة ! قال الأصمعي : وقلت :

لم ينلك الرجاء أن تحضرينـي ... وتجافت أمنيّتي عن سواكـا

قال : أحسنت والله يا أصمعي ،لها ولك بهذا البيت عشرون ألفاً [1].

---

[1] العقد الفريد ج٦٣/٧

وعنان شاعرة متمكنة قديرة ، إذا ما عالجت صناعة الشعر أو عمل القصيد، وما من شاعر طارحها في قول، وكانت في منزلة أقلّ مما سمعت، أنشدها أبو نواس قول جرير:

ظللت أواري صاحبيّ صبابتي قد علقتني في هواك علوق

فقالت : إذا عقل الخوف اللسان تكلمت بأسراره عين عليه نطوق

ولها مطارحات أخرى مع أبي النضير الذي كان يهواها ، فكتب إليها شعراً يطلب منها أن تلقاه فأجابته :

أنا مشغولة بمن لست أهواه وقلبي من دونه في حجابِ

فإذا ما أردت أمراً فأسرره ولا تجعلنّه في كتابِ

وأما الشعر الذي عمدت فيه عنان إلى انتهاج الأسلوب الجزل مقلّدة فيه فحول الشعراء، فقصيدتها في مدح يحيى بن خالد البرمكي حيث تقول:

نفي النوم عنيّ الكري حول القصائد وآمال نفسٍ همّها غير نافدِ

إذا ما نفى عنيّ الكرى طول ليلة تعوّذت منها باسم يحيى بن خالدِ

وزير أمير المؤمنين ومن لَه فعالان من حمد طريفٍ وتالد

من البرمكييّن الذين وجوههم مصابيح يطفي نورها كل واقدِ

على وجه يحيى غـرّة يهتدى بها كما يهتدي ساري الدجى بالفرقد

تعوّد إحساناً فأصلح فاسداً وما زال يحيى مصلحاً كلّ فاسدِ

وكانت رقاب من رجال تعطّلت فقلّدها يحيى كرام القلائدِ

على كلّ حيّ من أياديه نعمةٌ وآثاره محمودة في المشاهد

حياضك في المعروف للناس جمةٌ فمن صادر عنها وآخـرَ واردِ

وفعلك محمود وكفّك رحمة ووجهك ضوؤه غير خامد[1]

---

[1] طبقات الشعراء ص ٤٢١ وانظر : الشعر والشعراء ص ٤٧١ .

هذه هي عنان الشاعرة الفذّة التي كانت من أشهر جواري عصرها فصاحة وبلاغة وسرعة بديهة وقد ارتقت بشعرها إلى درجة من الإبداع مكّنتها أن تطاول الفحول من شعراء عصرها من مثل أبي نواس ،ومروان بن أبي حفصة والعباس بن الأحنف ودعبل الخزاعي وبكر بن حماد الباهلي وأبي زهير رزين العروضي ،وأضرابهم من الشعراء المتقدمين من مثل جرير، وهي في مساجلاتها للشعراء ومطارحاتها لهم قدحت زناد قرائحهم وأثبتت أن المرأة الشاعرة حرّة كانت أو جارية ، لا تقلّ عن الرجل الشاعر إبداعاً واقتداراً لان الموهبة لا تميّز ذكراً من أنثى ، ولكنّ هناك فرقاً بين أدب النفس التي كانت منه عِنان عاطلاً بحكم بذاءتها وانحرافها عن جادّة الخلق الكريم الذي أغرقها فيه مولاها الناطفي وبين أدب الدرس الذي خلّد ذكرها فكتب عنها من كتب .

فضل الشاعرة (ت ٢٦٠ هـ)

فضل واحدة من القيان اللاتي يشار إليها بالبنان، وأضحت هي والقيان الأخريات محطّ الأنظار ، ذلك أن كثرتهن استدعت إعدادهن إعداداً فنياً وثقافياً ممتازين ، وذلك للمشاركة في الأدب والشعر والرواية والغناء والتلحين، فبرز منهن شاعرات مجيدات ومغنيات بارعات ، وحافظات للأصوات ونسبتهن إلى مبدعيهنّ متفوقات ، فأصبحت دورهن صالونات أدبية يقصدها رجالات الدولة من أمراء ووزراء وقواد ،وكلّهم حريص أن يزدلف إلى أبوابهن،فتمنحه إحداهن نظرة أو ابتسامة يطير بها فرحاً.

كانت "فضل "شاعرة من الشواعر المجيدات في العصر العباسي، ومن هؤلاء القيان اللائي عرفن بالفصاحة وسرعة البديهة ، والجمال والكمال على حدّ تعبير ابن المعتز، وفضل مولّدة من مولّدات البصرة، ولدت ونشأت في دار رجل من عبد القيس، ثم باعها بعد أن أدّبها وخرّجها فاشتراها محمد بن الفرج الرّخجي وأهداها إلى المتوكل.

وكانت هذه الشاعرة تتمتع بنفوذ واسع وجاه عريض، تقضي للناس حوائجهم وتشفع لهم ، كانت ذات علاقة بالوزير الأديب سعيد بن حميد احد كتّاب الدولة العباسية،ومن الطريف أن "فضل "كانت مغالية في تشيعها وسعيد بن حميد ناصبّي،ومع اختلافهما في المذهب إلاّ انهما ظلاّ على وئام وصفاء في علاقتهما.

وقد ذكر ابن المعتز أنها كانت تهاجي الشعراء، ويجتمع عندها الأدباء ، ولها في الخلفاء مدائح كثيرة وتميزت بقدرتها الفائقة على ارتجال الشعر ،واجازة بيت شعر ببيت مثله ، أو معنى بمعنى ، وعندما سألها المتوكل على الله في أول لقاء لها معه أشاعرة أنت؟ قالت : كذا يزعم من باعني واشتراني، فقال لها : أنشدينا ،فأنشدت على البديهة:

استقبل الملك إمام الهدى	عام ثلاث وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفرٍ	وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنّا لنرجو يا إمام الهدى	أن تملك الناس ثمانينا
لا قدّس الله أمرءاً لم يقل	عند دعائي لك آميناً[(١)]

لقد ارتبطت فضل بالمتوكل على الله ، وأصبح يطلق عليها جارية المتوكل، ومدحته بأشعار كثيرة لكنها لم تلق قبولاً لديه،نظراً لما كان ينشد بين يديه من روائع البحتري وغيره من صفوة شعراء ذلك الزمان.

أمام موضوعات شعر فضل فانه يدور حول الغزل والشكوى والغيرة واللوعة والصدّ والحرمان، إلى غير ذلك من المعاني التي تدور حول الغزل، شأنها في ذلك شأن معظم القيان وقليل من هذه الشعر كان في المدح أو الهجاء

---

(١) الأغاني ج ١٩/ ٢٥٨

ومن أمثلة سرعة بديهتها في الردّ على ما يطلب إليها أن تجيزه قول علـــي بن الجهم لها :[٢]

لاذبها يشتكي إليهـــــا فلم يجد عندهـــــا ملاذا

فأجابته على الفور : ولم يزل ضارعاً إليها تهطل أجفانـــــه رذاذا

فعاتبوه فزاد عشقــاً فمات وجداً فكان مــــاذا

ومن قولهـــــا : إنّ من يملك رقّـــي مالك رقّ الرقـــــاب

ولم يكن يا أحســـن العالم هذا في حسابـــــي

وألقى عليها بعض الشعراء قوله:

ومستفتحٍ باب البلاء بنظرة تزوّد منها قلبه حسرة الدهر

فأجابته مسرعة :

فوالله ما يدري أتدري بما جنت على قلبه أم أهلكته وما تدري

وأنشدها أبو دلف العجلي:

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم أشهى المطيّ إليّ ما لم تركبِ

كم بين حبة لؤلؤ مثقوبــــةٍ نظمت وحبة لؤلؤ لم تثقــبِ

فقالت فضل مجيبة له :

إن المطيّة لا يلذّ ركوبهـــــا ما لم تذلّل بالزّمام وتركــــبِ

والدّر ليس بنافعٍ أصحابـــه حتى يؤلّف للنظام بمثقـــــب[١]

ولكل من سعيد بن حميد وفضل شعر كثير كان يتبادلانـــه كلمـــا اشـــتاق احدهما إلى صاحبه ، يبثّ من خلاله وجده صبابته، من ذلك ما كتبته فضل إلـــى سعيد بن حميد تشعره انه الأثير الوحيد في حياتها:

وعيشك لو صرّحت باسمك في الهوى لأقصرت عن اشياء في الهزل والجدِّ

---

[٢] انظر : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٧٢

[١] الأغاني ج١٩/٢٥٨

ولكنني أبدي لهـــــــذا مودّتــــي وذاك وأخلو فيك بالبـــثّ والوجـدِ
مخافة أن يغـــــرى بنا قول كاشــحٍ عدوٍ فيسعى بالوصــــــال إلى البعدِ

فكتب إليها سعيد:

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي وأنهى جفوني أن تبثّك ما عندي
فان كنت لا تدرين ما قد فعلتــه بنا فانظري ماذا على قاتل العمد

وعلى عادة القيان العاشقات تحاول "فضل" أن تبوح بمشاعرها فتــشكو لوعةالحب ومرارة الوجد،وفرط الصبابة ، فتقول:

لأكتمنّ الذي بالقلب من حرقٍ حتى أموت ولم يعلم به النـــاس
ولا يقال شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هي إليــاس
ولا أبوح بشيء كنت أكتمـه عند الجلوس إذا ما دارت الكـاس

هذه المساجلات وأمثالها التي صدرت عن فــضل وجــرت بينهــا وبــين صاحبها سعيد بن حميد كانت مصدر نشاط لحركة الأدب في عصرها،ومثلما كانت فضل صاحبة موهبة في الشعر كانت صاحبة موهبة في النثر، فقد اعترف سعيد بن حميد بعد موتها : أن رسائله المدوّنة كانت من إنشائها[٢].

سكن الشاعرة ت ٢٣٥ هـ

إذا كانت كلٌّ من عنان وعَريب وفضل لم يعرفن بحسن السمعة ولا بطهارة الذيل، ولا بالبعد عن مواطن الشبهة والريبة ، بل على العكس من ذلك ، فقد كانت مباذلهنّ أشهر من أن تدفع عنهن ريبة أو تدرأ عنهن شبهة، فليس معنى ذلك أن هذا حكم عام يصدق على كل الجواري والقيان الشاعرات وغير الشاعرات، فقــد كنّ يتبعن سبل الغواية أو يجنحن إلى مزالق الانحراف، ووجد من هؤلاء القيــان الشاعرات من كان نصيبهن من الجمال وفيراً، وحظّهن من الأدب وقرض الشعر

---

[٢] طبقات ابن المعتز ص ٤٢٦ ، وانظر : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٧٥ .

كبيراً ، وقدرهن في الغناء جليلا ونصيبهن من العفة والطهـــارة عظيمـــاً ، ومثالهن على ذلك الجارية الشاعرة " سكن " التي تلفعت بالطهر وتأزّرت بالعفة .

وكانت " سكن " جارية للشاعر محمود بن حسن الورّاق ، الذي تميّز عن غيره من الشعراء الذين عاصروه بأنه اخلص وجهه لربّه ، بعد أن اخذ بخطّ من اللهو، وتدلّ اخباره على حسن عشرته لجواريه ، وأنهن كنّ لا يؤثرن عليه أحداً وهذه جاريته "سكن " واحدة منهنّ ، ولكنها أوتيت شطراً من الحسن تميزت بـــه عن قريناتها ، كانت شاعرة وكانت مغنية ، فملكت على الورّاق لبّه، وقد وصـــفها الحسن العلوي لعبد الله بن المعتزّ فقال عنها: أنها م أحـــسن خلـــق الله وجهـــاً، وأكثرهم أدباً وأطيبهم غناء ، تأتي بالمعاني الجياد والألفاظ الحسان" [1] ولمّا رقت حال الورّاق رأي أن يبيع جاريته المحبوبة ، ليوفّر لها خفض العيش عند غيـــره وتنافس على شرائها المتنافسون ، وعرض عليه احد الطاهريين مائة ألف درهم، فلما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع، فقالت : إني اختار عيشة الفقر معك، فرقّ لها وحرّرها وأصدقها داره، وكانت كل ما يملك .

وقيل عن " سكن " دسّت إلى المعتصم رسولاً لعلّه يشتريها وفاءً لمولاهـــا الذي ضاقت به الحال ، ولكن المعتصم خرق رقعتها التي أرســـلتها إليـــه ، ولـــم يلتفت إليها ،وانتهزت " سكن" الفرصة وبعثت إليه بقصيدة من جيدّ الشعر تعاتبـــه في لطف، وتعطيه درساً في الأخلاق الفاضلة ولكن في أدب جمّ ولياقـــة كريمـــة، وتنقد بعض أساليب الحكم ولكن في فطنة وحرص،وهي في نطـــاق هـــذا الإطـــار وتسدي إليه قدراً من المدح المنسوج بجمع من الألفاظ العذبة الإيقاع التي تـــشكل قافلة من المعاني السامية، فبدت القصيدة متماسكة وغير متهافتـــة ولا متخاذلـــة ،وإنما هي مما يستحوذ على إعجاب القارئ ويشنّف سمعه[1] تقول سكن:

ما للرسول أتاني منك باليـــــأس   أحدثتَ بعد رجاء جفوة القاســـــي
فهبك ألحقت بي ذنباً بظلمك لـــي   فما دعاك إلى تخريق قرطاســـــي

---

[1] طبقات ابن المعتز ص ٤٢٢- ٤٢٣ .

[1] انظر : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٨٠ ، وانظر: العصر العباسي الأول د . شوقي ضيف ص ٤٠٩ .

يا متبع الظلم ظلماً كيف شئت فكن	عندي رضاك على العينين والــرأس
إني أحبّك حبّاً لا لفاحشـــــــــــة	والحبّ ليس به في الله من بــــاس
قل للمشارك في اللذات صاحبهــا	ومدمن الكاس يحسوها مع الحاسي
إن الإمام إذا اوفى إلى بلـــــــدٍ	أوفى إليه بعمران وإينـــــــــاس
أما ترى الغرس قد جاءت أوائلــه	والعود نضر الذّرا مستورق كــاس
فأصبحت سرّ من رادار مملكــــة	مختطّة بين أنهـــــارٍ وأغــراس
يا غارس الاسي والورد الجنيّ بها	غرس الإمام خلاف الورد والآســي
غراسه كلّ عاتٍ لا خلاق لـــــه	عبلِ الذراع شديد البأس قنعـــاس
كبابك وأخيـــــه إذ سما لهما	بباترٍ للشوى والجيـــــــد خــلاّس
فذاك بالجسر نصبٌ للعيــون وإذا	بسرّ من را على سامي الذّرا راسي
وهكذا لم يزل في الدهر نعرفـــه	غرس الخلائف من أولاد عبّـــاس
شقاّ عصا الدين فاغترّوا بجهلهما	بعصبة شهرت في الحرب والبـــاس
وحاولا القدح في ملك الإمام ودون	الملك قد علما آساد أخيـــــــاس
في ظلّ معتقدٍ للدين معتصــــــمٍ	بالحقّ ، للغلب غلاّب وفــــــرّاس
ودونه غصص يشجى العدوّ بهــا	مثل المبارك أفشينٍ وأشنـــــاس
أما ترى بابكاً في الجوّ منتصبـــاً	على ململمة من صنعة النــــاس
بين السماء وبين الأرض منزلـــه	وقائم قاعاد جســـــــم بلا رأس[٢]

وهكذا اجتمع لسكن الشعر والوفاء والغناء والاستقامة .

ويتميز شعر النساء الشواعر ولاسيما القيان منهن بأنه شعر مقطعات في معظم الأحيان ، أبياته سهلة في تراكيبها ، يرتبط بالمناسبات الاجتماعية، يتــرجم عن أنوثة قائلاته متواضع في إبداعه وتحليقه، ولم يتطرق إلـى الموضـوعات الجادّة والقضايا الكبرى ، ولعلّ شعر عليّة من هذا الطراز.

[٢] وفيات الأعيان ج ٧/ ٥٦ ، ٥٧ .

أما شعر الحرائر فانه يتميز بأحكام الصنعة ، وطول النفس والارتفاع إلى مستوى الأحداث التي عايشنها، والجدّ في طرح الموضـوعات، ومـن هـذا الفريق : الفارعة بنت طريف، وولاّدة المهزمية ، وسكن جارية محمود الوراق.

لم يكن التفاعل في العصر العباسي مقصوراً على الشعراء الذكور وحدهم، بل إن المرأة الشاعرة انجذبت إلى هذا التفاعل ،سواء أكانت المرأة حرّة أو قينة، وكان لهذا التفاعل خطره على الحركة الشعرية، بحيـث صـار الـشعر متنـوع الأغراض متباين الأساليب، وظلت جذوره تمتد وتتعمق وأغصانه تمرع وتـورق حتى ظهرت واحات مزدهرة لهذا الشعر،ليس في بغداد وحدها، بل شمل الأمصار الإسلامية [1].

التصوف ورابعة العدوية

كانت عناصر الدولة في العصر العباسي تتألف من عرب وفرس وأتـراك وروم وزنج وغيرهم ، وقد صهر الإسلام هذه الجنسيات في بوتقة واحدة،ليصبح ميزان التفاضل فيما بينهم التقوى، وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو؛ فـان هـذه العصبيات تثور وكلّ يميل إلى جنسه أو مذهبه أو طائفته، سوا أكانـت سـنّه أو شيعة ، أو من مسلمين ويهود ونصارى، وكلها حركات تتموج بها دولة العباسيين وتتفاعل حيناً وتتأثر بهام مناحي الحياة السياسية والدينية والعلمية والاجتماعيـة وينشأ عنها المؤامرات السريّة، والقتال أحيانًا.

وكانت خزائن الدولة مفعمة بالأموال التي تصلها من الأقطار التابعة لها ، وراح الخلفاء العباسيون يتفننون في بناء قـصورهم ودورهـم وفـي زخرفتهـا وفرشها وأثاثها ،وكان تأثرهم شديداً بما وجدوه من آثـار كلدانيـة ، وآراميـة وساسانية في بنائهم لقصورهم وطرائز معيشتهم، ولعلّ حفائر سامراء شاهد عدل على ما وصلت إليه طرائقهم في بناء القصور والدور، وكان هذا البذخ الذي تمتع به الخلفاء وحاشيتهم من البيت العباسي ووزراؤهم وقوادهم وكبـار رجـالاتهم،

---

[1] بتلخيص عن الشعر والشعراء ص ٤٨٣ ، ٤٠٨

ومن لفّ لفّهم من العلماء والمؤدبين والشعراء والمغنيين له آثاره على المجتمع ، أما بقية الناس من العامة فلم يهملهم الخلفاء العباسيون بل على العكس اعتنوا بهم ،فقد أنشئوا ديواناً للبّر، وديواناً للصدقات،لمساعدة المعوزين ، وذكر الخطيب البغدادي [١] أن المهدي قسّم الأموال في سنة ١٦٤ هـ على بني هاشم ،ومشيخة القرشيين ومشيخة الأنصار والعرب والموالي ، وذكر أيضا انه اخرج ما في الخزائن ففرّقه حتى أكثر من ذلك وبرّ أهله وأقرباءه ومواليه ، وذوي الحرمة ، وأخرج لأهل بيته أرزاقاً لكلّ واحد منهم في كل شهر خمسمائة درهم [٢]، وذكر الاربلي في خلاصة الذهب المسبوك [٣]أن المهدي لما بنى (عيسا باذ) ونزلها أمر أن تكتب له أسماء أولاد المهاجرين والأنصار،ففرّق فيهم ثلاثة ملايين درهم،فأغنى كل فقير وجبر كل أسير وفرّج كل مكروب .

وذكر الطبري[٤] أن يعقوب بن داود وزير المهدي كان يدخل على المهدي ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمر الثغور، وبناء الحصون وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب ، وفكاك الأسرى ، والمحبّسين ، والقضاء عن الغارمين ، والصدقة على المتعففين. وجاء في مرج الذهب[٥] أن زبيدة زوجة الرشيد كانت تتفق على أهل القافة من المعروف الأموال الطائلة وهي التي أجرت عين زبيدة إلى مكة ، ولا يزال هذا المشروع من أعظم الخدمات الاجتماعية لحجاج بيت الله الحرام، وكانت كلفته مليوناً وسبعمائة ألف دينار، وقال ابن جبير[٦] في كلامه على طريق الحج : وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة ، هي آثار زبيدة ابنة جعفر وقد وزّع المقتدر خمسة عشر ألف دينار،على الهاشميين وأبنائهم وزاد في أرزاقهم ،وكانت أمة تتصدق كثيراً من وارداتها التي ربما بلغت مليون دينار في العام،وكانت تتفق على مصالح الحجاج

---

[١] تاريخ بغداد ج١٣/١٩٤ ،ج٥/ ٣٩٣
[٢] أصالة الحضارة العربية ص ٣٣٨ عن خلاصة الذهب المسبوك ص٦٦
[٣] المصدر نفسه ص ٣٣٨ .
[٤] الطبري ج ٩/ ٣٢٨
[٥] مروج الذهب ج ٤/ ٢٩٥- ٢٩٧
[٦] رحلة ابن جبير ص ٢٠٨ .

وترسل معهم إلى مكة الأطباء وخزانة للشراب ، وكانــت تتعهــد بإصـــلاح الحياض[٧] وكان المعتضد يوزع خمسة عشر ديناراً لكل امرأة محتاجة من حــريم القصر، ويذكر ابن كثير أن المقتدر لما ختن أولاده ختن قبلهم ومعهم خلقــاً مــن اليتامى وأحسن إليهم بالمال والكساوى وقد كلّفه هذا الختان ستمائة ألف دينار [٨] وكان ابن الفرات يجري على خمسة آلاف من المحتاجين جرايات أقلّهــا خمــسة دراهم في الشهر، ونصف قفيز من الدقيق إلى عشرة أقفزة ومئة دينار، وما بين ذلك وكان يوزّعها على أهل العلم والدين والفقراء، كما كان يفرّق علــى طــلاب الأدب مالاً ، وعلى من يكتب الحديث مثله، وفرّق على الشعراء مالاً وقــال: أنــا أولى من عاونهم على أمرهم [٩] وكان الوزير علي بن عيسى بن الجراح يجــري الأرزاق على الأئمة والقراء والمؤذنين [١٠].

بعد هذه الجولة من مواقف خلفاء بني العباس ووزرائهم وبعــض نــساء الخلفاء منهم من الرعية، ومبلغ اهتمامهم بها ، نخلــص إلــى أن هنــاك فقــراً وحرماناً ، وان السواد الأعظم من الناس كان يعاني مــن شــظف العــيش، وان الخلفاء العباسيين كانوا بحوراً فيّاضة ينهل منها العلمــاء والفقهــاء والــشعراء والقرّاء وطلاّب العلم وطلاّب الأدب والمؤذنون والفقراء، غير أنه في الوقت نفسه كان هؤلاء الخلفاء يروّحون عن أنفسهم بالسماع للمغنيين والمغنيــات، لان مــن الطبيعي جداً أن وفرة المال يتبعه الترف والاستمتاع والأخذ بأسباب النعــيم فــي المأكل والمشرب والملبس والمسكن، يضاف إلى ذلك كثرة تدفق الجواري والقيان في هذا العصر كثرة مفرطة بسبب انتشار تجارة الرقيق في العالم وبسبب كثــرة الحروب وكان رقيق النساء أكثر من رقيق الرجال، فقد زخرت قــصور الخلفــاء والكبراء ودور النخاسة وأسواق الرقيق بالجواري والقيان وشغل بعــض النــاس بتعلّم الغناء ، واستقدموا المغنيات من الحجاز والغناء صنو الرقص فنــشأ عــن

---

(٧) أصالة الحضارة العربية ص ٣٣٩ .
(٨) البداية والنهاية ج١١/٢٣ .
(٩) وفيات الأعيان ج٣/ ٩٨- ٩٩
(١٠) تجارب الأمم ج١/١٥٢

كثرة الأموال بين طبقة الكبراء انصرافهم إلى سماع الغناء والاستكثار مـــن الجواري ،وتعاطي شرب النبيذ الذي حلّله بعض الفقهاء إذا طبخ أدنـــى طـــبخ[١] وتحولت دور القيّانين إلى خمارات ومراكز للقصف والعزف والمجون،ولكن ذلك لا يعني أن الحياة في بغداد كانت كلها مجوناً وتهتكاً وإقبالاً على الفجـــور والعهـــر والزندقة ، بل إذا وحد شيء من ذلك فقد كان لدى فئة قليلـــة إذا قيـــست ببقيـــة المجتمع، فكان يقابل الانغماس في اللهو والمجون والتهتك في المجتمع، الـــسواد الأعظم من الناس الذي لا يعرف زندقة ولا مجوناً ولا ترفاً بـــل كـــانوا مـــسلمين يهتدون بهدي الإسلام ويجرون على ســـنّته ، وإذا كانـــت حانـــات الكـــرخ ودور النخاسة ودور المقيّنين قد اكتظت بالجواري والإماء والقيـــان والمغنـــين فـــان مساجد بغداد كانت عامرة بالعبّاد والنساك والزهّاد وأهل الصلاح والتقوى ففـــي كل ركن منها حلقة لواعظ، يذكّر بالله وباليوم الآخر ، فعمرو بـــن عبيـــد وعـــظ المنصور ، وصالح بن عبد الجليل وعظ المهدي، وابن السّماك وعـــظ الرشـــيد، وغيرهم كثير [٢]. في هذا الجو الذي غلب على ســـواده الأعظـــم الفقـــر انتـــشر التصوف والزهد،وكثر المتصوفون والزهّاد الذين يحيون حياتهم بتبتـــل وتقـــشّف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملاذّها ، والانصراف عن كل نعيم زائل انتظـــارًا لما أعدّ الله لعباده [٣] في هذا الجو ظهرت رابعة العدوية.

رابعة العدوية ت١٣٥ هـ / ٧٥٢ م

إذا كانت "سكن "جارية محمود بن الحسن الـــورّاق قـــد خرجـــت علـــى المألوف الذي اعتادته الجواري الشاعرات وغير الشاعرات ممن ســـبق الحـــديث عنهن ،من حيث ارتماؤهن في أحضان الرذيلة، ومجاهرتهن بالتهتّك الصراح، فان "سكن "ظلّت مثلاً أعلى للجارية التي تلفعت بالطهر وتردّت بالفضيلة على جمالٍ

---

(١) ضحى الإسلام ج١/١١٩

(٢) انظر : العقد الفريد ج ٣/ ١٦٤ وعيون الاخبار ج٢/٣٣٣ والطبري ج٦/٥٨٣ .

(٣) انظر : العصر العباسي الأول من ص ٨٣- ٨٨ .

في خلقتها ووفاء عظيم لمولاها، وهذه رابعة انخلعت من زخارف الدنيا وإستبرق الحياة ،وقبعت في محرابها عابدة متبتلة ناسكة، سالكة ، طريق الانقطاع إلى المولى - سبحانه وتعالي بقلب خاشع منيب.

هي رابعة بنت إسماعيل العدوية، بصرية ،زاهدة ، عابدة، قيل عنها أنها مولاة آل عتيك ،وآل عتيك بطن من قيس ، وآخرون يرون أنها من آل عتيق وآل عتيق من بني عدوة، ولذلك تنسب إليهم بقولهم : رابعة العدوية، كانت امرأة صالحة مشهورة من أهل البصرة ومولدها بها ، كانت تصلّي أكثر الليل ،وتنام أقلّه ، فإذا وثبت من مرقدها خاطبت نفسها بقولها : يا نفس كم تنامين والى كم تنامين ؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلاّ لصرخة يوم النشور ،وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت، من وصاياها: -

اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم، ولما حضرتها الوفاة، دعت خادمتها "عبيدة" وقالت لها : يا عبدة لا تؤذني بموتي وكفنيني في جبتّي هذه وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون، فكفنتها عبدة في تلك الجبّة، وفي خمار صوف كانت تلبسه، ودفنت في بيت المقدس سنة ١٣٥ هـ[١] وقيل دفنت في البصرة سنة ١٨٥ هـ.

من شعرها قولها في الذات الإلهية :

يا سروري ومنيتي وعمادي	وأنيسي وعدّتي ومرادي
أنت روح الفؤاد أنت رجائي	أنت لي مؤنس وشوقك زادي
أنت لولاك يا حياتي وأنسي	ما تشتّت في فسيح البلاد
كم بدت منّةٌ وكم لك عندي	من عطاء ونعمة وأياد
حبك الآن بغيتي ونعيمي	وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك يا حبيب براحٌ	أنت منّي مكمنٌ في الفؤاد
إن تكن راضياً عليّ فإني	يا منى القلب قد بدا إسعادي

[١] انظر : وفيات الأعيان ج١٨٢/١ .

والنص كما نلاحظ لا يتحدث عن شيء من متاع الدنيا، وإنما يتحدث عن حبّها للذات الإلهية التي ملك عليها حياتها، وأقطار نفسها ، فالله سبحانه انسها ومرادها الأسمى،وعدّتها في حياتها، وملاذها ورجاؤها ، وهي دائمة الشوق للقائه، وانه لولا حبّها لله ما عاشت حياتها مشتتة، وأنها تدين لله بمننه الكثيرة عليها، وعطائه لها، وأنها لا تطمع في شيء من حطام الدنيا سوى أن يظلّ مولاها راضياً عنها ، لان رضاه عنها منتهى سعادتها وغاية مبتغاها .

خطبها الإمام الحسن البصري على ما أورده صاحب شاعرات العرب،والحسن البصري رضي الله عنه توفي سنة ١١٠ هـ وهي توفيت سنة ١٨٥ هـ أو ١٨٠ هـ فكيف ساغ ذلك؟ وتقول رواية خطبته لها ا نها ردّته وقالت له :

راحتي يا اخوتي في خلوتي	وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً	وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه	فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثمّ رضي	واعنائي في الورى واشقوتي
يا طبيب القلب يا كلّ المنى	جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري يا حياتي دائماً	نشأتي منك وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي	منك وصلاً فهو أقصى منيتي(١)

فرابعة لا تأنس بالرجال ،ولا تحب التقرب إليهم ،ولا معاشرتهم ، لأنها مشغولة بما هو اكبر من التمتع بالزوج والولد ومتاع الدنيا، مشغولة بحبها لله الذي لا يفارقها ، وحبّها له يعوّضها عن حبّها للناس وحبّ الناس لها ،فهي في غنية عن الخلق ومحبتهم، ولكنها ليست غنية عن محبة خالقها ، لتظل تستمتع بهذا الحبّ، وتشاهد آثار حسنه في صلاتها وتوجّهها نحو القبلة ، وغايتها في حبها أن يرضى ربّها عنها وإذا ماتت ولم تتحقق أمنيتها فيا طول شقوتها

---
(١) شاعرات العرب ص ١٢٦.

وتعاستها، فهو طبيبها الذي يداوي أسقامها، ووصله يشفي قلبها لأنه سرورها الدائم، ومن أجله هجرت الخلق لتنعم بوصله.

واختم الحديث عن هذه الشيخة العابدة الزاهدة بقولها:

أحبّك حبيّن حبّ الهوى	وحبّاً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حبّ الهوى	فشغلي بذكرك عمّن سواك
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لي الحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاك [١]

وأخيراً يظل محور حديث رابعة عن الحب الإلهي ،وأنها تحب الله – سبحانه - حبيّن حباً لأنها تهواه في كماله وجماله ، وهي دائمة الذكر له ، دون سواه، وحباً لأنه يستحق الحب فهو الذات الواجب الوجود، الذي له في كل شيء آية تدل عليه،وهي لا تحمد نفسها في هذين الحبيّن بل الحمد لله أولاً وأخيراً.

ويبقى شعر رابعة العدوية في إطار شعر القيان الذي يتميز بأنه شعر مقطعات، ألفاظه سهلة، وتراكيبه رائقة ، ويصدر عن عاطفة صادقة مفعمة بحب الذات الإلهية ، وينساب بعفوية سمحة، ومما يميز شعرها عما سواه من أشعار القيان الصدق النفسي، والاتجاه نحو غرض واحد من غير تزلّف إلى خليفة أو أمير.

---

[١] شاعرات العرب ص ١٢٦ .

الخاتمـــــة

الدّور التخريبي الذي أشاعه الأصبهاني في حديثه عن العصر العباسي وعن الخلفاء والمرأة بخاصة وصدى ذلك عند المستشرقين والمستغربين

ما من عصر من العصور يمكن أن يكون له جانب واحد، فلكلّ عصري جوانبه المتعددة، وهذا أبو الفرج (علي ابن الحسين بن محمد بنأ ... بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (٢٨٤ -٣٥٦هـ) صورّ لنا في كتابه الأغاني أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً متهتكاً ، منصرفاً بكليته إلى المجون والخلاعة بدءاً من الخليفة وحاشيته وانتهاء بمن يعيشون في أحضان الفقر، لا همّ لأحدهم إلاّ الاستمتاع بلذائذه ومعاقرة النبيذ والخمر حتى الثمالة، واحتضان الجواري ومعابثتهن والتهالك على اصطناع العلائق المحرّمة معهن ومع الغلمان آنذاك.

وزاد الطين بلّةً أن خلفاء بني العبّاس وبعض أولادهم في نظر أبي الفرج كانوا مغنين وأصحاب صنعة في الغناء والموسيقا، فإبراهيم بن المهدي عالم بالغناء ومغنٍ وصاحب شركة قيان، وعليّة بنت المهدي مغنية وعالمة بالغناء ،ويعقوب بن المهدي أحذق الناس بالغناء، وأحمد بن الرشيد المكنّى بأبي عيسى أو هو صالح بن الرشيد كان مغنياً ماجناً وصاحب صنعة في الغناء، والواثق بالله بن المعتصم عالم بالغناء ومغن،والمنتصر بالله ابن المعتصم عالم بالغناء ومغن، والمعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل عالم بالغناء وصاحب صنعة ،والمعتضد عالم بالغناء وصاحب صنعة فيه [1].

فهؤلاء الخلفاء وعليّة بنت المهدي خرّجهم الأصفهاني من معاهد متخصصة في الفن والغناء، وليسوا خلفاء عليهم جلال الخلافة وهيبتها ،وهل يصدّق عاقل أن خلفاء رسول الله كانوا على هذه الشاكلة من السقوط والانحراف والتبذّل؟!

---

[1] الأغاني ج ٢٠/٩ ، ٤٩ ، ٥٠

وهل كان المجتمع العباسي متورطاً ومنصرفاً بكليّته إلى المجون والانحلال ويمارس ألوان الخلاعة والتهتك، كما وصفهم أبو الفرج وسار على هديه المستشرقون الحاقدون على الإسلام والمسلمين، ومن تبعهم من تلامذتهم من المستغربين الذين تربّوا على موائدهم ، وحملوا وجهة نظرهم ورددوها من غير تدبّر،ولا إعمال فكر وتنخيل؟ فلقد اعتمد هؤلاء جميعاً على ما كتبه أبو الفرج الذي قال فيه ابن الجوزي في كتابه " المنتظم في تاريخ الملوك والأمم " انه كان متشيعاً ومثله لا يوثق بروايته،فانه يصرّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ،ويهوى شرب الخمور، وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر" ،ونقل ابن شاكر في كتابه " عيون التاريخ " أن الشيخ شمس الدين الذهبي قال : رأيت شيخنا تقي الدين بن تيمية يضعّفه ويتّهمه في نقله ، ويستهول ما يأتي به[1]. ولقد قال عنه النوبختي إنه أكذب الناس ، لأنه يدخل سوق الورّاقين فيشتري منها كثيراً من الصحف ، ثم يحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلّها منها[2]. وهذا النقد تكرر على لسان السمرقندي صاحب كتاب بستان العارفين بأن أبا الفرج من أكذب الناس [3] .

فأبو الفرج أسرف كل الإسراف في تصوير الجانب اللاهي من حياة المجتمع في العصر العباسي كما بدا في كتاب الأغاني ، وأن الحياة في بغداد كانت عبثاً وخمراً ونساءً وغلماناً، والحقيقة أن الجانب المضيء من حياة المجتمع في العصر العباسي بدءاً بخلفائه وانتهاء بالناس العاديين ما يزال مضيئاً ، والحياة المستقيمة العامرة بالخلق القويم والالتزام بتعاليم الدين وإشراق العلم لم تخب ولم تتغير ولم تتبدل، ولم يتخلّ عنها أهلها في النصف الآخر من المجتمع العباسي ،وأن ردود الفعل كانت واضحة ، فعلى الطرف الآخر من المجتمع العباسي كان هناك ما يقابل الاستهتار والفسق والتهتّك ،وهو جانب الزهد الإسلامي الصادق ، وإذا كانت مجالس اللهو ودور القيّانين قد غصّت بالمجّأن والفسّاق والمستهترين

---

[1] الأغاني ج ١/ ١٨

[2] خصائص الأدب العربي ص ٩٧

[3] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج١/٣٥٥ .

واكتظت بالجواري المغنيات والمغنين، فان مساجد بغداد كانت عامرة بالعبّاد والزهّاد والنسّاك.

وإذا كان هناك في جانب التهتّك والتمجّن والتخلّع بشّار وأمثاله من الشعراء؛ فإنّ العصر العباسيّ حفلَ بعدد من الزهّاد والعبّاد والوعّاظ ليس بقليل ، منهم عمرو بن عبيد، الذي عرض عليه المنصور الدنيا فأباها ،وكان دائم الوعظ له ،ومنهم صالح بن عبد الجليل المرّي الذي وعظ الخليفة المهدي، وموسى بن سيّار الإسواري، وابن السمّاك الذي وعظ الرشيد، ومما وعظ به الرشيد قوله: " الدنيا كلّها قليل ، والذي بقي منها في جنب الماضي قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلاّ القليل" ومنهم أيضاً عمرو بن فائد والقاسم بن يحيى ،وقد ملأ هؤلاء وغيرهم المجتمع بالزهد والموعظة التي أخذت شكل التذكير بالله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب والنعيم والجحيم للصالحين والعاصين. وكان إلى جانب هؤلاء الزهّاد والوعّاظ حملة العلم من تلامذة أصحاب المذاهب الإسلامية وحملة الحديث النبوي الشريف ، كما كان للمعتزلة دور بارز ،فهم يعتمدون على العقل أولاً والنقل ثانياً،وقد دافعوا بمنطقهم العقلاني وقدرتهم على الحجاج عن الإسلام أمام خصومه من الملاحدة والزنادقة ،كما كان للإمام الحسن البصري ورابعة العدوية أثرهما المحمود في المجتمع العباسي آنذاك ، فقد أخذت فكرة التصوّف تتبلور في أواسط القرن الثاني الهجري على شكل الابتعاد عن مظاهر الدنيا المترفة، والعيش بتقشّف والانقطاع إلى عبادة الله،والتركيز كما يقول الباحث صلاح مهدي الزبيدي[1]على فكرة الطاعة المطلقة للذات الإلهية وصولاً إلى الصفاء الروحي ، وتمخّض عن هذه الدعوات ظهور أئمة للتصوّف على درجة عالية من التقوى كمعروف الكرخي في بغداد (ت عام ٢٠٠ هـ) وبشر بن الحارث (ت عام ٢٢٧ هـ) وظهر أثر هذه الأفكار[2] الداعية إلى الزهد والوعظ في المجتمع بعامة وفي الشعراء بخاصة ،فكان أبو العتاهية الذي كان في

(١)انظر : دراسات في الشعر العباسي للدكتور صلاح مهدي الزبيدي من ص ٢٥- ٣٦ .

(٢) انظر : ضحى الإسلام ج١/١٠٣- ١٠٩- وانظر : أمراء الشعر في العصر العباسي ص ١٧٢- ١٨١

بدء حياته منخلع العذار، منغمساً في اللذات ، فقد تزهّد وكثيراً ما كان يذكّر أصحاب السلطان بالموت وفناء كل شيء، ويدعوهم إلى التقشّف والقناعة ونبذ الملذات ، ومن زهده قوله:

إذا نكبات الدهر لن تعظ الفتى ... وأفزع منها لم تعظْه عواذلهْ
ومن لم يؤدبْه أبوه وأمّه ... تودبْه روعات الردى وزلازلهْ
فدع عنك ما لا تستطيع ولا تطع ... هواك ولا يغلب بحقّك باطله

ومن الشعراء الزهّاد محمود بن الحسن الورّاق ، يقول واعظاَ:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويعديهم داء الفساد إذا فسد
يعظّم في الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الأهل والولدْ

كما زهد أبو نواس في أخريات حياته ، وندم على ما اقترفت يداه من المآثم والشهوات ،قال منيباً إلى ربّه:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا ّمحسنٌ ... فمن الذي يدعو إليه المجرم؟
أدعوك ربّ ما أمرت تضرّعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم؟
مالي إليك وسيلة إلاّ الرجا ... وجميل ظنيّ ثم إني مسلم[٣]

على أنه من الحقّ أن نقول: إنّ بعض الذين تناول الأصفهاني الحديث عنهم كانوا متهتكين وكانوا يعاقرون الخمرة،ومن أخذ بجريرة الشرب أقيم عليه الحدّ، ثم رأيناهم قد ثابوا إلى رشدهم وأنابوا إلى ربّهم ، ولعلّ ما ذكر آنفاً عن أبي العتاهية وأبي نواس يدلّنا دلالة قاطعة كيف كان صاحب الأغاني يتسقّط الهفوات ويبرزها، ويغمض عينه عن ذكر الايجابيات، فأحمد أمين يلتمس العذر لأبي الفرج فيما حدّث به عن العصر العباسي الأول ، فهذا الباحث يرى أن المجتمع العباسي لم يكن كلّه من الأغنياء ولم يكن كلّه من الهازلين المترفين ، ولا كان العالم الإسلاميّ كلّه على شاكلة العراق، ولا كان العراق كلّه يحيا حياة

---

[٣] انظر : أمراء الشعر في العصر العباسي ص ١٤٥

بغداد، فالأخبار التي سردها أبو الفرج ربما كان فيها شيء من الصحة، ولكن الكثرة الكاثرة منها تدعو إلى الاستغراب،وفيها العجب العجاب من الخيال والاختلاق ، على نحو ما سمعنا من بعض العلماء الذين نقدوا المحدثين والقصاصين وعلى رأسهم أبو الفرج، فهو متّهم عندهم بالكذب، وأحمد أمين يرى أن كتاب الأغاني ألّف في طبقات المغنين ، "والمغنّون في كل عصر موطن اللهو وبيئة المجون" [١] ،والعذر قائم لأبي الفرج في نظر هذا الباحث ،ولكنه غاب أو لم يغب عن هذا الباحث أن أبا الفرج أموي الدم واللحم، وأنه من سلالة مروان بن محمد آخر خليفة أموي الذي دالت دولته على يد أجداد الرشيد وأن تشويه سمعة العباسيين في مجال الأدب والفن والغناء هو ردّ على ما قام به العباسيون من قتل لرجالات بني أمية الأحياء ، ونبش قبور الأموات باستثناء قبر الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – وبين يديّ كتاب أبي الفرج "مقاتل الطالبيين" وهو على ما أظن أن وراء تأليفه غاية أراد أبو الفرج أن يلمحها المنتسبون إلى عليّ بن أبي طالب وهي أن ما قتله الأمويون من الثائرين عليهم من العلويين اقلّ بكثير من الذين قتلهم العباسيون من أهل هذا البيت، ولتبقى نائرة العداوة قائمة بين البيت العباسي والبيت العلوي انتقاماً للأمويين الذين دالت دولتهم على يد العباسيين،وإلاّ كيف نفسّر ما حكاه أبو الفرج عن الرشيد الذي تحدث عنه الطبري [٢] فقال : كان الرشيد يصليّ في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علّة، وكان يتصدّق من صلب ما له في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، وكان يقتفي آثار المنصور، ويطلب العمل بها إلاّ في بذل المال، فإنه لم يرَ خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، ثم المأمون من بعده ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يحبّ الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب

---

[١] ضحى الإسلام ج١٠٣/١ .
[٢]

والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول : هو شيء لا نتيجة له ،وبالحرى يكون فيه ثواب، وكان يحبّ المديح، ولاسيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي"[١] هذا هو الرشيد الذي شوّه أبو الفرج صورته، حتى إذا تخيله امرؤ، تخيلّه وهو بين جارية ودنّ ، ولكن ابن خلدون فطن إلى شيء ذكره من كان قبله من مثل النوبختي وشمس الدين الذهبي وابن تيمية وهو أن أبا الفرج حريف في وضع الأخبار الكاذبة التي تتعلق بالملاذّ تقرباً إلى الكبراء يبالغون في الحديث عن أخبار الملاهي إغراء لهم بها واكتساباً من ورائها بالمال أو الجاه أو نحوهما [٢].

الرشيد الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً كما ذكر الطبري وأكدّه ابن خلدون في مقدّمته[٣] وما كان على الشاكلة التي رسمها له أبو الفرج ! لقد كان الرشيد من العلم والدين بمكانٍ مكين، لقرب عهده من سلفه، فلم يكن بينه وبين جدّه أبي جعفر المنصور بعيد زمن،وكان أبو جعفر بمكانٍ من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها، وهو القائل لمالك بن أنس حين أشار عليه بتأليف " الموطأ " : يا أبا عبد الله ، إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم منّي ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة ، فضع أنت للناس كتاباً ينتفعون به ،تجنّب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر، ووطّئه للناس توطئة... قال مالك : فوالله لقد علّمني التصنيف يومئذٍ.

ويتابع ابن خلدون حديثة فيقول: ولقد أدركه ابنه المهدي – أبو الرشيد هذا – وهو يتورع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال ،ودخل عليه يوماً وهو بمجلسه يباشر الخياطين في أرقاع الخلقان من ثياب عياله، فاستنكف المهدي من ذلك وقال : يا أمير المؤمنين :عليّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي ، فقال له: لك ذلك ،ولم يصدّه عنه، ولا سمح له بالإنفاق من أموال المسلمين ، فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة، وأبوّته وما ربّي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلّق بها، أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها [٤]؟ وقد كان

---

[١] تاريخ الطبري ج ١٦/٥

[٢] انظر : ضحى الإسلام ج١٠٣/١ .

[٣] مقدمة ابن خلدون ص ٢٠

[٤] مقدمة ابن خلدون ص ٢١

أشراف العرب في الجاهلة يجتنبون الخمر ويرون في شربها مذمّة، والرشيد وآباؤه عرف عنهم اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم، والتخلّق بالمحامد وأوصاف الكمال. وقد كانت حال الرشيد في اجتناب الخمر معروفة عند بطانته وأهل مائدته ،ولقد ثبت عنه انه أمر بحبس أبي نواس لما بلغه انهماكه في معاقرة الخمر حتى تاب وأقلع عنه، والشراب الذي كان يشربه نبيد التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها والأخبار التي أوردها أبو الفرج مرجوحة رواية ودرايةٍ ، لان أبا الفرج كان مجرّحاً غير معدول، فقد كان يتعاطى الخمر وعلاقته بالغلمان مشبوهة وشاذة ،وقد صرّح بها في قوله حين كان ينتظر علاماً يهواه، ويجتمع معه على الشرب والشطرنج:

يا من أظلّ بباب داره ويطول حبسي لانتظارهْ

وحياة طرفك واحوراره وجمال صدغك في مدارهْ

لاحلت عمري عن هواك ولو صليت بحرّ نارهْ

ويصرّح في مقطوعة أخرى كيف أن هذا الغلام الذي علقه جاءه ذات يوماً مستتراً عنده لان أباه قبض عليه فهرب الغلام ولاذ ببيت أبي الفرج، فقال أبو الفرج: فانا على غفلة إذ دخل في خفّ وإزار ، وكادت مرارتي تنفطر فرحاً ، فلقيته أقبّل رجليه وهو يضحك ويقول: يأتيها رزقها وهي نائمة ، هذا يا حبيبي بخت من لا يصوم ولا يصلّي في الحقيقة... وبتنا في تلك الليلة عروسين لا نعقل سكراً ،واصطبحنا وقلت هذه الأبيات :

بتّ وبات الحبيب ندماني من بعد نأي وطول هجران

نشرب قفصيّةً معتّقةً بحانة الشطّ منذ أزمان

وكلما دارت الكئوس لنا ألثمني فاه ثم غنّاني

الحمد لله لا شريك له أطاعني الدهر بعد عصيانِ[1]

---

[1] معجم الأدباء ج٤/ ٦٢- ٦٣

هذا هو أبو الفرج الذي ملأت قصصه وحكاياته التي يغلب عليها التلفيق والخيال خمسة وعشرين مجلداً ،يعاقر الخمرة بلا وَجل ، ولا يصوم ولا يصلّي ،وعشرته شاذّة ، فكيف يصدق فيما كتبه ، وهو أموي النسب شيعي الهوى، معتزليّ المذهب ،وكلها مدعاة للعجب وقد تدهش إذا ما سمعت قوله عن يحيى بن أكثم قاضي قضاة المأمون [٢] وقد كان أحد أعلام الدنيا، ،وقد اشتهر أمره وعرف خبره في علمه وفضله وسياسته لأمره ،وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ،واسع العلم بالفقه كثير الأدب ،حسن العارضة ، قائم بكل معضلة غلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً [٣]، فقد كان حاله وحال المأمون في ذلك من حال الرشيد ، شرابهم النبيذ، ولم يكن محظوراً عندهم، وأما السّكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون كما رآها العلاّمة ابن خلدون إنما كانت خلّة في الدين، ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ، ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة عطشان ، فقام يتحسس ويلتمس الإناء مخافة أن يوقظ يحيى بن أكثم ،فأين هذا من المعاقرة؟ وأيضاً فإن يحيى بن أكثم كان علية أهل الحديث، وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل ،وإسماعيل القاضي وخرّج عنه الترمذي كتابه الجامع، وذكر المزني الحافظ أن البخاري روى عنه في غير الجامع... فالقدح فيه قدح في جميعهم [١] ولم يقف أبو الفرج عند اتهام هذا الرجل بشرب الخمر والمعاقرة ، بل اعتمد على ما ينبزه المجّان الذين لا يخافون الله فيما يقولون ولا فيما يفعلون من ميله إلى الغلمان بهتاناً على الله وفرية على العلماء ، ويستندون في ذلك إلى أخبار القصّاص الواهية ، فانه كان محسوداً في كماله وخلّته للسلطان، وكان مقامه من العلم والدين منزّهاً عن مثل ذلك ، ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال : سبحان الله ،سبحان الله ! ومن يقول هذا ، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً وأثنى عليه إسماعيل القاضي، فقيل له ما كان يقال فيه ، فقال : معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذّب باغ وحاسد،وقال أيضاً : أبرأ

---

[٢] الأغاني ج ١٤/ ٤٥ ، و ج ١٥/ ١٩٧

[٣] وفيات الأعيان ج٦/ ١٤٧- ١٤٨

[١] مقدمة ابن خلدون ص ٢٢ .

إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان،ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديد الخوف من الله ، لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق فرمي بما رمي به ،وذكره ابن حبّان في الثقات، وقال : لا يشتغل بما يحكى عنه ، لأن أكثرها لا يصحّ عنه[٢] وأما ما لحق إسحاق بن إبراهيم الموصلي من التشويه والكذب والافتراء ومعاقرة الخمور ومعابثة الجواري ،فلا يقلّ عما لحق الرشيد والمأمون ويحيى بن اكثم على يد صاحب الأغاني ،يقول عنه ياقوت : " من وقف على الأخبار وتتبع الآثار ، علم موضعه ،وأما الغناء فكان أصغر علومه، وأدنى ما يوصف به وان كان الغالب عليه ، لأنه كان له في سائر علومه نظراء ، ولم يكن له في هذا نظير ،لحق فيه من مضى وسبق من بقي ، فهو إمام في هذه الصناعة ، على أنه كان اكره الناس للغناء والتسمّي به ، ويقول : وددت أني أضرب كلما أراد مني من يندبني أن أغنيّ وكلما قال قائل : إسحاق الموصلي المغنّي ، عشر مقارع ، ولا أطيق أكثر من هذا ، وأعفي من الغناء والنسبة إليه وكان المأمون يقول :لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس، وشهر به من الغناء لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأحقّ وأعفّ وأصدق تديّناً وأمانة من هؤلاء القضاة [٣] .

ومثلما طال التشويه والافتراء الخلفاء ومن كان في معيّتهم ، فقد ضخِّمت صورة المنحرفين الشاذين من الشعراء وصاروا علماً على عصر برمّته ، وكان وراء هذا الحكم ما وراءه من مؤامرات على الفكر الإسلامي والأدب العربي .

فمفهوم الشعر في الأدب العربي في صدر الإسلام وفي العصر الأموي و العصر العباسي وغيره من العصور مفهوم محدّد، يقوم على حرية القول،وصدق التعبير، وعمق الأداء ،في إطار القيم الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة ، بحيث تكون الأخلاق قيمة أساسية من قيمه، وكان حرياً بهذا الشعر أن يمضي في هذا الاتجاه صادق الأداء ، مترفعاً عن الإثم والمجون

---

[٢] مقدمة ابن خلدون ص ٢٣ .

[٣] معجم الأدباء ج ٢/ ١٢٩- ١٣٠

والإفحاش والتكشّف ؛ غير أن اتصال الأدب العربي بالأدب الفارسي القديم ثم اليوناني الإغريقي ، والتحام العنصر العربي بالعناصر الداخلة في الإسلام من غير العرب؛ دفع هذا الأدب إلى الانحراف والسير في طريق الضلال، ففسد النثر بالسجع والزخارف اللفظية ، كما فسد الشعر بالغزل الحسيّ والخمريات والدعوات الإلحادية من زندقة وغيرها إلاّ القليل من هذا الشعر وذاك النثر ، يمثّل التيّار الأول دواوين الشعراء المتهتكين أمثال أبي نواس قبل التوبة ومسلم بن الوليد وكتاب الأغاني ، ويمثّل التيار الثاني وهو الدعوة إلى الزهد والعفة والنّسك ، ما أورده الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وفي الجزء الثالث منه يقول: نبدأ باسم الله وعونه بشيء من كلام النسّاك في الزهد وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم "[1] .

وإذا كان الأدب العربيّ في العصر العباسيّ قد واجه موجه من التزندق والمجون والتفسّخ والانحلال بفعل اختلاط العنصر العربي بالعناصر الأخرى من فارسية ورومية ويونانية ... ،فما أشبه اليوم بالبارحة فبعض الذين التحقوا بالمعاهد والجامعات الغربية، وتلمذوا للمستشرقين حملوا أفكارهم ووجهات نظرهم في الأدب والنقد والفكر وذلك بفصلها عن الدين ، لكن هذه الرؤى والأفكار ، تتعارض مع الأدب وجذوره كما تتعارض مع ذاتيته الإسلامية العربية الخالصة، وتصادم مزاجه النفسي والعقلي ، لأنها غريبة الوجه واليد واللسان وتشكلّها آتٍ وفق مضامين الآداب الغربية.

على أن ابرز ما دعا إليه المذهب الغربي في مجال الأدب ، وحمل لواءه المستشرقون وتبنّأه، دعاة التغريب والهلهلة والانسلاخ والشعوبية ؛ هو أن يتحرر الأدب من طابع الأخلاق ،وليس عليه سبيل بعد ذلك إن صوّر الغرائز والأهواء ،وفجرّها ، من غير ما قيد إيماناً من دعاة التغريب أن الأديب حرّ ، وان الفنّ للفن وليس للقيم ولا للأخلاق أو الفكر ، ومن هنا بدأ هذا الاتجاه يسفر عن وجهه حين تناول طه حسين حياة بشّار بن برد وأبا نواس وغيرهما من شعراء

---

[1] البيان والتبيين ج ٣ /١٢٥

الإباحة في العصر العباسي، والتركيز في الحديث عن الجوانب الشاذّة من أحاديثهم وأسماؤهم على النحو الذي كتبه طه حسين في كتابه "حديث الأربعاء " والباحث لا يماري في أن ما نقل من تراث اليونان والفرس وما حمله دعاة الشعوبية من آراء منحرفة عن اللذات والجنس والإباحة مما حفلت به الفلسفات القديمة من يونانية ومجوسية ومانوية وغيرها قد أثّرت في الفكر الإسلامي وطعنته في خاصرته ، حين جنح إلى الغزل الحسّي والغزل بالغلمان وغيره من الانحرافات التي منى بها في فترات الاسترخاء أو في فترات الاضطراب الاجتماعي والسياسي التي اعترت المجتمع الإسلامي ، مما فسح المجال لدعاة التغريب والمستشرقين أن يتلقفوا ذلك وأن يعملوا أقلامهم في محاولة لتزييف طبيعة الفكر الإسلامي والأدب العربي [١]. وحاول دعاة التغريب أن يجعلوا من نماذج الشذوذ والانحراف لبعض الأدباء وثائق دامغة للحكم على الفكر الإسلامي والأدب العربي في تلك الفترة حكماً مطلقاً لزلزلة ثقة الأمة وحملة الفكر بالعصر العباسي والانجازات التي تحققت إبّانه ، وأنه كان عصراً فاسداً بما شاع فيه من صور الحياة الاجتماعية وما رسم فيه من مفهوم للحبّ والمرأة والغلمان،وإن وجدت بعض هذه الصور داخل المجتمع العباسي ، إلاّ أنها كانت تتحرك في حذر وتوجّس شديدين داخل مجتمع إسلامي يلفّه محيط واسع من الفكر الإسلامي في مختلف جوانبه من فقه وفلسفة واجتماع وتربية وتصوّف وعلم ، وقد وقف هؤلاء المجّان على حافة المجتمع منبوذين مذمومين ،وإن كان بعضهم قد أناب إلى ربّه وتاب. فكتاب الأغاني يعدّ الأصل الذي انطلق منه طه حسين في كتابه "حديث الأربعاء" ، غير أن ما ذهب إليه طه حسين في حديثه عن بشّار وأبي نواس وغيرهما من الشعراء لقي معارضة شديدة كشف الباحثون المنصفون عن أن هذا الاتجاه المنحرف عند هذه الفئة من الشعراء لم يكن مصدرها الأدب العربي ولا مفاهيم الإسلام ، وإنما انطلقت من مفاهيم شعوبية بحتة أرادوا من خلالها هدم مقومات الأدب العربي الأصيلة وإعلاء المفاهيم المجوسية والإباحية التي تحرر

[١] انظر : خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث ص ١٧٩ .

منها الأدب العربي بعد الإسلام ذلك انه ليس في مفهوم الأدب العربي ما قاله طه حسين حين قال : خسرت الأخلاق وربح الأدب [٢] وهذا الذي قال به طه حسين : " خسرت الأخلاق ..." يصوّر موقفه من أن الفنّ للفنّ ، وعنه شاع حتى صار تبريراً لكل تبذّل مقصود ،وحجة يسوقها بعض من يتسموّن بالفنانين لإضفاء نوع من المشروعية الزائفة على تناقضهم مع الدين والأخلاق القويمة كالذي وقفه طه حسين، ولم يكن دعاة العرب التغريب بمعزل في حياتهم الخاصة عما قالوا به وآمنوا ، فهم يريدون لأنفسهم ولغيرهم أن يتابعوا الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب كيفما شاءوا وأنهم يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التي قيّد الدين بها الناس، ويرى الأستاذ محمد الغمراوي:أن هذه الفئة من الدعاة إلى الفن العاري والأدب المكشوف يدعون للفنان والأديب حرية في القول والعقل لم يأذن الله بها لإنسان [١] ،وكان من أكبر الأخطار التي واجهت الأدب العربي من خلال المذاهب والنظريات الوافدة على أيدي دعاتها وحملة ألويتها :مسألة المصادر والرأي في كتب المحاضرات وما سجّله الرواة والقصّاصون من أخبار وهل تصلح كمصادر علمية يمكن الحكم عن طريقها على الأمم والمجتمعات حكماً صادقاً لا شبهة فيه أو لا تصلح؟

يرى الباحث مع غيره من الباحثين أنه من اليقين الذي لا شك فيه أن كتب المحاضرات وروايات القصّاص ليست مصادر علمية صحيحة ، وإنما هي مراجع زائفة اعتمد عليها خصوم الأدب العربي والفكر الإسلامي من أجل ترويج آراء كاذبة مضلّلة، ذلك أن هذه المؤلفات لم يكتبها علماء موثوق بهم، ولم تكتب وفق أصول العلم والبحث، وإنما كتبت للتسلية والترويح، وقصد بها جمع الفكاهات والأحاجي والقصص الكاذبة والصادقة لإغراق المجتمعات بالأوهام والأباطيل، وأضيف والتشكيك برموز هذه الأمة الذين تعتزّ بهم.

---

[٢] انظر حديث الأربعاء ص ٣٩ .

[١] خصائص الأدب العربي ص ٨٨

ومن حسن الحظّ أن قيّد الله في هذا العصر علماء محققين يحــذّرون من هذه المصادر الزائفة التي تجمع أخبار الندماء والمغنين والمضحكين، وكــان معظم من كتب في هذه الموضوعات من الزنادقة وعلــى رأســهم أبــو الفــرج الاصبهاني صاحب كتاب الأغاني الذي قال عنه غير واحد من الثقات بأنه اكــذب الناس وأكثرهم تلفيقاً ، وهو مجرّح العدالة، ورواياته من صحف الــوراقين مــن غير تنخّل أو تثّبت أو تحقيق ، وقد أتى بروايات مدخولة وأحاديث موضوعة لــم يعقّب عليها .[٢]

ولقد ظل الأغاني وما سواه من الكتب التي ألّفها ابن خرداذبة وأبو بكــر الصولي وابن المرزبان والمروزي مجهولة حتــى أمــاط عــن وجههــا القبــيح المستشرقون والمبشّرون ، فأعادوها إلى الحياة بطبعها وإذاعتها والترويج لهــا بين المتعلمين ، وإخراجها في طبعات فاخرة ، وقد تولّى كبر الدعوة إلى اعتمادها مصادر من مصادر البحث تلامذتهم الذين أخلصوا لهم الودّ وحملوا وجهة نظرهم في الحياة ،وقبّحوا وجه العصر العباسي الذي كان من أزهى العصور الإســلامية. يقول أحد الباحثين : " عجبت من جعل كتب الأدب التي يُقــصد بهــا عــادة إلــى الفكاهة ميزاناً يوزن به رجال التاريخ ،وتؤخذ منه تراجم العظماء، ودهشت مــن جعل ما كان يفعله خلفاء العرب وقضاتهم على فرض ثبوته آية على تجرّد العرب من الحضارة ، ولو جعل آية على تجرّد أولئك الخلفاء والقــضاة أنفــسهم مــن الفضيلة لكان أقوم سبيلاً " [١].

وطه حسين فضلا عن انه مأخوذ ببريــق الحــضارة الغربيــة ومــدنيتّها ومناهجها النقدية في الحكم على الأدب والشك في الجوانب المشرقة في التــاريخ العربي والفكر الإسلامي والأدب العربي ، فانه ليس مؤرخاً ولو كان مؤرخاً لمــا جاز له أن يحكم على القرن الثاني للهجرة انه عصر مجون وعصر شكّ اعتمــاداً منه على المصادر التي اعتمدها لإصدار أحكام عامة وتاريخيــة وحاســمة،ككتاب

---

[٢] مقاتل الطالبيين ، والحديث عن مقدمة الأغاني صفحة ق

[١] خصائص الأدب العربي ص ٩٧ .

الأغاني وعلى مجموعة من الشعراء الماجنين كأبي نواس وبشّار وحماد عجرد ،فهؤلاء الشعراء ومن كان على شاكلتهم ليسوا شيئاً بالقياس إلى العلماء والفقهاء والزهاد، والفلاسفة والصوفيين،فطه حسين يرى في هؤلاء الشعراء أنهم يمثّلون عصرهم أشدّ تمثيل وأصدق تمثيل أكثر مما مثّله الفقهاء والمحدّثون وعلماء الكلام. منطق غريب والله أن تكون حفنة شاذّة معياراً على الأغلبية المستقيمة!

وإذا وجد هناك من يتقبّل هذا الرأي الذي تبنّاه طه حسين فان هناك الكثيرين ممّن عارضوه وفنّدوا رأيه، فهذا تلميذه زكي مبارك يقول عنه: إنه رسم لوحة خلق معدنها من الكذب والتمويه، وصنعت مادتها من الضلال والبهتان، وقال : إن شهوة الاطلاع في نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة في حياة الشعراء والكتاب خلقت في كتابه جوّاً من المجون.

وقال مبارك : إن طه حسين يستقي آراءه في العصر العباسي من مصدرين :

الأول : كتاب الأغاني والثاني : شعر الماجنين من الشعراء

أما الأغاني فان صاحبه يحدثنا في مقدّمته بأنه قصد من كتابه اللهو والتسلية[٢]قبل أن يقصد العلم والتاريخ .

أما شعر الماجنين وحياته فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة عصر وأخلاقه.

وقال الشيخ محمد عرفه ما معناه : إن الحكم على عصرً ما بأنه عصر شك واستهتار يعني أن غالب أفراده على هذه الشاكلة ،وكذلك الحكم على عصرٍ ما بأنه عصر يقين واحتشام أن غالب أهله على هذه الشاكلة، ولا يخلو عصر من العصور من الشك والاستهتار واليقين والاحتشام، ولذا لا يجوز أن يؤخذ العصر الثاني للهجرة بجريرة الشاكين المستهترين ، فيقال عنه : عصر شك ومجون، وأن وجود طائفة من هذه صفتهم لا يعطي لأي باحث مسوغاً للحكم على العصر

[٢] انظر : مقدمة الجزء الأول من الأغاني ص ٢

كلّه بأن فيه هذه الصفة، ولو جاز هذا الحكم على مثل هؤلاء الأفراد لجاز لنا أن نحكم بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور[١]. ونحـــن إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في هذا العصر وجدناهم على مرتبـــة عريضة من اليقين والورع والزهد والاحتشام، منهم : الحسن البصري ، وعمرو بن عبيد ، ومحمد ابن ادريس الشافعي ، ومالك بن أنس ، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن دينار ، وعبد الله بن المبارك ، وربيعة الرأي ، ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبّي وكان هؤلاء أعلاماً في الأمة ، انتفع الناس بعلمهم وفقههم وزهدهم وتقواهم، وما يزال الناس يترحمون عليهم ، ويعتبرونهم مثلاً أعلى لمن سار على هداهم، في حين أن طائفة الشعراء الماجنين والأدبـــاء المـــستهترين لا يمثّلون القدوة الصالحة للأمـــة ، ولا يعطـــون الـــصورة الـــصحيحة لمجـــتمعهم وعصرهم، بعكس طائفة العلماء والفقهاء والزهّاد والمحدّثين.

وأخيرا ، فان القارئ لكتاب الأغاني يخيّل إليه من كثرة مـــا يـــذكر مـــن مجون هؤلاء أنهم في جوّ يسيل فسقاً ومجوناً وإلحاداً ، ولكن لو تـــذكر القـــارئ الكريم أن أبا الفرج إنما عني بتاريخ طائفة واحدة فقط هم الشعراء والمغنّـــون ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحمي نفسه من التورط في ذلـــك الحكـــم ، وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء عصر ذاك مستهترين ومـــاجنين[٢] ولا شك أن إصدار مثل هذه الأحكام على حفنة من الشعراء لتعمّ العصر كلّه ، إنما يدخل ضمن المناهج التي حملها المستغربون من أبناء هـــذه الأمـــة ، وســـلّموا بصحتها إيماناً بها واستسلاماً لدعاتها من الغربيين من أمثال دور كايم أو فرويد ، والذي يهدف إلى تعرية البطولة الإسلامية ، والـــسخرية مـــن الأبطـــال وتلمـــس العورات لهم ، وذلك في نطاق تدمير كل مقومات الأدب العربي وبطولات الإســـلام والعرب، حتى لا يجد المثقفون من أبناء هذه الأمة في بطولاتهم وتاريخهم وأدبهم ما يعتزّون به أو يرون فيه مثلاً أعلى لهم، لان دعاة التغريـــب بالمنـــاهج التـــي

---

[١] خصائص الأدب العربي ص ٩٩ .

[٢] خصائص الأدب العربي ص ١٠٠

اعتمدوها أرادوا أن يغرقوا الأدب العربي في بحار من التغريب والـــشعوبية ،وتدمير كل مقوّمات هذه الأمة من خلال النماذج التي ساقوها من كتاب الأغاني ، واعتماد هذا الكتاب الأساسي الذي رسمت فيه صورة الأمة العربية وهي كما يقال صورة زائفة مضطربة بعيدة عن المناهج العلمية والنظرة المنـــصفة. فالتـــاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية التي وصلت إلى السماكين في عظمتها في جميع صور الحياة النظيفة الفاضلة ، والتي حفظت تراث العالم من العلم والحكمـــة والمدنيـــة قروناً طويلة، حتى أصبحت معلمة العالم اجمع، لا يصحّ أن يورد تاريخهـــا علـــى شكل أسلوب قصصي يتسلّى به العـــابثون ، علـــى النحـــو الـــذي رأينـــاه عنـــد المستشرقين والمستغربين [1].

والله من وراء القصد،،،،

الباحث

د،عطيه نايف الغول

---

[1] **عولّت في هذه الخاتمة على كثير ما كتبته الأستاذ أنور الجندي عليه رحمة الله ي كتابه خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث حول هذا الموضوع.**

المصادر والمراجـــع

- القرآن الكريم
- الكتـــاب المقـــدّس (العهـــد القـــديم والعهـــد الجديـــد) : دار الكتـــاب المقدس، ٢٠٠٥ م، ط ٣

١ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ) : الكامـل فـي التاريخ ، دار صادر ، بيروت، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

٢ - ابن الأثير (مجد الدين المبارك بن محمـد الجـزري ت ٥٨١ هـــ) : النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق عبد الحميد هنـدي، المكتبـة العصرية – صيدا - لبنان،٢٠٠٨ ن / ١٤٢٩ هـ.

٣ - الأبشيهي (شهاب الدين محمد بن أحمد ت ٨٥٠ هـ) : المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف،مكتبة دار الحياة ، بيروت - لبنان ٢٠٠١م /٢٠٠٢ م.

٤ - ابن جبير (محمد بن أحمد ت ٦١٤ هـ : رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٣٧٩هـ ، ١٩٥٦ م.

٥ - ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن ت ٥٩٧ هـ) : المنـتظم فـي تاريخ الملوك والأمم ، ط /حيدر آباد ،الدكن،دائرة المعارف العثمانيـة ، ١٣٩٥ هـ.

٦ - ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ) مقدّمة ابن خلدون ، كتاب التحرير، القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ م.

٧ - ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم الشافعي ،ت ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحـسان عبّـاس ، دار الثقافـة ، بيروت ،١٩٦٩م/١٩٧٠م.

٨ - ابن سعد (محمد بن منيع الزهري، ت ٢٢٠هـ) : الطبقات الكبرى ، دار صادر بيروت ، ١٣٧٦هـ /١٣٧٧هـ.

٩ - ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشـــي ت٧٧٤هــــ) : البداية والنهاية مطبعة السعادة، القاهرة ، ١٩٣٢ م.
١٠ - ابن المعتزّ (عبد الله بن المعتزّ، ت ٢٩٦ هــ): طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستّار فرّاج، دار المعارف ، القاهرة.
١١ - ابن منظور (محمد بن مكرم، ت ٧١١ هــ) لسان العرب، دار صـــادر ، ودار بيروت، بيروت ، ١٩٥٦ م.
١٢ - ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري، ت ٢١٣هــ) السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقّا وآخرين ، دار إحياء التراث العربـــي ، بيـــروت – لبنان.
١٣ - أبو بكر الصولي (محمد بن يحيى بن عبد الله ت ٣٣٥ هــ) : أشـــعار أولاد الخلفاء القاهرة .
١٤ - أبو جعفر (محمد بن جرير الطبـــري ،ت ٣١٠ هــــ): تـــاريخ الأمـــم والملوك ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٧ هــ / ١٩٨٧ م).
١٥ - أبو حيّان التوحيدي(علي بن محمد بـــن العبّـــاس ، ت ٤١٤ هــــ) : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق أحمد أمين ،وأحمد الـــزين، مكتبـــة الحيـــاة، بيروت.
١٦ - أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين بن محمد الأموي القرشـــي، ت ٣٥٦هــ) الأغاني ، دار الكتب المصرية ، ط بولاق .
مقاتل الطالبيين ، شرح وتحقيق السيد أحمـــد صـــقر ، دار المعرفـــة ، بيروت – لبنان.
١٧ - أبو نواس (الحسين بن هاني ،ت ١٩٦ أو ٢٠٠ هــــ) : ديـــوان أبـــي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالـــي ، ط دار الكتـــاب العربـــي – بيروت.
١٨ - أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت٤٢٩ هــ : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر،دار الكتب العلمية، ١٩٧٩ م/١٣٩٩ ه، ط ١ .

١٩ - أحمد أمين : فجر الإسلام : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنـــان ، ١٩٧١ م ، ط ٣.
ضـــحى الإســـلام : دار الكتـــب العلميـــة – بيـــروت – لبنـــان ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ط١.
ظهر الإسلام : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، ٢٠٠٤م /١٤٢٥هـ ، ط ١ .
٢٠ - أحمد بن عبد ربّه ،ت ٣٢٨ هـ : العقد الفريد ، تحقيـق مفيـد محمـد قميحة دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٣م.
٢١ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمـد عبد الهادي ابوريده ،دار الكتاب العربي، بيـروت ، مكتبـة الخـانجي ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ط ٤.
٢٢ - أنور الجندي: خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبـي الحديث، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، دار الكتاب المصري ، القاهرة.
٢٣ - أنيس المقدسـي: أمـراء الـشعر فـي العـصر العباسـي ، دار العلـم للملايين،بيروت ،١٩٦٣م ،ط٦.
٢٤ - البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغـداد ،دار الكتاب العربي – بيروت.
٢٥ - البكري (عبد الله بن عبد العزيز محمد ت ٤٨٧ هـ): سمط اللآلي فـي شرح أمالي القالي ، دار الكتب العلمية ، تصحيح وتحقيق عبـد العزيـز الميمني.
٢٦ - التنّوخي (القاضي أبو علي المحسّن علي بن محمـد ت ٣٨٤ هـــ) : الفرج بعد الشدّة ،وضع حواشيه ســامي الجنـدي، دار الكتـب العلميـة بيروت،٢٠٠٥م/١٤٢٦هـ).
٢٧ -الجاحظ (عمرو بن بحر ت ٢٥٥ هـ) : البيان والتبيين ، تحقيق عبـد السلام هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة.

- الحيوان ،تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ،القاهرة، ١٩٣٨م/١٩٤٥م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون ،دار مكتبة الهلال ،بيروت – لبنان، ١٩٨٧م ط١.
٢٨ - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،دار الجيل بيروت ، مكتبة ا لنهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٩٦ م ، ط ١٤.
٢٩ - الخطيب العدناني: النكاح وأصول الزواج في الإسلام، الانتشار العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م ،ط ١.
٣٠ - الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد ت ٤٤ هـ) : ديوان الخنساء،شرحه وضبطه د. عمر فاروق الطبّاع، دار القلم ، بيروت – لبنان.
٣١ - خير الدين الزركلي : الأعلام/قاموس تراجم ، دار العلم للملايين ، بيروت،١٩٧٩م،ط٤.
٣٢ - الذهبي(محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، أبو عبد الله ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م) سير النبلاء، بيروت – دار الرسالة.
٣٣ - سامي عابدين: الغناء في قصر الخليفة المأمون وأثره على العصر العباسي، دار الحرف العربي ، بيروت – ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م ،ط ١.
٣٤ – سامي مكّي العاني : الإسلام والشعر، عالم المعرفة، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م عدد ٦٦ .
٣٥ - السيد عبد العزيز سالم : العصر العباسي الأول ، مؤسسة الشباب الجامعية – الإسكندرية.
٣٦ - السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ): تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين مصر ، المطبعة المنيرة، ١٣٥١ هـ.

٣٧ - شوقي ضيف : العصر الجاهلي ،دار المعـارف بمـصر ، ١٩٦٠ م ، ط ٨.
العصر العباسي الأول ،در المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦م، ط٢.
العصر العباسي الثاني ،دار المعارف بمصر، ١٩٧٣ م ،ط ٢.
٣٨ - صلاح مهدي الزبيدي: دراسات في الشعر العباسي ، الأكـاديميون للنـشر التوزيع،عمان ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م ،ط ١.
٣٩ - طه حسين : حديث الأربعاء ،دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٢.
٤٠ - العباس بن الأحنف (ت ١٩٢ هـ): ديوان العباس بن الأحنف،تحقيـق د. عاتكة الخزرجي، ط دار اكلتب المصرية.
٤١ - العبّاسي (عبدالرحيم بن أحمد ت ٩٦٣ هـ) : معاهـد التنـصيص علـى شواهد التلخيص ، تحقيق محمد محي الدين عبـد الحميـد،عالم الكتـب ، بيروت ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م.
٤٢ - عبد البـديع صـقر: شـاعرات العـرب، منـشورات المكتـب الإسـلامي ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م،ط١.
٤٣ - عبد السلام الترمانيني: الزواج عند العرب في الجاهلية والإسـلام ، عـالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م عدد٨٠.
٤٤ - عبد المنعم جبري : المرأة عبر التاريخ البشري، صفحات للدراسات والنشر ، دمشق ٢٠٠٧م ، ط ١.
٤٥ - العقاد (عباس محمود : ابن الرومي حياته من شعره، المكتبة العصرية – صيدا - بيروت ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م.
٤٦ - الفرزدق (همام بن غالب ت ١١٤ هـ) : ديوان الفـرزدق ، دار صـادر ،بيروت ١٩٦٦م.
٤٧ - القالي (أبو علي ، إسماعيل بن القاسـم ت ٣٥٦ هـــ): الأمـالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٤٨ - القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ت ٦٧١ هـــ) : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق د. عبد الله عبد المحسن التركي وزملائـــه، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ط ١.
٤٩ - ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين،وهكذا عادت القدس دار الفرقان عمان ، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م ،ط ٣.
٥٠ - المبرّد (أبو العبّاس محمد بن يزيد ت ٢٨٥ هـ): الكامل في اللغة، مكتبة المعارف، بيروت.
٥١ - محمد أبو الأنوار : الشعر العباسي تطوّره وقيمه الفنية ، مكتبة الـــشباب ، القاهرة ، ١٩٨٣ م.
٥٢ – محمد صلاح السيد عدنان الموسوي : دليل الهداة إلـــى اختيـــار شـــريكة الحياة - المرأة في الإسلام – الانتشار العربي ، بيروت - لبنـــان ،١٩٩٧ م، ط ١.
٥٣ – المرزوقي (أحمد بن محمد بن الحـــسن ت ٤٢١ هـــ): شـــرح ديـــوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٥١ م.
٥٤ - المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ) : مروج الـــذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس ، بيروت .
٥٥ - مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايـــين ١٩٧٥م، ط ٢.
٥٦ - المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ) المواعظ والاعتبـــار فـــي ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، ١٢٧٠ هـ.
٥٧ - الميداني (أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري ت ٥١٨ هـ) مجمع الأمثال تقديم وتعليق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنـــان ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.
٥٨ - ناجي معروف : أصالة الحـــضارة الإســـلامية ، دار الثقافـــة ، بيـــروت - لبنان،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ،ط٣.

٥٩ - النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ، نسخة مصوَّرة عن دار الكتب.

٦٠ - ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦ هـ) : معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، دار الكتب العلمية – بيروت - لبنان ،١٤١٣هـ/١٩٩٣م ،ط ١.

٦١ - الوشّاء (محمد بن إسحاق بن يحيى) : الموشّي أو الظرف والظرفاء، دار صادر بيروت ، ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م.

٦٢ - يوسف القرضاوي: فقه الغناء في ضوء القرآن والسنّة، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦ م ، ط ٤.

والحمد لله رب العالمين.

د. عطيه نايف الغول